

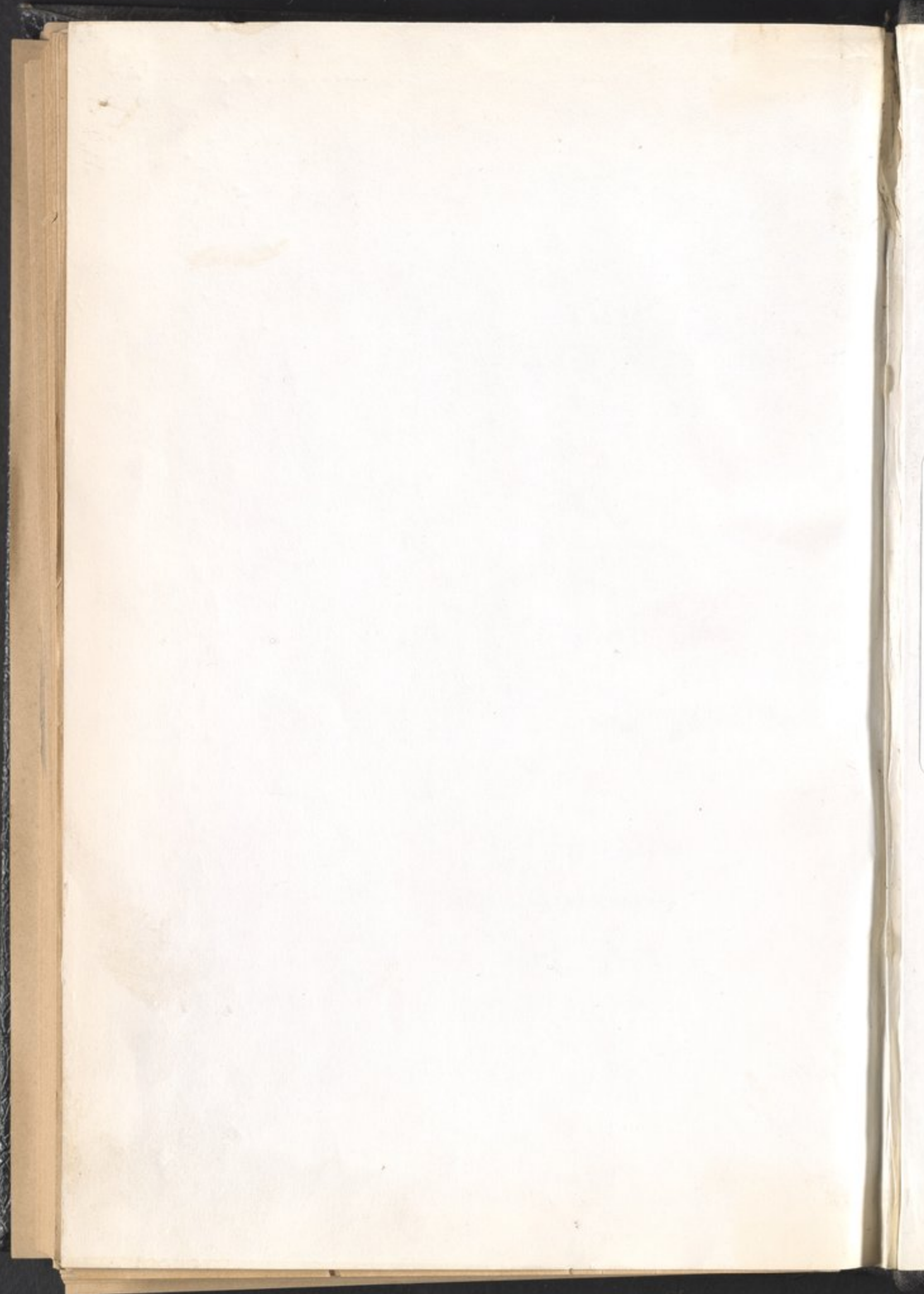
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

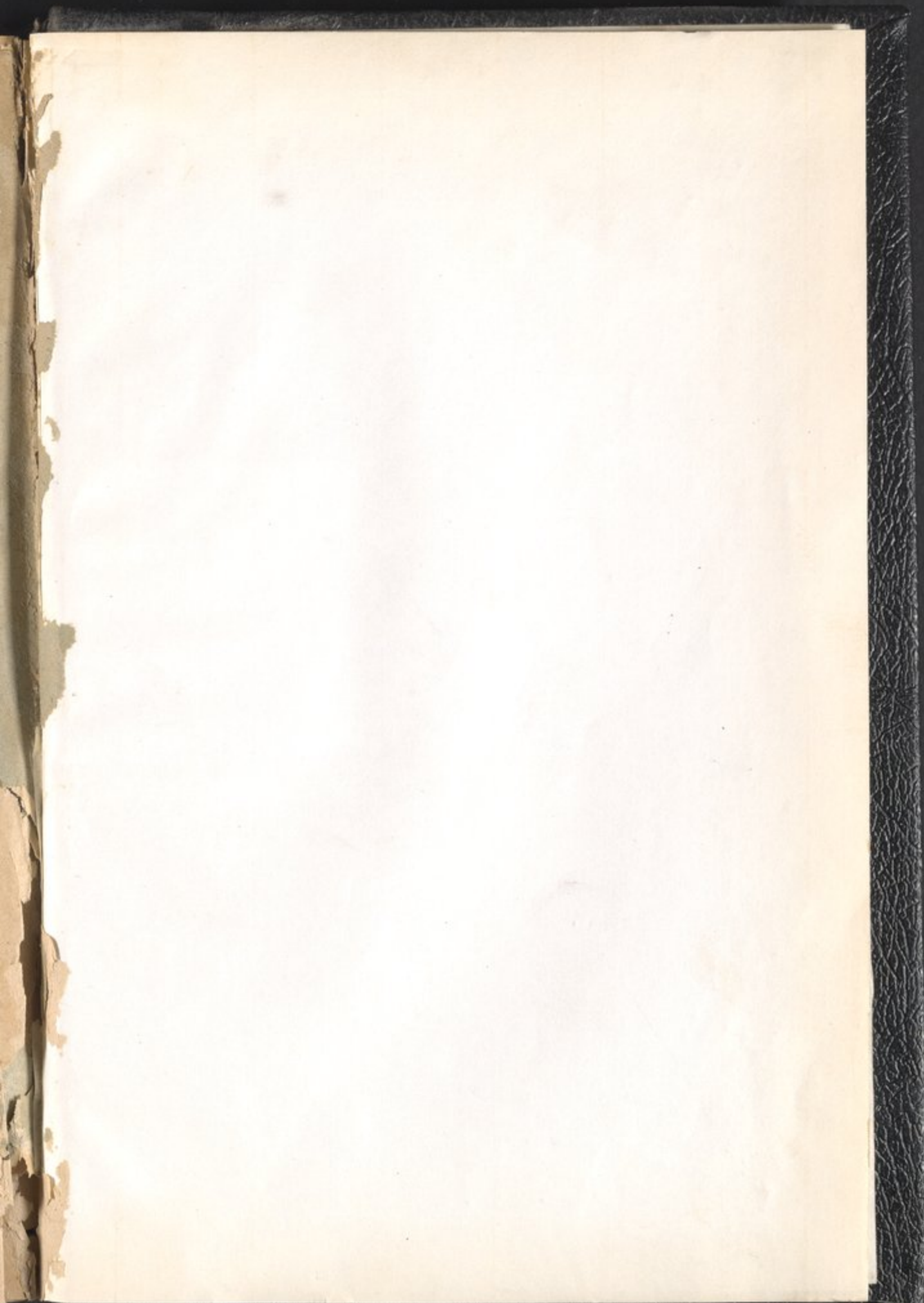
3 8534 01224 0150

مجلد









كتاب

تعليم وإرشاد

سنة ألف

السيد محمد بدر الدين الحلبي

تسم الأول منه في التعليم وفيه الكلام على العلوم والمؤلفات وبيان
لجيد منها من غيره وشرح أسباب انحطاط العلوم الشرعية وذكر
الطرق النافعة في التعليم

مفوق الطبع محفوظ

(الطبعة الأولى)

(سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر)

« لصاحبها محمد اسماعيل »

٢٢٥

LC

903

H35X

1906

v.1

7-

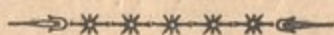
7-

OCLC
31529227
اهداء الكتاب

٢
B13962164
16010255

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

— اهداء الكتاب —



لو كنت أعلم أن أحداً من خاصة المسلمين أولى بهذا الكتاب
من سائر إخوانه أو هو أجدر به منهم وأحق به دونهم لآثرته به
وجعلته مقصوداً على اسمه .. ولكنني نظرت فرأيت أن موضوع
الكتاب البحث عن حال التعليم والارشاد والدعوة في الاسلام وما طر
على هذه الوظائف الثلاث من الضعف والاضمحلال والنظر في
الامراض التي طرأت على جسمها فاصارتها الى مثل ما تراها عليه والذي
في الادوية التي يمكن بواسطتها استنقاذها من مخالب هذه الادوية
التي أصابتها

ورأيت أن هذا مشترك بين المسلمين كلهم لا يمتاز فيه قوم
قوم ولا فرد عن فرد فان الدين دينهم وهم فيه شركاء ونسبة كل
منهم اليه كنسبة الآخر وصلاحه صلاحهم جميعا وسوء حاله سوء

حاصلهم جميعا لا يمتاز فيه واحد عن واحد
 الا انه لما كان المخاطب بهذا الكتاب ليس أهل بلد من البلاد
 ولا قطر من الأقطار بل المخاطب به المسلمون كلهم في مشارق الارض
 ومغاربها والبحث فيه عن أحوال التعليم والارشاد والدعوة في كافة
 الممالك الاسلامية ولم يكن في إمكان هذا العاجز أن يبلغ بصوته مسامع
 اخوانه المسلمين على تباعد أقطارهم وتباين ديارهم جعلنا كتابنا هذا هدية
 لأصحاب الجرائد الاسلامية في كافة الممالك والأقطار سيما المجالات العلمية
 لينوهوا بذكره بين الناس ويشاركونا في البحث في موضوع الكتاب
 ويقرؤنا على ما كان فيه من صواب وينتقدون علينا ما كان فيه مما لا يطابق
 الواقع ولا يصادف الحقيقة ويضموا أصواتهم الى صوتنا في مطالبة علماء
 الاسلام الذين بيدهم مقاليد التعليم واليهم أمر الارشاد والدعوة وهم
 المسؤولون عن الوظائف الثلاث والمطالبون بالقيام بها أن يذكروا لنا
 آرائهم في هذا الموضوع الذي طال فيه البحث وكثر القيل والقال
 مع أطراح العادات والمألوفات ومراعاة جانب المصلحة والدين والذمة
 والشرف فان لأصحاب الجرائد من المكانة في قلوب الناس والثقة بهم
 ما ليس لغيرهم من الناس وهم قد وقفوا أقلامهم وحبسوا ساعات
 مرهم على خدمة الامم والنظر في مصالحهم سيما ما كان فيهما متعلقا بالدين
 وله ارتباط بصلاحه وتحسن أحواله

وان لنا لا ملاً وطيداً إن صادفنا من أهل الفضل من يضم^نها
الى صوتنا أن نتمكن من تحويل النظام العلمى الحاضر وتخفيف وصد
وباله على العلوم والاعمال والعقائد ان لم يكن فى الامكان قلبه مرة
واحدة وسحقه بجملته أو على الاقل ان لم يكن هذا ولا هذا تكثير
عدد الذين شعروا بسوء الحالة الحاضرة وأدركوا وبال المستقبل ان لم
يبادر الناس الى صد هذا التيار الذى جرف العلوم الدينية والأخلاق
الاسلامية وأفسد العقائد والاعمال

فاذا كثر عدد المطالبين بتغيير نظام التعليم الحاضر وكثر أتباع
الحق اتسع نطاق الأمل فى انتصار جيوش الحق وانحار جيوش
الباطل ولقد كنا من عشر سنوات وما ان يستطيع أحد من أى
طبقة من طبقات الناس أن يهمس بشئ مما نرفع به أصواتنا اليوم ومن
شعر منه بشئ من ذلك رأت عيناه ما لا يرى

ونحن لانشك فى انه لم يزل فى كل مصر من أمصار المسلمين
منذ جرى الناس على هذه الطرق فى التعليم والارشاد من أهل الفضل
والعقل من يسوءهم ذلك ويودون من صميم قلوبهم أن لو تغيرت
هذه الطرق واستبدلت بطرق أخرى تكون خيراً منها لكان هناك
عوائق حجة تمنعهم من المجاهرة بأرائهم ودعوة الناس الى النظر فيها
وتمييز حقها من باطلها

في نبع فيهم من لم يكن يرجو بمداهنته مصلحة ولا يخشى
 رته بأسا ورفع صوته باستنكار الحالة الحاضرة ووجوب
 استبدالها بغيرها من الطرق الحسنة النافعة تحرك بحركته قوم ما كان
 يمنعهم من الحركة غير الخوف فصاروا حزبا تمكنوا في خلال هذه
 المدة اليسيرة من اقناع قوم آخرين لم يكونوا من المقتنعين بسوء الحالة
 العلمية ووجوب السعي وراء اصلاحها والافهوا الوبال على العلوم الاسلامية
 وانا لنامل أن لا يزال أنصار هذا المذهب يزدون ويكثرون على
 تكرار الايام حتي لا تخلو مصلحة من مصالح العلوم الدينية ووظيفة
 من وظائفها عن قوم منهم يشايعون الحق ويأخذون بيده حتى تكون
 كلمته هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ويعود العلم والارشاد الى مثل
 ما كانا عليه في أول الاسلام رونقا ونضارة والله على كل شيء قدير
 وقد بنينا القسم الاول من كتابنا هذا وهو قسم التعليم على
 ثلاثة اغراض

الاول . البحث في العلوم التي يشتغل طلاب العلوم الشرعية اليوم
 بها وبيان ما تمس حاجة المسلمين الى الاشتغال به وما لا تمس وفي الاسلام
 غنية عنه لأنه دون لا خدمة الدين من أول ما دون أو دون لمصلحة
 دينية وقد حصلت تلك المصلحة وانقطع وقتها ولم يبق من حاجة
 الى النظر فيه فاذا رأينا من العلوم ما لا خير في الاشتغال به ولا مصلحة

للاسلام تحصل من تعلمه وتعليمه أشرنا بتركه حرصاً على الوقت
 يمضي في غير فائدة واستبداله بعلم آخر من العلوم التي تمس الحاجة إليها
 وفي تركها فوات مصلحة من المصالح الدينية والناس معرضون عنه غير
 ملتفتين إليه أو صرف وقته في بعض العلوم التي قلت عناية الطلاب
 طلاب العلوم الشرعية بها ولم تمنح من ساعات العمر الا اليسير
 الثاني . . بيان حقيقة المؤلفات التي يشتغل بها طلاب العلوم الشرعية
 وذكر النافع منها من غيره والاشارة الى مايجب الاشتغال به من
 الكتب الجيدة النافعة فان الكتاب أحد الاستاذين وهو المعلم عند غيبة
 المعلم فهما حسن حسن عنه الاخذ وكثرت منه الاستفادة وكان الطالب
 أول ما يسأل عن استاذه الذي أخذ عنه كذلك يسأل عن الكتاب
 الذي تلقن منه فان كان من الكتب العالية علت مرتبة الاخذ منه
 وتخط مرتبته بقدر انحطاط مرتبة الكتاب في نوعه . . وهذا قد غفل
 عنه طلاب العلوم كافة غير نفر يسير هم أقل من القليل وفطن له
 محبو العلم ممن قلت ملامستهم له . . فربما وجدت في هذا القسم قوما هم
 على قلة نظرهم في كتب العلم وندرة اشتغالهم به أتم ادراكا وأكمل فهما
 وأحسن إحاطة بما علموا من مسائل العلوم من أولئك الذين أفنوا
 ساعات عمرهم في الاشتغال بالعلوم وكان هذا التفاوت المتباين الاطراف
 نتيجة حسن الاختيار فيما يؤخذ عنه العلم من الكتب

الثالث . . النظر في طرق التعليم وكيفيته في المدارس الاسلامية عامة
في مصر والغرب والشام والهند وغيرها وبيان جيدها من رديتها
وذكر طرق التعليم النافعة التي كان يجري عليها التعليم في القرون الأولى
ليعمل به في أيامنا هذه

ثم ليعلم اننا لم نقصد في شيء مما ذكرناه في كتابنا هذا تصريحاً
واشارةً قوماً مخصوصين ولا أشخاصاً معينين وانما كان القصد لذكر
حالة العلوم الشرعية والنظر في اصلاحها عند أهل كل قطر ومصر من
الامصار الاسلامية فليكنفنا الناس النظر الشزر والقول الهجر فما إياهم
أردنا ولا نحوهم قصدنا وليشاركونا في هذا البحث وينظروا معنا فيه
نظرة من يتعرف الداء ليلتمس الدواء فعسى أن يتيسر الشفاء
وليعلموا ان الناس بعد هذا اليوم ما كانوا ليركوهم وشأنهم بعد
مارأوا من سوء حالهم ولا بد من تفريق هذه الجماعات الكثيفة أو
المشي على سنن محمد الناس غب أمره ويحتنون ثمرة فوائده فهم في
خير النظر بين الأمرين وفيما غبر وما هو حاضر من حوادث الزمن
دلائل قوية على سوء عواقب الجمود والاصرار على التمسك بالباطل
ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطبع العوالي ركبته كل لهضم
كما اننا لم نقصد بشيء مما كتبناه في انتقاد المؤلفين المتقدمين
ومؤلفاتهم وذكر بعض معائبها انتقاصاً أحد أو الخط من مقام مؤلف

وانما الغرض اقامة الحججة على ان تلك المؤلفات ليست مما يجب الاعتناء
به بل مما يجب طرحه وهجره لسكونها قاطعة عن العلم على ان الانتقادات
البيسيطة الأديية ليست في محل الاستنكار ولا يحاشى عن انتقاد بلحقه
أو اعتراض يتوجه عليه إلا من ثبتت له العصمة وحق له الحفظ أما من
عدا ذلك من الانسان فهو في معرض السهو والخطأ والنسيان فلا
يذهب الناس فيما كتبنا كل مذهب ولا يكبر عليهم ذلك فالحق أحق
أن يتبع وليس على خطأ متابعة نسأل الله ان يأخذ بيدنا الى ما فيه صلاحنا
هو حسبنا ونعم الوكيل



﴿ توطئة وتمهيد ﴾

ليس يشك أحد في ان لكل دين من الأديان وشريعة من الشرائع حملة يعلمون الناس أصول ذلك الدين وفروعه على وجه يتمكن به المستفيد من افادته لغيره وتعليمه إياه على مثل الطريقة التي استنفاده بها وأولئك الحملة المعلمون هم الذين نسميهم اليوم العلماء وأولئك الآخذون عنهم المتلقون منهم على الوجه المذكور آنفاً هم الذين نسميهم طلبة العلوم

ومرشدين يعلمون العامة من أهل ذلك الدين ما يحتاجون اليه من أمر دينهم على وجه يصححون به أعمال أنفسهم ويتعهدونهم بالموعظة ويعيدون على أسماعهم ذكر الدار الآخرة وما أعد الله جل شأنه فيها لمن أطاعه بآتيان أوامره واجتناب نواهيه من الثواب وما ادخر لعاصيه من العقاب لئلا يُسهل عليهم نزق الجهل الاستهانة بالأحكام الشرعية الدينية ثم رفضها وهؤلاء هم الذين نسميهم اليوم الوعاظ

ودعاة وهم الذين يدعون أهل غير دينهم الى الدخول في دينهم مع اقامة البراهين على حقيقة ما يدعون اليه ويحملون غيرهم عليه ودفع ما يورده مخالفوهم عليهم من الشكوك والشبه وهؤلاء هم الذين

(٢ - التعليم)

يسميهن بعض الطوائف (مبشرين) ولا أعرف لهم اسما عرفيا يخصصهم
عندنا نحن المسلمين اذ ليس لهم وجود حتى يضع العرف لهم اسما
لا أقول ان رجال كل فريق من الثلاثة غير رجال الفريق الاول
وان لكل وظيفة من هذه الوظائف الثلاثة رجالا غير رجال الوظيفة
الأخرى وانما أقول ان هذه الوظائف الثلاث موجودة عند أهل
كل دين من الأديان سواء كان القائلون بها متحدين أو مفترقين فقد
يوجد في بعض الاشخاص أهلية تؤهله للقيام بهذه الوظائف جميعا
وفي نفسه همة تبعثه على القيام بها جملة واحدة فتارة تراه في المدارس
الدينية يقرر لتلاميذه أصول الدين وفروعه وأخرى تراه في المعابد
يعلم العامة ما يلزمهم من أمر دينهم وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم
وطورا تراه في المحافل والمنتديات ينشر على الناس محاسن دينه ويدعو
الناس الى الدخول فيه والاهتداء بهديه وقد يوجد في شخص آخر
ما يؤهله لوظيفة واحدة من هذه الوظائف الثلاث دون غيرها حتى
لو حاول من نفسه القيام بوظيفة أخرى لم يستطعها ولم يأت فيها بشيء
وكما كانت طرق التعليم والارشاد والدعوة عادلة وكانت تؤدي على
أحسن وجوهها التي يمكن أن تؤدي بها كانت حالة ذلك الدين أحسن
وحالة المنتمين اليه أجمل وأكمل والضد بالضد شبرا بشبر وفترا بفترا
والناظر الى الدين الاسلامي اليوم يرى إن كان من أهل البصر

ان الوظائف الثلاث فيه أصبحت معتلة مختلفة بحيث أصبحت تستحق
نظر رحمة وحنان من الذين يودون ارتفاع شأن الاسلام بين الاديان
فوظيفة التعليم أصبحت عقيمة بما اعترى جسمها من الادواء
فما تكاد تنتج شيئاً ولو أردنا أن نحصى عدد الناجحين من أولئك
المستعدين لتعلم العلوم الدينية نجاحاً نسبياً لم يكونوا أكثر من واحد
في كل مائة ولو طلبنا الناجحين حقيقة الذين يمكنهم القيام بوظيفة
التعليم لم يكونوا أكثر من واحد في الالف ان أكثر عددهم
وهذا الاحصاء وان كان مبنياً على التخمين وغلبة الظن الا أن
له من الشواهد ما يؤكد صحته ومطابقته للواقع أو قربه منه
ولا يضرنا أن يخالفنا قوم يرون أن البقاء على الحالة الراهنة
فريضة لازمة وضربة لازب فيقولوا ان أكثر المتعلمين ناجحون
فان الحالة المشاهدة حكم عدل بيننا وبينهم
وأما وظيفة الارشاد فبعد ان كانت من أهم الوظائف الدينية
ومصلحة من أجل مصالحه صارت من أكبر المفاسد حتى صار من
أوجب الواجبات على رؤساء المسلمين وأهل الكرامة النافذة فيهم
والأمر المطاع بينهم اعدام هذه الوظيفة مؤقتاً ريثما يتمكن الناظرون
في اصلاح شأن الاسلام من تحسين حالها وردها كما كانت وغصن
الاسلام على اضراره فلقد يموت كل يوم بسبب هذه الوظيفة سنة وتحياً

بدعة وينتشر عنها من الخرافات المفسدة للعقل والدين ما لا يحصيه الا الله
ونحن الآن في هذا المقام بصدد بيان الباعث على جمع هذا
الكتاب ونشره وبيان أهمية مباحثه التي تضمنها وتنبئه الخاصة على
ما يجب عليهم من مشاركتنا في هذا البحث حتى يتبين الحق فيه من
الباطل ويمتاز النافع عن الضار فيعمل بالأول ويترجى الثاني فاذا انتهينا
الى المقصود ذكرنا كل وظيفة من الوظائف الثلاث في باب على
حدة وبيننا ما طرأ عليها من المفسد وما اعترى محاسنها من التشويه
ببراهين مشاهدة محسوسة ترفع النزاع

وأما وظيفة الدعوة فقد ارتفع من بيننا نحن المسلمين اسمها
ومسماها ولا أدري متى فارقت هذه الوظيفة الحياة وان كنت أجزم
انها آخر الوظائف الثلاث اعتلالا وموتا ووظيفة الارشاد أو وطن
اعتلالا وموتا

فان أمير المؤمنين عليا رضی الله تعالى عنه حين دخل مسجد
الكوفة الجامع أمر باخراج من به من الوعاظ ومنعهم من وعظ العامة
غير الحسن البصري فانه لما وقف عليه وسمع كلامه أعجب به فاستبقاه
ولم يمنعه

وغير شك أن عليا رضی الله عنه لم يأمر باخراجهم من المسجد
ومنعهم من الوعظ الا وقد سمع من كلامهم ما لا ينطبق على الدين

فرأى أن المصلحة في اخراجهم وفي تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها
وعلى هذا فان فساد وظيفة الارشاد ودخول الخلل عليها كان
في وسط القرن الاول ثم اتسع الخرق بعد ذلك وعظم الخطب فصار
الارشاد صدأً عن سبيل الله وأكثر هؤلاء القصاص من وضع
الاحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى رجال
الدين وجوب تلافي هذا الخطر فاشتغلوا بجمع متون الحديث وتأليف
كتب في حال رواته وهو المسمى بالجرح والتعديل

وان كنت قد قرأت في بعض كتب التاريخ ان الزنادقة الذين
كان دخولهم في الاسلام لاتقاء سطوته أو النكاية فيه انتقاماً من أهله
أكثروا من وضع الاحاديث المغايرة لحقيقة ما جاء به النبي صلى الله
عليه وسلم فاعلم ان هؤلاء الزنادقة لم يكونوا يكتبون احاديثهم الموضوعة
ويطرحونها على قوارع الطرق فيلتقطها الناس بل ولم يكونوا يحدثون
بها الخاصة وانما كانوا يحدثون بها العامة في حلق دروس الوعظ
والارشاد فما ذكر في كتب التاريخ وهنا واحد

ولولا خشية الاطالة والخروج عما نحن بصدده لبينا مبداً اعتلال
كل وظيفة من هذه الوظائف وتاريخ وفاتها مفصلين ذلك تفصيلاً
حسناً مبرهنين على كل ما ذكره بحوادث تاريخية تؤكده صحته
وموافقته للحقيقة. ولكن انما كان قصدنا في هذا الكتاب الى ذكر

فساد حال الوظائف الثلاث في أيامنا هذه على كثرة أهميتها وشدة حاجة المسلمين إليها في المحافظة على دينهم ورفع شأنه بين الأمم التي تخالفه والتماس الدواء النافع لهذه الأمراض القاتلة وبيان كيف يمكن البرء منها مع قطع النظر عما إذا كانت هذه الادواء قديمة أو شيئاً حدث من جيل أو جيلين أو أكثر أو أقل

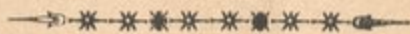
وسنقدم بين يدي كلامنا فيما قصدنا إليه مقدمة نافعة فإذا انتهينا منها انتقلنا إلى المقصود فقدمنا الكلام على التعليم نرتب الكلام فيه على فصول نذكر في كل فصل منها علماً من العلوم المتداولة ونبين مقدار أهميته وكمية الحاجة إليه ثم نبين الكيفية التي يُعلَّم ويتعلَّم بها في أيامنا هذه في المدارس الإسلامية فإن كانت الطريقة التي أتلف العلماء التعليم عليها غير حسنة ولا كافية في الوصول إلى المطلوب ذكرنا ذلك مبرهنين عليه وأشفعناه ببيان الطريقة التي تتكفل بالوصول إلى الغرض المطلوب منه في الزمن اليسير على قدر ما يتصل به فهمنا

فإذا انتهينا منها علماً علماً انتقلنا إلى الكلام على وظيفة الارشاد فنذكر كيف كانت في عصر الخلفاء الراشدين وكيف مسخت صورتها بعد ذلك وما حدث في الإسلام من الاحداث المضرة المفرقة بسبب الوعاظ وكيف صارت حالها اليوم بين أيدينا وإلى أي درجة من الفساد انتهت إليه وما ينبغي ان يتخذ لها من العلاج حتى يعاودها البرء

ويصلح مزاجها وتصير بحيث يمكنها ان تؤدي الغرض المقصود منها
وتفيد النتيجة التي ربت من أجلها

فاذا أتينا على ذلك كله واستوفيناها إيضاحا وبيانا شرعنا في الكلام
على الدعوة فينا حقيقتها التي ينبغي ان تكون عليها وكيف كانت في
صدر الاسلام وما ينبغي ان يفعل حتى تعود الى مثل ما كانت عليه
حين أول نشأتها وفي شرح أشبابها

وقد أفدنا ما قصدنا اليه من المعاني بعبارات سهلة بسيطة قريبة
التناول سهلة المأخذ حتى لا يستعصى على أحد من الناس فهمها وادراك
ما فيها فانا لم نقصد بهذا الكتاب خاصة الامة وفضلاءها فانهم يعلمون
من حال هذه الوظائف أكثر مما نعلم ولكن القصد الى افهام من
هو دونهم ممن حجبه حجاب التقليد عن مشاهدة الصواب فيها والله
المسؤل ان يوفقنا لسالك أقوم الطرق انه خير موفق ومعين وهو
حسبنا ونعم الوكيل



* مقدمة كتاب التعليم *

ابتداء تدوين العلوم - بيان الغرض الباعث على تدوين كل واحد منها ووجه الحكمة في ذلك - حاجة الاسلام اليها - أحسن مؤلفات كل فن منها العلوم التي تدارسها اليوم ونشتغل بها تعلمًا وتعليمًا في المدارس المخصصة لتعليم علوم الدين سواء كانت دينية أو وسيلة لعلوم الدين لم تكن في صدر الاسلام وإنما حدثت بعد الصدر الاول في أزمان متقاربة للحاجة اليها أو للتوسع في العلوم والمعارف ولم يكن حدودها على الوجه المشاهد بيننا الآن دفعياً وإنما كان تدريجياً شيئاً فشيئاً على حسب ما يبدو من الحاجة اليها حتى بلغت أعلى مراتب كمالها ثم عادت الى الذبول والتلاشي والضعف والاضمحلال حتى صارت كما نشاهدها اليوم

فعلم العربية كان ملكة من الملكات يأخذها الأول عن الآخر كما يتلقى الصبيان اللغات من أهلهم فلما جاء الاسلام واشتغل الناس بالفتوح وتوغلوا في بلاد الاعاجم وكثرت مخالطتهم لهم تغيرت الملكات بما تسكرر عليها سماعه من كلام المتعربين وفسدت بما ألقى فيها مما يغيرها نخشي أهل العلم ان تفسد تلك الملكة رأساً ويغلق عليهم فهم القرآن والسنة لفساد الملكة التي تؤهل لفهمها فوضعوا هذه القواعد لحفظ اللسان العربي من الاضمحلال والتلاشي حتى يرجع اليها فيما

اختلف فيه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ هما أصل الدين وعليهما مدار السعادتين الدنيوية والاخروية ولو ضاعت اللغة التي أنزلها لضاع أيضاً ولو ضاعا لضاع الدين أيضاً فإن الدين يجري منهما مجرى الفرع من الاصل وهما مجريان من اللغة العربية مجرى الجسم من الروح والفرع بدون أصله محال وجوده والجسم بغير روح شيء لا ينتفع به بوجه ما

وأول من ألف في هذا الفن أبو الاسود الدؤلى قالوا انه وضعه بإشارة أمير المؤمنين على رضى الله عنه . . رأى الملكة تغيرت تخاف عليها الضياع فأشار عليه بحفظها فعمل الى ضبطها بالقوانين التي استنبطها من كلام فصحاء العرب وبلغائهم وهم الذين لم يخالطوا غيرهم كهذيل وكنانة وبعض تميم وقيس عيلان ومن يضاهيهم من عرب الحجاز وأوساط نجد فأما الذين صاقبوا العجم في الاطراف فلم تعتبر لغاتهم وأصولها في أصول العربية ولا بقية العلوم الادبية كحمير وهمدان وخولان والازد لمقاربتهم الحبشة والزنج وطى وغسان لمخالطتهم الروم بالشام وعبد القيس لمجاورتهم الجزيرة وفارس

ثم توسع الناس فيه على قدر ما كان يبدووا من الحاجة بقصور الملكة وازدياد اللحن بين المتكلمين بهذه اللغة حتى انتهى الى الخليل ابن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد العباسي والناس أحوج ما يكون الى

هذا الفن لضياح الملكة فهذب الفن وكمل أبوابه وجاء سيبويه تلميذه فأخذ عنه مادونه وأكمل التفاريع واستكثر من الأدلة والشواهد على قواعده وأحكامه ووضع فيه كتابه الجامع الذي هو القدوة لكل من تكلم في هذا الفن بعده

ثم خاف هؤلاء قوم كأبي علي الفارسي وأبي اسحاق الزجاج فرأوا ان الكتب المؤلفة في هذا الفن وان كانت كافية في المطلوب منها موفية بالغرض الذي وضعت من أجله الا أن المبتدئين بتعلم هذا الفن ليس في استطاعة قواهم العقلية أخذ قواعد هذا العلم منها فآلفوا فيه كتباً مختصرة الا أنهم لم يخالفوا طريقة سيبويه في كتابه

ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها البصريين والكوفيين وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم ووقع الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن بسبب اختلافهم وطال الامر على المتعلمين حتى ما يكادون يدركون له آخراً وجاء المتأخرون بعدهم فاقتصروا تلك المطولات إمام مع الاستيعاب لجميع ما نقل كما فعل ابن مالك في التسهيل أو مع الاقتصار على المبادئ للمبتدئين كما فعله الزمخشري في المفصل . وكانت هذه الصناعة كلما مرت عليها أيدي المصنفين تلاشت وضعفت حتى جاء قوم ليسوا في العير ولا في النفير حداهم حب الشهرة وبعد الذكر وبقاء الاسم

على التأليف فألفوا فيها كتباً صادقت من الناس قبولاً والتفاتاً لا مهور
لا تعقل أسبابها فقضت على البقية الباقية من هذه الصناعة وصار المحسن
لها من يجافى عن اللحن في القول البسيط والكلام الظاهر فاذا وقع
الى عبارة رصينة أو بيت شعر اشتبه عليه الامر واختلط عليه الحال فلم
يعد ولم يبد

قال في خزانة العلوم ومن مختصراته المفيدة كافية ابن الحاجب
وعليها شروح كثيرة ذكرها واب الالباب للقاضي البيضاوي واب
الاعراب للاسفرائيني تاج الدين والمصباح للمطرزي والعمدة لابن
مالك ومن المبسوطات شروح المفصل كالايضاح لابن الحاجب
والاقليد للجعبري وشرح أبي البقاء بن يعيش وكتاب مغنى اللبيب عن
كتب الاعراب لابن هشام

وأما التفسير فهو من العلوم التي قارنت ظهور الاسلام ونزول
القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان ما من آية تنزل على النبي صلى
الله عليه وسلم الا وينفسرها لاصحابه الا أنه تأخر تدوينه الى عصر تابعي
التابعين استغناء بالحفظ عن الكتابة ولندرة الكتاب فيهم مع اشتغالهم
كافة بالحروب لنشر الدعوة الاسلامية ثم دون على ما استراه بعد هذا
فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الاربعة وأبي بن كعب وزيد بن
ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبو موسى الاشعري

وعبد الله بن الزبير وابن عمر وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد
الله بن عمرو بن العاص

وأكثر من روي عنه في التفسير من الخلفاء الاربعة علي رضي
الله عنه لتأخر وفاته وابن مسعود روي عنه أكثر مما روي عن علي
لاشتغال علي بأمر الخلافة ومحاربة الخوارج وغير ذلك وأما ابن عباس
حبر الامة وعالمها وترجمان القرآن فقد روي عنه في تفسير كتاب الله
ملا يحصى كثرة وأحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة
الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة وعليها اعتمد البخاري في
صحيحه وطريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة عشرين ومائة عن
عطاء بن السائب وطريق ابن اسحاق صاحب السيرة وأوهى طرقه
طريقة الكلبي عن أبي صالح والكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب
الكلبي المتوفى سنة ست وأربعين ومائة فان انضم اليه رواية محمد بن
مروان السدي الصغير فذلك سلسلة الكذب . ومن الطرق الواهية
عنه طريق مقاتل بن سليمان الازدي المتوفى سنة خمسين ومائة الا ان
الكلبي يفضلها لما في مقاتل من المذاهب الرديئة وطريق الضحاك بن
مزاحم عن ابن عباس منقطة فان الضحاك لم يلقه فان انضم الى ذلك
رواية بشر بن عمارة فضيفة لضعف بشر وان أخرج له ابن جرير وابن
أبي حاتم وان كان من رواية جرير عن الضحاك فأشبه ضعفا لان

جريراً شديداً الضعف متروك الحديث ولذلك لم يخرج له ابن جرير
في تفسيره

هذه طرق تفسير ابن عباس جيدها ورديتها نقلناها برمتها وميزنا
غتها من ثمينها لئلا يفتر كل أحد بنسبتها الى ابن عباس فان لابن عباس منزلة
في تفسير القرآن لا تضارع وليس كل من روى عنه شيئاً محققاً في روايته
بل فيهم الضعيف والكذاب فينبغي لمن نقل له شيء عن ابن عباس
في التفسير ان يتبين الطريق التي روى له منها فان كانت من الطرق
الجيدة اعتمدها والا زدها

وأما أبي بن كعب المتوفى سنة عشرين فعنه في التفسير نسخة
كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه
وهذا الاسناد صحيح ولا أعلم لها وجوداً في يومنا هذا
وأما مفسرو التابعين فمنهم مجاهد بن جبر المكي المتوفى سنة
ثلاث ومائة قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة وعلى تفسيره
اعتمد الشافعي والبخاري ومنهم سعيد بن جبيرة المتوفى سنة أربع وتسعين
وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة وعطاء بن
أبي رباح المتوفى سنة أربع عشرة ومائة وطاوس بن كيسان المتوفى
سنة خمس ومائة وهؤلاء كلهم أصحاب ابن عباس والآخذون عنه
ومنهم علقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة والاسود بن

يزيد المتوفى سنة خمس وسبعين وأبراهيم النخعي المتوفى سنة خمس
وتسعين والشعبي المتوفى سنة خمس ومائة وهؤلاء أصحاب ابن مسعود
ومنهم عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس والحسن البصري
وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبعة عشر ومائة
وأبو العالية ربيع بن مهران المتوفى سنة تسعين والضحاك بن مزاحم
وعطية بن سعيد المتوفى سنة إحدى عشرة ومائة وقتادة والسدي
الكبير والربيع بن أنس

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة دونوا التفاسير وجمعوا فيها بين أقوال
الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج
وزيد بن هرون وعبدالرزاق وآدم بن أبي إياس واسحاق بن راهويه
وروح بن عباد وعبد الله بن مجيد وأبو بكر بن أبي شيبة

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى حذت حذو التي قبلها إلا
أنها اتسمت في الرواية والطرق التي جاءت الرواية منها كابن جرير
وعلى بن أبي طلحة وابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه
وابن المنذر وغيرهم

ثم انتصب من بعد هذه الطبقة طبقة أخرى فألفوا تفاسير
مشحونة بالفوائد وأقويل الصحابة والتابعين إلا أنها محذوفة إلا سائيد
كأبي اسحاق الزجاج وأبي علي الفارسي وعلي بن أبي طلحة وأبي

العباس المهدي وحذا حذوهم أبو جعفر النحاس وأبو بكر النقاش
 الا أنهما اقتصرا فاستدرك الناس عليهما
 ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين عن هؤلاء فاختصروا
 الاسانيد ونقلوا الاقوال بترأ فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح
 بالعليل ثم صار كل من سنع له قول يورده ومن خطر به شيء يعتمده
 ثم تناقل المؤلفون ذلك خلفا عن سلف واعتمدها الناس واندرست
 كتب الائمة لعدم الباحث عنها فاندرست كتب التفسير وعلم التفسير
 ولم يبق في أيدي الناس شيء مما يصح الوثوق به والاعتماد عليه . قال
 السيوطي رأيت في تفسير قوله تعالى غير المغضوب عليهم نحو عشرة
 أقوال مع ان الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين
 ليس غير اليهود والنصارى حتى قال ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك
 خلافا للاحد

ثم نبغ من بعده هؤلاء قوم نبغوا في بعض العلوم فكل واحد منهم ملاء
 تفسيره بما غلب على طبعه من الفنون واقتصر على ما تمهر فيه كأن
 القرآن أنزل لاجل هذا العلم فقط فالنحوي ليس له الا تكثير وجوه
 الاعراب وان كان بعضها بعيداً ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه
 وخلافياته كالزجاج والواحدى في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر
 والخباري ليس له الا القصص والخبار عن سلف من الامم حقاً

كان ذلك أو باطلا كالحازن والثعلبي والفقهاء يورد الاحكام الفقهية وربما
استطرد الى ذكر أدلتها ورد كلام المخالفين فيها الى غير ذلك مما
لا ارتباط له بعلم التفسير بوجه من الوجوه كما فعل القرطبي في تفسيره
وصاحب العلوم العقلية يشحن كتابه بأقوال العلماء والفلاسفة ومناظراتهم
والرد عليهم كما فعل فخر الدين الزازي في تفسيره الكبير

وصاحب البدعة من أهل كل مذهب يملا كتابه ببدعه ويؤول
كل ما يمكنه تأويله من آي القرآن للاستدلال به على بدعته فان عرض
له من الآيات ما يخالف بدعته عمد لصرفها عن ظاهرها واختلق لها
معنى لا يعارض بدعته ولا يبطلها وان لم يكن بيده حجة على تأويل
القرآن وصرفه عن ظاهره الذي كلف الناس بالعمل به غير مخالفته
لبدعته التي يرى انها الحق الصراح وان نصوص الشرع ان خالفها
يجب ان ترد بالتأويل اليها

وهذه طريقة عامة المفسرين من أهل الكلام كل واحد منهم
يستدل بالآية على ضد ما يستدل بها مخالفه عليه ومن قرأ تفاسيرهم
رأى كيف يغلب حب النفس على الانسان فيخرج به الى نقض أساس
دينه وتشويه محاسنه ويرحم الله أبا العلاء حيث يقول

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل
والمحدد يشحن كتابه بالكفر والخرافات وأنواع الاحاد ويجعل

القرآن حجة على كفره ويؤول النصوص القرآنية للوصول الى هذا الغرض كما فعل أهل التفسير من المتصوفة ومن قرأ تفاسيرهم لم يصدق أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين . . . وأكثرت الناس يقرأون كل ما يبصرون ويعتقدون كل ما يقرأون لا يفرقون في الأقوال بين حق وباطل ولا في الرجال بين مسلم ومبتدع وملحد والامر لله العلي الكبير وأما صناعة المنطق وهو علم ميزان الأفكار فلا شك انها لم تعرف في الاسلام الا في أوائل المائة الثالثة وسيأتي ذكر تاريخ دخولها الى الاسلام وبيان الباعث عليها وهي من وضع قدماء اليونان الا انها كانت قبل ارسطو اليوناني جملة متفرقة غير مهيبة ولا مرتبة فلما جاء ارسطو هذبها ورتبها وجعلها مقدمة العلوم الحكيمية البرهانية ولذلك نسب اليه بعض الناس وضعها وسمي المعلم الاول مع انه لم يضعها كما علمت وانما جمع متفرقة

ثم لما انتهى ارسطو من تهذيب الصناعة وترتيبها وضم كل مسألة من مسائلها الى ما يناسبها ويشاكلها وضع فيها كتابه المسمى بالنص وجعله في ثمانية كتب أربعة في صورة القياس وأربعة في مادته . . . الكتاب الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات وهي التي تسمى اليوم بالمقولات . . . والثاني في القضايا التصديقية ويسمى كتاب العبارة وهو المسمى اليوم بالتصديق . . . والثالث في القياس وصوره (٤ - التعليم)

المنتجة ويسمى كتاب القياس؛ والرابع في البرهان المنتج لليقين وهو كتاب البرهان . . . والخامس في ذكر القواعد المطلوبة لقطع المجادل وإخام الخصم وهو كتاب الجدل . . . والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد الباطل ويصوره بصورة الحق وإنما دون ليعرف فيحذر منه المناظر؛ والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المراد منه ترغيب الجمهور ووجههم على ما يراد منهم بذكر ما يالفونه أو يركنون إليه من قول من يثقون بقوله؛ والثامن كتاب الشعر وهو الذي يفيد تشبيه شيء بشيء للاقبال عليه أو التنفير منه هذه أبواب المنطق التي وضعها قدماء اليونان ودونها وجمعها أرسطو

ثم ظهر بعد أرسطو قوم من متفلسفة اليونان رأوا أن الكتاب الرابع وهو كتاب البرهان الذي يبحث فيه عن أجزاء القياس والتعاريف والحدود لا يزال ناقصاً لا يؤدي المطلوب منه لأنهم لم يشرحوا فيه ماهية أجزاء التعاريف والحدود واقتصروا في الكلام فيها على اشتراط كون المعرف مطابقاً للمعرف فوضعوا كتاب الكليات الخمس المفيدة للتصور وشرحوا به مبادئها وكيفية ترتيبها فكانت بذلك كتب المنطق تسعة كتب

فلما ولي المأمون العباسي أمر الخلافة وكان محباً للعلوم مشتغلاً بها مكرماً لاهلها موقراً لهم أكثراً من ممارستهم ومناظرتهم وكانت الحضارة

قد مدت رواقها في الممالك الاسلامية وقامت للعلم فيها سوق رائجة
 واتسعت الحاجة الى العلوم باتساع الحضارة رغبت نفسه في ترجمة
 العلوم اليونانية ونقلها الى اللغة العربية وكان قد بلغه ان بمدينة أثينة من
 ولاية مورخزانية عامرة بنفائس كتب فلاسفة اليونان فكتب الى ملك
 الروم حينئذ يطالب منه ان يوجه اليه بتلك الكتب فضمن بها أولا
 فبعها ثم أشار عليه بطارقه وأهل الرأي في مملكته ان لا يجبسها عنه
 وقالوا انها قل ان تنتشر بين أهل دين الا وأفسدت دينهم وزلزلت
 عقائدهم فأرسلها الى المأمون فلما حصلت عنده سر بها سرورا عظيما
 لشدة محبته للعلم وجمع لها مترجمي مملكته كحنين بن اسحاق وثابت بن
 قرة وغيرهما فترجموها الى العربية لكن كانت التراجم مختلفة لا يوافق
 شيء منها الاخر لقلّة معرفتهم باللغة التي ترجموا عنها ولانهم لم يكونوا
 عرفوا شيئا من اصطلاحات العلوم التي ترجموا كتبها فإنا كانوا يهتدون
 الى وجه التعبير عنها وترجمتها وبقيت التراجم غير محررة والناظرون فيها
 في اضطراب الى ان جاء منصور بن نوح الساماني فالتمس من أبي نصر
 الفارابي وكان اماما في علوم اليونانيين ان يحررها ويخلصها ففعل ولهذا
 كان يلقب بالمعلم الثاني لانه الذي أظهر كتب المعلم الاول ارسطو الى
 عالم الوجود وجعلها بحيث يمكن الانتفاع بها
 وكانت كتبه في خزانة الكتب بأصهبان المسماة (بصوان الحكمة)

الى زمان السلطان مسعود الا انها كانت غير مبيضة لان ابا نصر لم تكن له هممة قوية في التأليف ونشر التصانيف وكان يغلب على أخلاقه حب السياحة والتنقل في البلدان فلما استوزر السلطان مسعود الشيخ الرئيس ابا علي بن سينا لمكانته في الطب وحاجة الناس اليه في ذلك الحين اذ لم يكن اذ ذاك من يجيد معرفته ويحسن العمل به وتغلب على فكر السلطان ونزل عنده المنزلة الرفيعة استولى على تلك الخزانة المذكورة آنفاً فأخذ منها كتب ابي نصر وخلص منها مؤلفاته كالشفاء والاشارات والنجاة والمبدأ والمعاد وغيرها من مصنفاته ثم اتفق ان تلك الخزانة احترقت فاتهم الناس ابا علي الرئيس بانه هو الذي أحرقها لثلاثي يطلع الناس على ما فيها من الكتب فيعلموا انه أخذ مؤلفاته منها ولم يأت بشئ من عنده والله أعلم بحقيقة ذلك وكيف كان فان ابا علي أخذ علمه من كتب ابي نصر كما ذكر هو ذلك عن نفسه في تاريخ تلقيه للعلوم

ثم جاء المتأخرون من المناطق فغيروا اصطلاحات المنطقيين والحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرتها وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات رأسا لان نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات ثم جعل علما على حدة والحقوا في كتاب العبارة وهو باب القضايا وأقسامها الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من

حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب المادة وصدقوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة ثم قل نظرهم اليها وضعفت عنايتهم فربما ألم بها بعضهم المأما وربما أغفلها آخرون كأنها لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحراً ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه لا من حيث أنه آلة لعلم سواه وهو التوحيد على زعمهم فطال الكلام فيه واتسع وتباعدت أطرافه حتى ما يمكن جمعها وأول من فعل ذلك نخر الدين الرازي ثم من بعده أفضل الدين الخونجي ثم جاء بعد هؤلاء قوم نخصوا كتبهم وطرحوها منها شيئاً كثيراً كالكتابي وقطب الدين الرازي ثم انتهى الأمر الى قوم لمسوا قواعد هذا الفن بأنامل خشنة فألفوا فيه مختصرات لا تغني في هذا الفن قليلاً ولا كثيراً ثم وضعت عليها الشروح والحواشي والتقارير وأكب الناس عليها واقبلوا على الاشتغال بها وهجرت كتب المتقدمين والمتأخرين وكل من يحسن النظر في هذا العلم وهجرت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً وصار من ينظر في كتاب الشمسية لنجم الدين السكاتبى وهو من أقل كتب صغار الطلاب قبل أعوام قليلة بمنزلة أبي نصر الفارابى أو الشيخ الرئيس ابن سينا على الأقل وصار الناس في الاشتغال بهذا الفن في هذه الكتب الساقطة العديمة الجدوى الى مثل قول المثل (احشفاً وسوء كيله)

اشتغلوا في أقل العلوم جدوى وطلبوه من أحقر كتبه
وما زال هذا العلم منذ نقل الى اللغة العربية وانتشرت كتبه بين
العلماء يختلف الناس في حكم الاشتغال به فمن قائل بحرمته ومن قائل
بوجوبه وشتان ما بين الحكمين الوجوب والحرمه وممن حرمه الامام
الشافعي ونص عليه من أصحابه امام الحرمين والغزالي في آخر أمره
بعد أن تاب عن الاشتغال بعلم البدعة علم الكلام وابن الصباغ صاحب
الشامل وابن القشيري ونصر الدين المقدسي والعماد بن يونس
وحفيده والساني المحدث وابن بNDAR وابن عساكر وابن الاثير وابن
الصلاح وابن دقيق العيد والبرهان الجعبري وأبو حيان والشرف
الدمياطي والذهبي والطبي والاسنوي والاذرعي وممن افق بتحريره من
المالكية ابن أبي زيد القيرواني وأبو بكر بن العربي والطرطوسي وأبو
الوليد الباجي وأبو طالب المكي صاحب قوت القلوب وأبو الحسن بن
الخطاب وأبو حبيب المالقي وابن المنير وابن رشد الكبير وابن أبي حمزة
وعامة أهل المغرب ونص عليه من أئمة الحنفية أبو سعيد السيرافي والسراج
القزويني وغيرهما ومن أئمة الحنابلة ابن الجوزي وسعد الدين الخارثي
والتقي ابن تيمية وغيرهم! وقال بوجوبه قوم لا يمكن حصرهم لكثرتهم
وليعلم ان الذين حرموا النظر في كتب المنطق لم يحرموا مثل
كتاب الشمسية والمطالع وايساغوجي واضرابها فان هذه لا يقول أحد

بحرمة النظر فيها وإنما حرموا من كتب المنطق ما هو مشحون بالعقائد
 الزائفة والافكار الفاسدة قال الشوكاني وعليك بمختصرات الفن
 كالتهديب والشمسية واحذر من مطولاته المستخرجة على قواعد
 اليونان كشفاء ابن سينا وما يشابهه من كتبه وكتب الفارابي واضرابهما
 فان في غضونهما داء عضالا وسما قتالا انتهى كلام الشوكاني فان كان
 في كتب المتأخرين الخالية من العقائد والكلام في الالهيات شائبة فانما
 هو من جهة اضاءة الوقت وصرف نقد العمر فيما لا يجدي دنيا ولا
 آخرة وسيمر بك في الكلام على هذا العلم بيان ذلك ان شاء الله تعالى
 ومن جياذ كتبه المؤلفة فيه الشفاء والاشارات لابن سينا
 وكتاب المطالع والمناهج وبيان الحق للارموي وكشف الاسرار
 لمحمد بن عبد الملك الخونجى والتلويحات والمطارحات ليجي بن حبش
 السهروردي المقتول والمعتبر لابي البركات البغدادي اليهودي أولا في
 أكثر عمره والمهتدي الى الاسلام في آخر عمره ومعيار العلم ومختصره
 محك النظر للغزالي والبصائر النصيرية لزين الدين الساوي وكتبه
 كثيرة أكثر من ان تحصى وتحصر وخير ما طبع منها الى يومنا هذا
 المطالع والبصائر ومحك النظر

وأما علم أصول الفقه فهو من العلوم المستحدثة في الاسلام ولم
 يكن في العصرين الاول والثاني وكان السلف في غنية عنه جملة واحدة

وذلك لان مدار الفن على ثلاثة أمور . . الاول استفادة المعاني من ألفاظ الكتاب والسنة الذين هما أصليين للاحكام الشرعية الفرعية . . الثاني معرفة القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام الشرعية من ألفاظها . . الثالث معرفة طرق الاحاديث ورجالها ودرجاتهم في العدالة ودرجات الاحاديث ليعطى كل واحد من الاهمية حسب ما يليق به فلا يزداد على حقه ولا ينقص عنه: فأما استفادة المعاني من ألفاظ الكتاب والسنة فهم لا يحتاجون فيه الى أزيد مما عندهم من الملكات اللسانية فكانوا حين سماعهم لفظ القرآن أو السنة يفهمون المراد منه لان ذلك بلغتهم التي عليها مدار تحاورهم وتفاهمهم ولم يكونوا يحتاجون في فهم المعاني من ألفاظها الى وسائط كما نحتاج اليه نحن اليوم لبعثنا عن اللغة! وأما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام فمعظمها انما أخذ عنهم وهم انما كانوا يعرفون ذلك بالسليقة لان تلك القوانين قوانين لغتهم فهم كانوا أعرف الناس بها وما كانت تغرب عنهم معرفتها في حين من الاحيان وانما اختلف الأئمة بعدهم في تلك القوانين واختلفت التفاريع تبعاً لذلك لانهم لم يقفوا حقيقة الوقوف على قوانينهم في استفادة المعاني من الالفاظ أو قام لديهم من الشبه ما أوجب الشك في كون ذلك من قوانينهم في استخراج المعاني من ألفاظها وهذا شيء يحتاج الى بسط ليس هذا محله انما الغرض الآن أن نبين أن القوانين

الاصويين التي دونوها لآخذ الاحكام الشرعية كقولهم الامر لا يوجب التكرار والامر للوجوب والامر بواحد مبهم من أشياء معينة تخير بينها انما أخذت من اصطلاح أهل اللغة فالسلف في غنية عنها لانها في سليقتهم وظيفتهم لا يحتاجون فيها الى تعلم وكسب وأما الاسايد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العهد وممارسة البقلة وخبرتهم بهم لان من لم يسمع منهم الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة أخذه بواسطة أو واسطتين فقط. فلم يكن المروي له يخلو عن معرفة حال الراوي لمخالطته له وشهرته بين الناس لقرب عهده ثم لما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت العلوم كلها صناعات بعد ان كانت ملكات وكثرت الحوادث وتعددت الوقائع ولم يكن في فتاوى الصحابة والتابعين ما يكفي لكل حوادث الزمن ووقائمه لأن فتاويهم كانت قاصرة على ما وقع بينهم من حوادث الفتوى وسئلوا عنه ولم يكونوا يفرضون ما لم يقع من الحوادث واقعاً ويلتمسون لها الاحكام من المآخذ الشرعية احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد من اللغة الاستفادة الاحكام من الكتاب والسنة والاجماع والقياس فجعلوها فناً قائماً برأسه سموه علم أصول الفقه لان الفقه انما يؤخذ بواسطته

وكان أول من كتب فيه محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه

أملي فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي وأقسام البيان
والخبر والنسخ وحكم العلة المضومة من القياس
ثم تلاحق علماء الامصار في الكتابة فيه وتحقيق قواعده
وبسطها وتوضيحها بذكر فروعها حتى جاء أبو زيد الدبوسي فكتب
في القياس بأوسع مما كتب به جميعهم وتم الابحاث والشروط التي
يحتاج اليها فيه وكتبت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذيب مسأله
وتمهدت قواعده

وكتب المتكلمون كتباً في هذا الفن أيضاً الا أن طريقتهم
كانت تخالف طريقة الفقهاء فطريقة الفقهاء أمس بالفقه وأليق بالفروع
لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل على النكت الفقهية وطريقة
المتكلمين في الاصول تجريد صور تلك المسائل عن الفقه والميل الى
الاستدلال العقلي ما أمكن لانه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكما
عدلوا في تحقيق العقائد التوحيدية الى قضايا العقول المشوبة بالاوهام
المحجوبة بالعادات وتركوا المأخذ الشرعية الصحيحة كذلك عدلوا في
تحقيق قواعد الاصول الى قضايا العقول وعدلوا عن مأخذها اللغوية
فصارت طريقتهم في الموضوعين واحداً وكثير اللجاج بينهم في غير
محل النزاع

ومع هذا فقد كانت طريقتهم أروج وأشهر عند أهل العلم

وكتبهم في الاصول أكثر تداولاً وانتشاراً والناس بها أكثر عناية
على كثرة ما فيها من التشويش والصوارف عن الوقوف على حقيقة
قواعد الفن ومعرفة الصواب فيما اختلف فيه منها

ومن أحسن ما كتبه المتكلمون في هذا الفن كتاب البرهان
لامام الحرمين والمستصفي لابي حامد الغزالي وكتاب العهد لعبد
الجبار وشرحه المسمى بالمعتمد لابي الحسين البصرى وكلاهما من أئمة
المعتزلة فكانت هذه الكتب أركان هذا العلم وقواعده

ثم جاء نجر الدين الرازي وسيف الدين الآمدي فلخصا هذه
الكتب الاربعة وجمعا بينها الا انهما اختلفا في الفن بين التحقيق
والحجاج فأما الرازي فانه مال في كتابه المحصول الى الاستكثار
من الادلة العقلية والاحتجاج كما هي عادته في كل فن كتب فيه . وأما
سيف الدين الآمدي في كتابه الاحكام فقد كان ميله الى تحقيق
المذاهب وتفريع المسائل : ثم مال الناس الى اختصار هذين الكتابين
فاختصر سراج الدين الارموى كتاب المحصول في كتاب سماه
التحصيل وتاج الدين الارموى في كتاب سماه الحاصل ثم جاء القرافي
من متأخري المتأخرين فاقتطف من هذين المختصرين بعض قواعد
ومقدمات في سفر صغير سماه التنقيحات وأختصر كتاب الاحكام
للآمدي أبو عمرو بن الحاجب ثم اختصر مختصره فاشتهر بين الناس

وعنوابه وهو المعروف اليوم بالمختصر الحاجبي . ومن أحسن كتب
 الحنفية في هذا الفن كتاب أبي زيد ثم كتاب أصول الجصاص ثم
 أصول السرخسي ثم أصول البزدوى وهو متداول في هذه الايام
 وطلبة العلم الاتراك مولعون به وبشرح عبد العزيز البخارى عليه ولوع
 المصريين بشرح جمع الجوامع وحاشية البناني عليه وشتان ما بينهما .
 وجاء ابن الساعاتى من متأخري الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام
 وكتاب البزدوى في الطريقتين وسما كتابه بالبدائع فجاء من أحسن
 الاوضاع وأبدعها وكان للناس فيما سبق عناية كبيرة به أما نحن فهذه
 الكتب في نظرنا أقل الكتب قدراً وأقلها نفعا والعمدة عندنا على
 قوم من المتأخرين ليسوا في العير ولا في النفير

وأما الفقه وهو قانون النشأتين ومبدأ السعادتين فقد كانت
 الاحكام الشرعية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم تؤخذ عنه ومن
 غاب عنه من أصحابه يجتهد فيما يعرض له من الحوادث فاذا رجع
 اليه أخبره بما وقع له فأما أقره وإمارده وأمضى عمله الاول كما هو
 مبسوط في فتاوى النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه . فلما قبض النبي
 صلى الله عليه وسلم انتقل الامر في بيان الشرائع الاسلامية الى
 الصحابة رضوان الله عليهم الا انهم لم يكونوا كلهم أهل فتيا ولا كان
 الدين يؤخذ عنهم كلهم وانما كان ذلك مختصاً بقوم منهم هم حملة

القرآن والسنة العارفون بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم من علوم الشريعة وبقي الامر على ذلك في صدر الاسلام وحوادث الفتوى اندر ما تكون

فلما عظمت دولة الاسلام وكثرت أقطاره ودخل الناس فيه أفواجا وتمددت حوادث الفتوى ولم يكن في فتاوى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما يكفي لكل تلك الحوادث وكانت الامية قد ذهبت عن الاسلام بانتشار الكتابة وكثر فيهم الناظرون في الاحكام الشرعية عمد حملة الشريعة الى استنباط الاحكام من الادلة الشرعية على طرق مخصوصة وقواعد معروفة منها المتفق عليه بين أهل الاجتهاد ومنها المختلف فيه فكمل الفقه وتمت أبوابه وتحررت قواعده وافتتح عبد الملك بن جريج باب التصنيف فيه زمن عمر بن عبد العزيز

وكانت طرق الاستنباط مختلفة وفي الاعتدال متفاوتة فكان للشيعنة طريقة في أخذ الاحكام بنوها على قولهم بعصمة الائمة ووجوب العمل بأقوالهم كما يجب العمل بالقرآن ولأهل الظاهر طريقة بنوها على التمسك بظواهر من القرآن والسنة ولأهل العراق طريقة وهي الرأي والقياس لقلة الحديث عندهم ولأهل الحجاز طريقة وهي الاخذ بالكتاب والسنة وعدم الاسترسال الى الرأي والقياس وطرائق أخر

يطول بذكرها الكتاب والتفاوت بينها وبين التي ذكرناها طفيف
وانما هذه أمهات الطرق التي اختلف عليها علماء الاسلام في تدوين
الاحكام الشرعية وأخذها من ما أخذها

وكان أهل الاجتهاد في القرون الثلاثة الاولى لا ينحصر ون في
عدد بل كان أكثر أهل الفقه من أهل الاجتهاد ولكل واحد منهم
طريقة في الاجتهاد والفتيا ثم تنوسيت أكثر تلك الطرق واندرست
فلم يبق منها غير مذاهب الائمة الاربعة في مصر والشام والحجاز
والعراق والهند وتركستان ومذهب الخوارج في بعض بلاد الجزيرة
العربية وبعد بلاد الغرب ومذهب الشيعة في أكثر بلاد فارس
واندرس مذهب الظاهرية ومذهب سائر الائمة فلم يبق لشيء
منها أثر

الا أن الاحكام التي استنبطها الائمة المجتهدون من الادلة الشرعية
لم تكن كافية أيضا في كل حوادث الفتيا وكان كل يوم يتجدد من
الحوادث ما يدعو الى النظر في الماخذ الشرعية لاخذ احكام شرعية
تناسب تلك الحوادث التي تحدث يوما فيوما بكثرة الوقائع وتعدد
الحوادث وكان آخر ما انتهى اليه جهدهم تدوين قواعد الاستنباط
وتذليل عقباتها وترتيب أبواب العبادات والمعاملات وتحرير الاصول
التي ينبنى عليها كل باب من أبواب الفقه كما يعلم ذلك من اطلع على

مقاتلهم في الفقه

وكان العذر الواضح في ذلك أنهم هم المؤسسون والمبتدؤون بهذا العمل الجليل والمشروع الخطير فلم يكن في استطاعتهم أكثر من هذا الذي أتوا به بل كان ما أتوا به مما يدل على أنهم ما كانوا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً في ترتيب أبواب العبادات والمعاملات وتحرير أحكامها وإنهم صرفوا في ذلك كل أعمارهم وبذلوا في هذا الصدد كل قواهم العقلية التي كانت تفوق قوى أكثر البشر

فقام لذلك من أخذ عنهم وتلقى قواعدهم في أخذ الأحكام الشرعية من ما أخذها يستنبط لما يتجدد من الحوادث أحكاماً من الأدلة الشرعية على حسب قواعد امامه الذي أخذ عنه وأصوله في الاستنباط وربما خالفه في بعض قواعد الاستنباط فخالفه في بعض أحكام الفروع التي تترتب على تلك القاعدة كما خالف أبا حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل أصحابهم لذلك

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى أقاموا كلام الأئمة وأصحابهم مقام الأدلة الشرعية وصاروا يستنبطون من منطوقاتها ومفهوماتها أحكاماً يطبقونها على الحوادث التي تحدث بينهم وكان كل واحد من هؤلاء يأخذ من كلام امامه على قدر فهمه فانتشرت الأحكام وكثرت الفروع وطما بحر الاختلاف بين العلماء في الفروع الفقهية وأخذ

كل قوم بقول وانتصر كل جماعة لفريق وكل يدعى ان قوله هو
 مذهب الامام وليس للامام في الحقيقة نص في تلك الحوادث
 فيرجع اليه وانما هم الذين استنبطوها من مجمل كلامه وصار لكل حادثة
 من حوادث الفتيا أحكام متعددة لا يعرف الموافق منها لمذهب الامام
 من المخالف وقد كان الاختلاف في الاحكام الفرعية يوجد في عصر
 المجتهدين بين أهل كل مذهب الا أن ذلك كان ضعيفاً جداً وكان في
 عصرهم تعرف أقوال الأئمة من أقوال غيرهم كما كانت تعرف الاقوال
 الشاذة المرجوع عنها من الاقوال المعتمدة المرجوع اليها

فاضطر من جاء بعد هؤلاء للتمييز بين تلك الاقوال وتعريف غثها
 من ثمينها والترجيح بينها وبيان ما هو أقرب الى قواعد امام المذهب
 واليق بفروعه للعمل بها والجري على موجبها فزاد الاختلاف
 باختلافهم في الترجيح أيضاً واعضل فهم الصحيح من السقيم ولم يبق
 ما يصح الوثوق به غير ما صح نقله عن الأئمة وهو المدون في كتب
 المتون وبعض مسائل الشروح والفتاوى واضطرب الامر فيما عدا ذلك
 اضطراباً هائلاً لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهي الى آخر

ثم تدلى الامر وتنزل درجة بعد درجة حتى انتهى الامر في
 عصرنا هذا الى اعتماد الفقهاء على استظهارات ابن عابدين وابحات
 الشرنبلالي وفتاوى ابن نجيم وأراء ابن كمال باشا ومفهومات عبارات

قوم من المتأخرين جعلوا قولهم دينا منزلا وشريعة متبعة وصاروا يبحثون في أقوالهم ويأخذون منها الأحكام كما كان ينظر المجتهد في نصوص القرآن والسنة ويأخذ منها الأحكام وضاعت كتب الأئمة واندرت ولم يبق في أيدي الناس منها شيء وصار الاعتماد على كتب قوم من المتأخرين لخصوا كتب من قبلهم بفهامهم وفسروها بأرائهم فأساؤا العمل فيها وبدلوها وشوهوا وجه محاسنها فاذا استفتيت اليوم عشرة من الفقهاء في حادثة شرعية ليست من مسائل المتون التي هي من فتاوى الأئمة وتدوينهم أجابك كل واحد من العشرة بجواب غير جواب الآخر وربما ذكر لك كل واحد منهم نصا من الكتاب الذي اعتمد عليه وأفتاك بما رأى فيه

وانضم الى هذا فساد التطبيق في بعض المحاكم الشرعية فكان حال القانون الشرعي كحال القانون الوضعي سواء بسواء لا يختلف عنه بشيء غير ان القائمين بأحدهما منسوبون الى الشرع والقائمون بالآخر غير منسوين اليه وما قد يوجد في القانون الشرعي من الفروع التي توافق مذاهب الأئمة فلعله لا يخلو عنه القانون الوضعي وان لم يذكر على انه من القوانين السماوية وانما وضع لظن واضعه ان المصلحة فيه وأصبحت مصالح العباد مهجورة والحقوق مهددة والمستجير بأحدهما كالمستجير من الرمضاء بالنار. وشرح الحالة الحاضرة بأزيد مما أشرنا اليه

مشكل جداً والبصير اذا التفت عن يمينه مرة وعن شماله أخرى
عُرِف مقدار الشر والفساد الواقعين على رؤس العباد

وليس من دواء لهذا الداء ان كان للمسلمين بقية حرص على
شريعهم غير هجر هذه الكتب المشوهة المشوشة والرجوع الى
كتب الائمة والثقات ومن يوثق بأقوالهم وآرائهم في الدين فان كان
في هذه الكتب التي يتداولونها اليوم فساد فقد كفوه وان لم يكن
فساد فقد عدلوا عنها الى ما هو خير منها بلا شك من أحد ولا
خلاف منهم أيضاً

وسند كره عند الكلام على علم الفقه ما في هذه الكتب الفقهية
التي يتداولها طلاب العلم الشرعي اليوم مما يدعو بعضه الى هجرها
والاعراض عنها .. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم
أوليس من العجيب ان قوما يقولون ان باب الاجتهاد مقفل وانه
لا يجوز تقليد غير المجتهدين وان شمووا من أحد رائحة دعوى الاجتهاد
ولو في مسألة واحدة من مسائل الدين حملوا عليه حملة منكرة وربما
أكفروه وزندقوه ثم هم بعد ذلك يعتمدون قول كل مؤلف في
أحكام الدين وان لم تكن الاحكام التي يذكرها في كتابه مما صح
ثبوتها عن الائمة ويقلدونه في كل بحائه وانظاره وان لم يُعرف له مستند
يستند اليه واذا اعترض عليهم في ذلك معترض نسبوه الى الاستخفاف

بالدين وعدوه من الملحدين

أليس من العجيب أن يكون قول كل أحد تقدم عصره وظهرت له بيننا مؤلفات حجة في الدين بل هي الدين المنزل والشريعة المتبعة بلا نظر في درجة مؤلفها وقوة ما أخذه التي أخذ عنها واستند إليها واعتمد عليها وان ينكر على كل من خالفه واعترض عليه وان كان له فيما اعترض عليه به حجة واضحة وبرهان منير حتى كأن قوله أحد حجج الدين المبين التي يجب المصير إليها ولا يصح العدول عنها

أليس من العجيب أن يكون قول كل قائل اذا خالف ما ذهب اليه صاحب المذهب صراحة رواية في المذهب وكم في المذهب من رواية ومن الذي رأى كتب المذهب وأبصر فيها كل هذه الروايات التي سدت ما بين الخافقين ولعمر الله ان المذهب ليبرأ الى الله من كل هذه الروايات التي نضيفها له ونعزيمها اليه ولكننا وثقنا بمن لا ثقة به وعولنا على من لا يعول عليه فجعلنا كل أقواله وآرائه وإبجائه روايات في المذهب يجب تقليدها وبحرم انكارها وقتلنا للناس موتوا عليها ان كنتم بحبل الدين من المتمسكين

نحن بين فريقين مفترقين وعدوين الدين . . فريق يدعوننا الى أن نلقى بزمامنا الى كل أحد وننقاد الى كل من قادنا لانستعصي على أحد ولا نمتنع عليه ويحتم علينا أن نقر بالعبودية لقوم لا يحصي عددهم ولا

ينقطع مددهم يتجددون ما تجدد الليل والنهار . . . وفريق يوجبون علينا أن
 نخلع من رقابنا كل طاعة ولا نعتمد الا على عقولنا وأفكارنا لا يرون لنا
 صلاحاً الا بذلك ويرون أن كل طاعة عبودية وان كل عبودية مما ينبغي
 أن ينزه عنها الانسان

وكلا الفريقين غير مصيب في رأيه ولا مسدد في حكمه فان
 الدين لا بد فيه من خضوع وانقياد واستسلام وأصل معنى الدين في
 اللغة الخضوع والانقياد فمن رفض الانقياد فقد رفض الدين رأساً
 وتركه جملة . . . ثم ان لهذا الانقياد نهاية ينتهي اليها وحداً يقف عنده ولا
 يتعداه فمن جاوز في انقياده الحد المرسوم والنهية المعلومة فربما خرج
 عن الدين وهو يظن أنه يتغلغل فيه ويكون قد رفضه وهو يعتقد أنه
 متمسك به . . . والعدل الوسط وقل سالكوه

ومن خير كتب مذهب أبي حنيفة كتب ظاهر الرواية للإمام محمد
 ابن الحسن الشيباني صاحب الامام الاعظم ومدون علمه وهي الجامعان
 الكبير والصغير والسيران الكبير والصغير والآثار والزوائد مع
 ما عليها من شروح للمتقدمين كشرح العتابي على الجامع الصغير
 وشرح الحصري على الجامع الكبير وشرح قاضيخان على الزوائد
 ونحوها . . . وقد جمع الصدر الشهيد بين كتب ظاهر الرواية الست في
 كتاب سماه الكافي وشرحه شمس الأئمة السرخسي شرحاً سماه

المبسوط بسط فيه عبارة الكافي وأوضح دلائل المذهب وزاد فيه من الأحكام شيئاً كثيراً فكان من خير ما ينتفع به من كتب مذهب الإمام الأعظم . . . والمتأخرون يرون أنه إذا اختلفت الروايات في المذهب فالعمدة على ما في المبسوط لأنه نقل كلام أئمة المذهب وما صحح عنهم وهجر مهجور الأقوال وشاذها ولكنه مع ذلك لا يعتمون به ولا يسألون عنه ومثله في حسن الوضع وثقة النقل (بدائع الصنائع) للسمرقندي وغيرهما من كتب الثقة كثير لو وجد من يفتش عليها ويسأل عنها ومن خير مختصرات فقه أبي جنيفة البداية والنافع ومختصر القدوري ومختار الفتوى ومن خير الكتب المتوسطة الهداية والمشملة ومن المبسوطة المحيط الرضوي والمحيط السرخسي والتحرير ومن خير كتب الشافعية الام للإمام الشافعي رواية الربيع عنه ومختصر المزني والبسيط للغزالي وشرح الوجيز للرافعي الكبير والمهذب والروضة للنووي وغيرها من كتب الاعلام من مطولة ومختصرة ومتوسطة . . . ومن قرأ فهرس كتب الشافعية رأى فيها مؤلفات جليلة جدا وعجب من عدول الشافعية عن كتب متقدميهم على حسنها واتقان وضعها وكثرتها في أيدي الناس الى هذه الكتب التي يتداولونها اليوم وهي من أخط الكتب قدراً وأقلها فائدة . . . إنما البلاء كل البلاء من متأخري علماء مصر فقد ألفوا ونشروا بين المسامحين من ردي

الكتب ما أتى على البقية الباقية من العلوم الاسلامية وساعد الجهل
في سائر الاقطار على انتشار مؤلفاتهم الفارغة بين أيدي الطلاب
واقبالهم عليها واعتنائهم بها وهي لا تستحق الا النار

ومن خير كتب المالكية المختصرة التلقين ومختصر ابن الحاجب
ومن المتوسطة الذخيرة والبيان والتحصيل ومن المطولة نظم الدر
للسارمساحي والتهذيب والمدونة الكبرى وغير ذلك من الكتب
الجيدة النافعة

ومن كتب الحنابلة المختصرة العمدة ومختصر الخراقي والنهاية
الصغرى لابن رزين . ومن المتوسطة المقنع والكافي . ومن المبسوطه
المغنى لابن قدامه . ولكل فريق من أهل الفقه كتب غير التي ذكرنا
كثيرة وكلها نافعة جيدة لكن أبي المسيطرون على العلوم الشرعية
والقائمون عليها الا ما بأيديهم

ولو ان علماء المذاهب الاربعة اجتمعوا فجمعوا كتابا حافلا جامعاً
محيطاً ذكروا فيه من الفروع الفقهية ما هو أسهل على الناس في العبادات
وأضبط لامورهم في المعاملات واختاروا من مذهب كل امام من
الائمة الاربعة ما هو أنسب وأليق بحالة الزمان وأسهل على المتدينين
وجمعوا الناس في كافة الممالك الاسلامية على ما في هذا الكتاب
لاحسنوا بهذا الصنيع في خدمة الاسلام والمسلمين

وهذا أقرب شيء وأسبغ له لتوجهت رغبات أهل العلم اليه ونظروا اليه نظر عناية واهتمام . وليس في الدين ما يمنع منه فان من قلد اماما في مسألة لم يمنع من تقليد غيره في مسألة أخرى لسهولة مذهبه عليه وملائمته له وموافقته لمصلحته بل يباح له أن يقلد في كل مسألة اماما من الأئمة . والحق مبهم وغلبة الظن كافية في الخروج من عهدة التكليف الفرعية الشرعية

نحن ندعو الى هذا ونرشد اليه ونحرض أهل العلم على النظر فيه واستقراء ما يترتب عليه من المصالح الدينية والدينية التي يطول بشرحها الكتاب لان الحمية الدينية تحتم علينا أن نجاهر بما نرى أن فيه مصلحة لنا في ديننا ونطلب من رؤساء الدين النظر فيه والعمل بما فيه من صواب والا فنحن على مثل الشمس في رابعة النهار ان طلبنا هذا لا يصادف قبولا . ومهما كثر عدد مستحسنيه من أهل العلم فلن يسمح الوقت بابرار هذا المشروع الجليل الى الوجود فان في القطر المصري عددا كبير من العلماء لا يستغنى علماء الامصار عن مشاركتهم في هذا الموضوع ولو لأجل أن يعتقد الناس ان هذا بمثابة اجماع يجب العمل به واذا توقف الامر على هؤلاء فعلى المشروع السلام مائة عام وكيف يوافق على مثل هذا المشروع قوم يري كل واحد منهم ان مذهبه هو الحق الصراح الذي يجب تمسك الناس به وان مذاهب

الناس سواه لغو وهذيان ويتعصب كل واحد منهم لمذهبه أكثر مما يتعصب المتدين لدينه لكننا نأمل ان دام الحال على ازدياد الاستبصار في الامصار أن يوفق علماء الاسلام لعقد هذا المجتمع وابرار هذا المشروع الخطير الى الوجود

ولقد كان أهل المذاهب في مصر من نصف قرن مضى كالدول المتحاربة لا يتأخر صاحب مذهب عن أذية صاحب مذهب آخر متى لاح له فرصة وأمكنته. ولقد سمعت الاستاذ المرحوم الشيخ عبدالرحمن البحر راوي يقول كنا اذا خرجنا من الازهر للحضور على السيد أحمد الكتبي مفتي الحنفية بمكة آخر عمره في زاوية العيني التي بقرب الازهر خرجنا وكل واحد منا قد جعل عباءته على رأسه يوارى بها شخصه عن الناس وكان من يعلم بحالنا يسمنا من مر القول ما كنا لانجد بدا من تحمله والصبر عليه لقلتنا وضعفنا. فأصبح أهل المذاهب اليوم في مصر كالدول المتحاربة ذوات المصالح المختلفة والمنافع المتضاربة يضحك كل فريق منهم الى الآخر ما لم تبد مصلحة فاذا ظهر فيهم شيء من هذا القبيل كانوا أسرع الناس الى السلاح ومن عاشرهم قليلا عرف هذا منهم

وانا لنأمل أن لا يمضي غير زمن يسير حتى يكونوا إخوانا وأحبابا لا يرى أحدهم لنفسه مصلحة الا ما فيه مصلحة أخيه ولا يرى

شيئا يضره الا ما يضر أخاه ويصيروا كالبناء المرصوص يقوى بعضه
بعضاً وما ذلك على الله بعزيز

وأما علم التوحيد فهو الاصل الاصيل للدين الاسلامي وانما بعث
النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة اليه وتبينه بل عموم الرسل انما أرسلوا
لدعوة الناس الى توحيد الله جل شأنه وافراده بالربوبية وتنزيهه عما
لا يليق بكماله والاعتراف له ووصفه بكل أنواع الجلال والقدس
وكان العمدة في ذلك أول الامر على ظاهر القرآن والسنة ولم
يكونوا يعتمدون في شيء من مطالب هذا الفن على الادلة العقلية
ولا يجعلون للعقل مدخلا في إثبات الصانع واتصافه باوصافه الكمالية
التي ورد القرآن بها ولا كانوا يبحثون في مهايأ تلك الصفات وكيفية اتصاف
الذات بها ومن كان يتعمق منهم في السؤال والبحث يزرع عن ذلك وينهى
عنه حتى ان البدع والأحداث في العقائد حين حدثت في صدر
الاسلام لم يكن أربابها يحتجون لها بدلائل عقلية وانما كانت حججهم
نصوصا من القرآن والسنة اشتباه عليهم المراد منها ولم يعلموا تفسيرها ولا
طلبوه ممن عنده علم ذلك ولا نظروا الى ما في القرآن والسنة من تفسيرها
ورد شبهتهم فيها كما ترى في بدعة القدرية الذين أنكروا قدم علم
الباري بالمشكونات وقالوا انه جل شأنه لا يعلم الاشياء قبل حدوثها وانما
يعلمها حين حدوثها فان هؤلاء لم يكن لهم شبهة عقلية على عقيدتهم
(٧ - التعليم)

الفاصلة ولا برهنوا عليها حين اعتقدوها يبراهين عقلية كالذي صنعه
المتكلمون أهل علم التوحيد وكان كل تمسكهم بآي من القرآن يفيد
ظاهرها ما ذهبوا اليه كقوله ليعلم وسيعلم الذين كثيرا ما وردا في
القرآن مرداً بهما الباري

وكذلك الخوارج في بدعهم وأحاديثهم لم تكن شبههم عقلية ولا
كان لهم فيما يذهبون اليه من الابتداع متمسك عقلي وإنما كانت
شبههم في آي من القرآن هي متمسكهم على ما ذهبوا اليه ومناظراتهم
مع مخالفهم شاهدة بذلك

ذلك لأن عقائد الدين لم تكن بحيث ينكرها العقل ويكبر
الخضوع والانقياد لها بل كانت كلها ظاهرة واضحة موافقة للعقول
والفطر بل هي من الظهور بحيث تهدي اليها الفطر الخالية عن الأوهام
والخرافات لو لم ترشد اليها الشرائع لانها كلها عبارة عن اثبات وجود
الصانع المقدس عن مشابهة المصنوعات واثبات مالا بد لكل صانع
من اتصافه به كالعلم والارادة والقدرة وغير ذلك مما وردت الشريعة
المحمدية بل الشرائع كلها بارشاد الناس اليه وتنظيف فطر العالم
وتطهيرها مما عرض لها من صداد الشبه والأوهام في هذا الأمر
ولذلك لم يكن مخالفو الرسل ومكذبوهم يطعنون في نفس
الشرائع التي جاء بها الرسل ويدعون انها لا توافق العقول ولا تلائم

الفطر وعليها من الشبه والمعارضات ما يردّها ويبطل أنّها من عند الله ولو أنّ فيها مثل هذه المغامز لما سكتوا عنها ولا وردوا شبههم عليها في جملة ما عارضوا به الرسل واقتصارهم في مخالفة الرسل على إنكار إرسال الله إياهم ونسبة ما يظهر على أيديهم من الخوارق إلى أسباب طبيعية عادية خفية دليل على أنّ ما كانوا يدعون إليه في محل التسليم والقبول وإن الفطر السليمة كافية في الاعتراف به وإن العقول لا تنكره ولا تأباه فلما جاء عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما من أهل الاعتزال وحكموا آراءهم في صفات الله وأفعاله ووكّلوا أمر ذلك إلى عقولهم فما قبلته منها قبلوه وما رفضتها رفضوه ولم يكتفوا في ذلك بظاهر القرآن والسنة وقعت لهم الشبهة في كتاب الله تعالى كيف يكون محدثاً وهو صفة من صفاته وكيف يكون قديماً وهو أمر ونهي وخبر وتوراة وانجيل وقرآن فذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من إنكار كون القرآن قديماً وإنكار كون الكلام صفة من صفاته تعالى. فكانت هذه الشبهة أول الشبه العقلية التي وقعت في صفات الله تعالى بسبب تحكيم العقل فيما لا مدخل له فيه ثم كان في الخلفاء من تميل نفسه إلى هذه المباحث والأنظار ويحب سماع الأقاويل فيها فتقرب إليه العلماء بهذه المذاهب وطلبوا الخطوة عنده والمنزلة لديه بمثل تلك الآراء فثارت الشبه وتعددت المذاهب وكثرت التفاريع وأصبح عدد المتكلمين نحو عدد باعة البقول

ولم يبق أحد يحسن ان يجمع بين كلمتين الا وأظهر مقالة في الاسلام وان كان يتحاشى عن القول بمثلها المجانين والموسوسون والمحشوشون ليرتفع له ذكر بين الناس ويحضر مجالس الملوك والامراء للمناظرة على بدعته ومذهبه ويجرى له ذكر بين أهل المقالات في الأديان

قال أبو حامد في جملة كلام له على العلوم وتدوينها من كتاب الاحياء مامعناه ان هذه العلوم التي نراها اليوم مدونة منشورة بين الناس لم يدون أكثرها لخدمة الدين والمسلمين وانما كان الغرض منها خدمة الملوك والسلاطين والتزلف اليهم وطلب الحظوة عندهم . . قال أبو حامد فلو كان في عصرنا ملك من الملوك يحب لعب الكرة لألف له العلماء في ذلك كتبوا وعقدوا فيها مجالس للمناظرة

وهذا مالا ننكره على أبي حامد فلقد رأينا في عصرنا من أهل العلم من اذا عرضت مسألة من مسائل الدين وكان لا أمير غرض في تصريفها على وجه من الوجوه وافقوه على ذلك وجعلوا ما يذهب اليه الامير هوى دينا وشريعة وتأولوا لذلك التأويل وحرفوا نصوص الدين تحاشيا عن خلافه . ولى صديق من أهل العلم له حال مشهورة بين الناس ورأى متبع كنت آنس اليه لحسن رأى فيه وكنت أسمع منه كل وقت ما يدل على شدة تألمه من انحراف المسلمين عن الدين الحنيف وارتكابهم الى البدع والأحداث وكان يشنع على العلماء كثيرا لعدم قيامهم

باظهار حقيقة الدين التي أصبحت رمزا بين طلائع الاهواء والبدع
 فاجتمعنا يوماً عند أحد الامراء فسأله الامير عن رأيه فيمن ظهر ينكر
 على المسلمين وينسبهم الى الانحراف والميل عن حقيقة الدين فاندفع
 الشيخ يقرر عقيدة عامة العامة وينكر على المنكرين وينسبهم الى الغلو
 والافراط والتعصب على المسلمين وكان كلما آانس من الامير أنسا
 بما يقول وانبساطا اليه توسع في الكلام حتى لم يبق مقالا لقائل فلما
 خرجنا من بيت الامير قال لي في جملة كلام له ان الانسان لا ينبغي
 له ان يجاهر الناس بحقيقة ما يعتقد وعليه ان يجاملهم فيما يعتقدون .
 ونحن اذا انتهينا الى المصانعة في الدين فعلى الدين والاسلام ألف سلام
 والغرض الآن ليس الا ان نبرهن على ان اشتغال الناس بهذا
 العلم نيف وألف سنة وتأليف العلماء فيه الوفا من المجلدات لا يدل على
 ان العلم شريف في ذاته ولا انه مما يجب الحرص عليه والاعتناء بشأنه
 فان العلماء قد يشتغلون بما لا خير فيه لغرض ذنوبى أو لتوهمهم ان
 الذى يشتغلون به له ارتباط بالسعادة الاخرية فليس كل ما يقع من
 أفعالهم يكون حجة سيما وان الذين وقع الاتفاق بين المسلمين على
 توثيقهم واعتمادهم في أمر الدين كرهوا هذا الفن ونهوا عنه وحضروا
 على الناس الاشتغال به

ولما عربت كتب الفلسفة اليونانية ونقلت الى الاسلام وأكب

علماء الاسلام عليها واشتغلوا بها اتسع باب الشبهة حتى دخلت الشكوك في وجود الصانع وانفرج باب الخلاف وكثرت الشكوك والأوهام ولم يبق في الامكان الاستقرار على عقيدة يمكن عقد القلب عليها ووقع الناس المشتغلون به في بحر من الحيرة ليس له ساحل فلم ينبج منه الا أقل من القليل وأندر من النادر

وما زال الناس فيه بين هزل وجد حتى ظهر قوم سموا بهذا الكلام المبتدع علم أصول الدين وقالوا ان العقائد الدينية ان لم تؤخذ عنه لم تقبل ولم يعتد بها في الآخرة وكان صاحبها من الهالكين فأقبلوا على الاشتغال به تأليفا ومطالعة وتعلما وادخلوا فيه مباحث الفلسفة كالقول في الجواهر والاعراض ومباحث الامور العامة وغير ذلك مما لا يعرف له أصل في الاسلام ولا يرتبط به بوجه من الوجوه حتى وصل الى أعلى درجات كماله ثم عاد الى الانحطاط حتى صارت العمدة فيه على الشرقاوي والساوي ونحوهما من ضعفاء المصريين

وكل من ظن انه يصل الى حقيقة من حقائق الالوهية بالعقل فقد كابر نفسه وحملها على مالا تطيق وارتطو وهو امام الفن وعمدة المتقدمين والمتأخرين في الالهييات يقول نحن اذا قلنا بشيء في الالهييات فاننا لا نقوله اعتماداً على الدلائل العقلية فان العقل محبوب عن الوصول الى ذلك المقام الأقدس وانما نقول بما نرى انه أليق وأكمل : هذا قول

ارسطو وهو ممن لم يتأدب بأداب الشرائع السماوية فأما المتأدبون بأداب الشرائع والمنتمون اليها فيقولون ان الالهيات لا يغنى فيها الا العقل ومن استهدى بغيره فيها ضل في الدنيا وخسر في الآخرة ويعملون حجج الله في كتابه وعلى لسان رسله ظنية وقضايا أوهامهم التي توسوس اليهم بها شياطينهم حججاً قاطعة يجب رد الشرائع بالتأويل اليها ان خالفها

وجملة الكلام في هذا المقام ان حقيقة الدين الاسلامي ضاعت بين قضايا عقول المتكلمين وكشف والهامات المتصوفين فالكلام أفسد عقائد أهل العلم والتصوف أفسد عقائد العامة وشذ عن هؤلاء وهؤلاء قوم تولاهم الله بعنايتهم فلم يكونوا مع هؤلاء ولا هؤلاء وانما لزموا الطريقة المحمدية السهلة السمحة التي لا ركة فيها ولا اشكال وأقاموا على بساطة الاسلام

أما كتب هذا الفن فكثيرة لا تكاد تحصى ولا تحصر وكلها على نحو ما سبق من الخلط ومزج الاسلام بالكفر ولم يؤلف في هذا العلم رجل يريد الله به خيراً الا وندم آخر عمره وتاب عنه فمن لم يكتب بما قلنا وأصر على طلب هذا الفن الممقوت فليأخذ من كتبه ما شاء فكلها شر وبال وماذا بعد الحق الا الضلال

وأما علم البيان فهو من العلوم الحادثة في الاسلام وانما كان

حدوته بعد علم العربية واللغة وذلك أنهم بعد ان انتهوا من وضع القواعد والضوابط لمعرفة أحوال الكلمات العربية وما يعرض لها من الهيئات بسبب انضمامها الى كلمات أخر حتى لا يعرض اللحن فيها للمتكلمين بها وتبقى الصبغة العربية محفوظة ومن تدوين قواميس اللغة التي تحفظ أصل اللغة ومادتها من الضياع والتلاشي رأوا أنه لا بد من وضع قانون آخر لبيان كيفية تأدية المعاني التي يقصدها المتكلمون بكلامهم بتلك الالفاظ وبيان الهيئات الزائدة على دلالة الالفاظ مفردة ومركبة فوضعوا علم البلاغة لذلك وجعلوا الكلام في ذلك على صنفين سموا كل صنف منهما باسم يخصه ووضعوا فيه كتباً على حدة

فجعلوا الكلام في الهيئات والاحوال التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال كالدلالة على أحوال المتخاطبين والفاعلين وما يقتضيه حال الفعل علماً على حدة سموه علم البلاغة لان فيه بيان الطرق التي يمكن بواسطتها بلوغ المتكلم المعنى بلوغاً تاماً يستوفي به جميع أطرافه على الطريقة المعروفة بين أهل اللسان وجعلوا الكلام في الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية علماً على حدة سموه علم البيان وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق أما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين أفاظه أو ترجيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه

لاشترك اللفظ بينهما ودلالته على أحدهما دلالة ظاهرة قريبة وعلى الآخر دلالة بعيدة خفية وأمثال ذلك من المحسنات الكلامية وسموا ذلك علم البديع

والمتكلمون أول ما تكلموا فيه البيان ولذلك سماه المتأخرون علم البيان ثم تلاهقت مسائل الفن واحدة بعد واحدة وكتب فيها جعفر ابن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير كافية ثم جاء عبد القاهر الجرجاني بعد هؤلاء فكتب في علم البلاغة دلائل الاعجاز وفي الثاني أسرار البلاغة فاستقصى وأجاد الا أنه لم يرتب وترك المسائل منشورة فلما جاء السكاكي محض زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه ترتيباً حسناً مفيداً وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأحسن كل الاحسان في وضعه وذل للناس طريق العمل بهذا الفن والانتفاع به

وجاء من بعده قوم قالوا عليه بالاختصار والتلخيص حتى أفنوه وأعدموا الثمرة المقصودة منه وجاء من بعد هؤلاء قوم رأوا ان هذه المختصرات لا يمكن الانتفاع بها لأنها عبارة عن رموز واشارات فوضعوا عليها الشروح والحواشي وأقبل أهل العلم عليها وجعلوا طلبهم هذا الفن منها فلا استفادوا ولا أفادوا

وثمره هذا الفن في شيئين ٠٠ الاول ان يتمكن المحيط بقواعد هذا

العلم مع الاستعانة بحفظ شيء من منظوم العرب ومنثورهم من تأليف
 كلام منظوم أو منشور يساوق كلام العرب في صياغاتهم ولا ينزل
 عنه إلى حد العجمة... والأمر الثاني فهم الإعجاز من القرآن لأن أعجازه
 على ما هو مقرر في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقه
 ومفهومه وهي مراتب الكلام مع التكميل فيما يختص باللفاظ في
 انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام
 عن دركه وإنما يدرك بعض الشيء من له ذوق بمخالطة اللسان
 العربي وحصول ملكته

أما الآن فقد جعل من العلوم المقصودة لذاتها والمشتغلون به
 السنين الطوال لو سئل أحدهم عن آية من كتاب الله أو بيت شعر
 وطلب منه أن يبين ما في ذلك من البلاغة لم يهتد إلى ذلك سبيلاً
 وسيأتي عند الكلام على هذا الفن زيادة توضيح إن شاء الله

هذه هي جمهور العلوم التي تتداولها اليوم ونفني في تحصيلها أعماراً
 طوالاً قد ذكرنا الداعي لتدوين كل واحد منها ومقدار أهميته وخير
 ما ألف فيه من الكتب بعبارات وجيزة سهلة فاجعله على ذكر منك
 حتى تطابق بينه وبين ما سيأتي من اهتمامنا بأقل ما تدعو إليه الحاجة
 واشتغالنا بأقل الكتب وأحظها قدراً وتشديد أساس التعليم على شفا
 جرف هار

﴿ علم العربية ﴾

الغرض من هذا العلم معرفة قواعد مخصوصة يتمكن الانسان بمراعاتها من حفظ لسانه عن اخطأ في الكلمات العربية والنطق بها على غير الطريقة التي جاء النطق بها عن العرب وهو من علوم الآلات التي جعلت وسيلة لغيرها فانه ليس مقصوداً لذاته وإنما وقع القصد به الى فهم معاني كلام الله عز وجل والاحاطة بأسرار تنزيله وفهم الاحاديث النبوية ومن لم يكن له معرفة بقواعد هذا العلم توقف في فهم أوضاع الجمل وخلط في معناها ان تكلف بيانها وهو ليس آلة لفهم هذين الصنفين من الكلام فقط ولا كان ضروريا من أجلهما وإنما هو آلة لفهم كل كلام عربي وضروري لمن له أدنى حاجة الى التكلم ببعض الكلمات العربية أو المراسلة بها أو قراءتها

ومن لم يكن عنده وقوف على قواعد هذا العلم ومملكة تؤهله للعمل بها وتطبيقها على الفروع الجزئية تكلم بغير ما يريد ان يتكلم وأدى مقصوده في رسالته بعبارة لا تفيدها ولا تؤديها واستفاد من القرآن ما ليس من معانيه ولا يستفاد منه بوجه من وجوه الدلالات اذا فهذا العلم ضروري لكل الناس حاشا أفراداً فلائل هم بمعزل عن ميادين الحياة

لا أقول انه فرض عين أو فرض كفاية كما يقول المتأخرون في

أوائل كتبهم النحوية عند ذكر مبادئ هذا العلم فإن الفرض ما افترضه الله كما أن الحرام ما حرمه ولم نعلم أن أحداً ممن يوثق بعلمه ودينه قال هذه المقالة أو نقلها عن أحد له حالة معلومة في الدين والصلاح وما احتجوا به لذلك من أنه وسيلة لبعض الواجبات وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالجواب عنه أن كون النحو وسيلة لعلم التفسير والحديث والفقهاء وغيرها مما بمضه واجب ليس معناه أن استفادة هذه العلوم أو شيء منها بدون ضرب من المحال فإن الإنسان يمكنه أن يأخذ ما يحتاج إليه من الأحكام الدينية التي يفترض عليه تعلمها تلقيناً ممن تلقنها عن غيره بدون حاجة إلى نظر في كتاب حتى يتوقف استفادة ذلك على علم النحو

وإنما معنى ضروريته وكونه وسيلة لغيره أن العادة جرت بأن تؤخذ العلوم بواسطة الكتب المؤلفة فيها وإن من لم يحط بقواعده علماً كان كالاعمى إما أن لا ينقل قدماً إلا بقائد يقوده وهاهنا يهديه وإما أن يعرض نفسه لورود موارد الهلكة والعطب

ومثل هذه الضرورة وإن كانت كبيرة في نظر كل عاقل وهي بحيث تستحق كل عناية والتفات لكن حاشا لله أن تثبت بها الفرضية التي يستحق بفعلها الثواب وبتركها العقاب

وليست هذه مقالة المتأخرين في النحو خاصة بل كل من ألف

منهم رسالة في نوع من أنواع العلوم فضله على سائر الأنواع وميزه
عنها كلها وزعم ان حكم ذلك العلم الوجوب وبين ذلك بوجوه لا تغني
ولا تسمن وستقف على مقالهم في كل علم عند الكلام عليه وحجتهم
عليها وتعرف فساد الذي ذهبوا اليه بما لا يحصى عنه ولا مجال
لانكاره ان شاء الله

هذا العلم كثير التداول بين طلبة العلوم الدينية في جميع البلاد
الاسلامية وان كانت الكتب التي يتلقونها منها مختلفة

فأهل مصر يقرؤون من كتب النحو شرح الكفراوى على
الآجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية أبي النجاشم بحاشية
القطر ثم شرح القطر بحاشية السجاعي ثم شرح الشذور بحاشية الامير
ثم شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بحاشية السجاعي أو الخضرى
ثم شرح الأشموني عليها بحاشية الصبان

يمضى الطالب في تلقيها من أيام عمره نحو عشر سنوات يدأب
ليله ونهاره في فهم معانيها والوقوف على أسرارها فاذا انتهى منها لم
يكن قد حصل عنده من هذا العلم ما يفرق به بين النكرة والمعرفة
ولا استفاد ملكة تؤهله لقراءة جملة واحدة من غير لحن وتخليط
اللهم غير نفر قليل منهم جداً وذلك لاسباب

ترجع جملة هذه الاسباب الى فساد طرق التعليم وكثرة الخلط

والتشويش في هذه الكتب التي يتداولونها ولو جردت المسائل
النحوية من هذه الكتب عن غيرها لم تكن جزءاً من ألف جزء
والباقي كله مما حكاك لفظية ومنازعات قليلة الجدوى لا هي من النحو
ولا من غيره وليس الغرض من وضعها سوى توسيع حجم المؤلف
والزيادة في عدد كراريسه حتى يملأ العين ويستدعي العناية والالتفات
من أهل الذوق والبصيرة

والشيخ المعلم حال إفرائه لا يكون همه غير جمع كل ما على
الكتاب الذي يقرأه من شرح وحاشية وتقرير وذكر كل ما جاء فيها
من اعتراض وجواب وربما مررت على الشيخ وهو يقرأ بعض هذه
الكتب وبين كل أصبعين من أصابع يديه كراسة من كتاب وهو
ينظر في كل واحدة منها مرة يفتش فيها على اعتراض أو جواب
هذا شيء ان لم يشاهده الانسان أنكره لغرابته وبعده ولكنه
فاش بين أهل العلم بمصر لدرجة لا يمكن المكابرة فيه ولقد سمعت
بأذني وأنا اذ ذاك مشتغل بتحصيل العلوم في الازهر شيخاً من جاة علماء
الازهر وكان حينئذ يقرأ التلامذة شرح ابن عقيل يقول ممتناع عليهم
بما يقاسى في سبيل تعليمهم من الاتعاب وما يتجشم من المشاق وما
يفنيه من ساعات عمره انه ينظر في نيف وعشرين كتاباً بين شرح
وحاشية وتقرير على الالفية حتى لا يفوتهم شيء مما كتب الناس عليها

قليلاً أو كثيراً

هذا وان الشيخ نفسه اذا قام من حلقة الدرس لم يبق في حافظته
شيء مما ألقاه على التلامذة بل ولا يتذكره اذا ذكر به والقوة
الحافظة في الانسان لو كانت من الصناديق التي تحفظ الاصوات لم
يكن في استعدادها حفظ كل هذا ولكان لها حد تنتهي اليه في انتقاش
هذه الاصوات فيها

واذا كان هذا حال الشيخ وتلك درجته فماذا عسى أن يعلق
بذهن التلامذة من هذا الكلام كله وهم دونه بمراتب ملكة واستعداداً
واذا علمت ان حالة التعليم في مصر على ما ذكرناه لك فلا
تستنكر ان ترى من التلامذة أقواماً قضوا عشر سنين في تلقي علم
النحو ثم لم يحفظوا منه بطائل ولا حصلوا بعد هذا التعب كله ملكة
تؤهلهم لقراءة جملة بلا لحن فيها واخراج لها عن أصولها فان الطبيعة
البشرية لا تقوى على التعلم بهذه الكيفية مهما كان حالها صفاً واستعداداً
ولقد كنت ممن ابتلى بهذا وأضاع فيه أوقات طويلة ولم يحفظ
فيها بطائل فاقدم حضرت من بلدي للزهر لتلقي العلوم الدينية فيه
وكنت قد حصلت في بلدي طرفاً يسيراً من علم النحو فلما حصلت
فيه وانخرطت في سلك تلامذته مكثت فيه نحو ثلاث سنوات أعاني
فيما أعاني قراءة الكتب النحوية فما أزدت فيه بصيرة ولا فتح على

بشيء منه حتى كأني بعد ثلاث سنين لم أعمل في تعلمه فكراً ولا أتعبت
 نظراً ولا أسهرت جفني ليلاً فكنت أتهم نفسي وأظن ان ذلك عن
 عدم استعداد في النفس للتعلم فشكوت أمرى لرجل من عقلاء أهل
 العلم فقال ان فساد طريقة التعليم هو الذي أثر عليك هذا التأثير السيء
 فاذا كان لك في نفسك حاجة فترك قراءة هذا العلم على أحد من
 العلماء فان طريقتهم في تعليمه واحدة واذا قرأت في كتاب أي كتاب
 كان فلاحظ وأنت تقرأ الوجوه الاعرابية فيما تتلوا من الكلمات
 فاذا اشتبه عليك الامر في كلمة فاسأل عنها من ترى انه يحسن هذا
 العلم فانك لا تلبث ان تحيط بوجوه الاعراب وتحصل لك ملكة
 الاصابة في القول فأخذت نفسي بذلك زمناً فحصلت منه خيراً وما
 أظن اني لو بقيت على تلك الحال أنال شيئاً أبداً

وانكي من هذا أن من ابتداء في اقراء كتاب كابن عقيل على
 الالفية والعادة المستمرة عندهم ان هذا الكتاب يقرأ في سنة فاذا ابتداء
 الشيخ في اقراءه يقطع السنة الا أياماً في اقراء نصف الكتاب على
 الطريقة التي شرحناها آنفاً فاذا أزف الوقت وكاد ظل السنة ينقلص
 أطلق لنفسه العنان حتى لا يبقى في طاقة الطلبة المقابلة عليه فضلاً عن فهم
 شيء منه وكان حظ الشيخ النظر وحظ التلامذة السماع ولا يظن ظان
 ان هذه هي طريقتهم في اقراء الكتب النحوية بل هي بعينها طريقتهم

في اقراء كل الكتب العلمية من أى فن من الفنون كانت وأكثرهم
يصرفون همهم في أوائل الكتب الى الكلام على البسملة بما
يناسب الفن المشروع فيه يرون ان ترك ذلك قصور أو تقصير

فاذا انتهوا من الكلام على البسملة بكل غث وThin عمدوا الى
خطبة الكتاب ففصلوا كلماتها حرفاً حرفاً ويحشوا في كل واحدة منها
بمحا مدققاً كما يبحث الحكيم النطاسي في اعضاء المريض وربما كانت
خطبة الكتاب طويلة فاغتصبت من الكتاب حظه من الوقت
واضطرتة الى ان يمد يده الى نهر الشيخ وتلامذته فيقتطع منها ما يكفيه
ولقد قرأت في أول سنة من دخولي للازهر واشتغالي بالتحصيل
فيه حاشية الباجوري على السلم في المنطق فكشنا من أول السنة الى
آخرها نقرأ في خطبته ونسمع ما فيها من الاستعارات والكنايات
وغير ذلك

وذلك قبل شروعي في حضور الكتاب أسمع التلامذة
يذكرون ان علم المنطق يحسن العقل ويزيد الانسان بصيرة فكنت
أعجب طول السنة اذ لم أجد فيما سمعته في حلقة الدرس شيئاً يرتبط
بالعقل بوجه من الوجوه وانما هو بحث نظر في الالفاظ

وبانتهاء السنة الدراسية يسر البارى وقطعنا بحر الخطبة على
سفينة الصبر والجهاد وأقينا المراسى على ثغر (فصل في جواز الاشتغال
(٩ - التعليم)

به) وهو الفصل الذي يبحث فيه عن حكم تعليم هذا الفن وتعلمه هل هو
 حلال أو لا فقررت سبني ندماً على ما ضاع من الزمن بلا جدوى
 وقلت في نفسي ان من أفتح الجهل ان يشتغل الانسان سنة في مقدمة
 كتاب قبل ان يعلم ان العلم المدون فيه ذلك الكتاب من العلوم التي
 يحل النظر فيها أولاً

ولما كان أول السنة الثانية والتأم نظام الطلبة كما كان عدنا لا يحال
 الكتاب على الشيخ وقلنا قد ذهب الفشر ولم يبق الا اللباب فلما
 أخذ الشيخ مكانه وتأهب للاقراء والتعليم صاح به الطلبة من اطراف
 الحلقة قد حضرنا اليوم من لم يكن معنا في العام المنصرم ولم يحظى
 بسماع خطبة الكتاب فأعدها علينا ولو على سبيل التبرك فقال الشيخ
 لا بأس واستقبل الكتاب فاستدبرتهم غير آسف الا على سنة تمضي
 في غير مصلحة

وبعد أيام سمعت أن رجلاً من كبار المشايخ شرع في اقراء شرح
 شيخ الاسلام زكريا الانصاري على ايساغوجي في المنطق وكانت
 نفسي تنازعني الى هذا العلم ايما منازعة فسألت عن طريقة الشيخ في
 التعليم فذكروا خيراً فقلت في نفسي عسى ان يكون في هذا عوض
 عما فات فلما قعدت في حلقة الدرس سمعت الشيخ يقرأ خطبة حاشية
 الحفني على الكتاب المذكور فقلت لمن بجاني قد سمعت ان الشيخ

يقراً شرح شيخ الاسلام فقط بدون الحاشية فقال نعم ولكنه رأى
ان يقرأ أيضاً خطبة الحاشية للتبرك فعزمت على الانصراف عن الدرس
بادى الأمر لكنى نظرت الى خطبة الحاشية فوجدتها أسطراً قليلة
فقلت لا يترك الخير الكثير للشرا القليل الذي يتقدمه أو يمازجه
ويتخلله فلزمت مكانى وبقينا نحو شهر فى هذه الخطبة التى لا تتجاوز
عشرة أسطر فلما انتهينا من تشريحها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً انتقلنا الى
خطبة الشارح لنقرأها قراءة تعلم واستفادة لا قراءة تبرك كما كنا نقرأ
خطبة الحاشية فكلمنا سمعناه أولاً سمعناه ثانياً لا يختلف عنه بشئ مع
بعض زيادات ولدتها الفكرة وأدى إليها البحث والتنقيب فلا والله
ما انتهينا من خطبة الشرح الا وقد اتى على ابتدائنا الكتاب ثلاثة شهور
فصرفت وجهى عن الكتاب ومقره وقلت الرجوع من أول
الطريق أولى ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وقلت لنفسى ان لك
لعذراً فى ترك التطلع الى هذا العلم مهما كانت منزلته بين العلوم عالية
وثمرته شريفة وما لا يمكن فلا عذر للانسان فى طلبه

ثم يسر الله تعالى برجل من أهل العلم فى الأزهر ومن أساتذة
مدارس الحكومة المصرية يستن فى تعليمه سنن أهل الذكاء فى إيفهام
معانى الكلام من غير تعريج على الالفاظ ومباحثها فأخذنا عنه رحمه
الله مبادئ هذا الفن ثم عاجله لسوء الحظ ريب المنون

وانما قصصنا عليك هذا لتحيط علما بكيفية التعليم الديني في مصر
فلا نحتاج عند الكلام على علم آخر لبيان طريقته في تعليمه فان هذا
الذي ذكرناه هو حالهم في عامة ما يقرأونه من الكتب لا يختص ذلك
بفن من الفنون ولا بكتاب من الكتب

وسنضع في كتابنا هذا فصلا مخصوصا لبيان طريقة في التعليم
نافعة على نحو ما كان عليه المتقدمون من أهل العلم تقرب على الطالب
تناول ما يشتهي من أنواع هذه العلوم

وأما طلبه الاترك فيقرأون من كتب هذا الفن الاظهار
بشروحه وحواش عليه وكافية ابن الحاجب بشروحها وحواش عليها
ولهم عناية بالحواش سيما اذا كان مؤلفوها من بني جلدتهم وميل الى
الشغب والمنازعات في الالفاظ لكن درجاتهم في ذلك دون درجة
المصريين وان كان لا يوجد في حلق دروسهم ما يوجد في حلق دروس العلم
بمصر ومن ذلك ترى ان نتائج التعليم عندهم أحسن منها عند المصريين
فالطالب التركي يتعلم اللغة العربية وطرفا كبيرا من قواعدها في مدة
أربع سنوات بحيث يمكنه ان يتكلم باللغة العربية الفصحى كلاما خاليا
عن الالحن وان وجد قليلا وان كتب فكذلك على حين ان الطالب
المصري بعد عشر سنوات لا يمكنه ذلك اللهم الا على سبيل النادرة
والشذوذ

وأما أهل الشام والعراق فيجمعون بين المذهبين ويخلطون بين الطريقتين فينالون من كتب المصريين وكتب الأتراك إلا أن الأغلب استعمالهم لكتب المصريين وطريقتهم في التعليم غالباً تضارع طريقة المصريين لا تختلف عنها الا قليلاً ولهم عناية بالالفاظ كالتى للمصريين وشغفهم بالاعتراضات والاجوبة لا ينقص كثيراً عن شغف المصريين ونتائج التعليم عندهم أحسن وأوفر منها عند المصريين لأن لهم بعض عناية بتطبيق العلم على العمل

وطلبة العلوم الدينية في الهند ليس لهم كتب دراسية مخصوصة كما للمصريين والسوريين والأتراك ولكنهم يقرؤون من هذه الكتب ما تشتهيه أنفسهم وجل معتمدهم في تعليم هذا الفن وتعلمه على شرح الكافية للجامى وحاشية العصام عليه وطرق التعليم عندهم بسيطة جداً وهى ان المعلم يقرأ لفظ الكتاب الذى يقرئهم اياه ثم يبين لهم معناه باللغة الهندية ولكن نتائج التعليم عندهم ضئيلة جداً وأظن ان سبب ذلك انهم يتلقون علومهم عن الكتب العربية وهم غرباء عن هذه اللغة بل هم على ما رأيت أبعد الاعاجم عن اللغة العربية فيشغلهم النظر في الفاظ ما يقرؤون من الكتب عن النظر في معانيها وما تحتها من الفوائد ومنذ سنوات هبت نفحة شعور على جمعية العلوم الدينية في البلاد الاسلامية أدرك منها أهل البصيرة سوء حالة التعليم في المدارس

الدينية فشرعوا في البحث عما ينهض بها ويأخذ بضبعيها من هذا الحضيض وكان فيما مرت عليه تلك النفحة البلاد الهندية فألف أهل العلم فيهم جمعية سموها (ندوة العلماء) يذكرون ان الغرض منها إحياء العلم واصلاح طرق التعليم وهم يجتمعون كل سنة في عاصمة من عواصم الهند للنظر في هذا المشروع الجليل ولا أدري ان كان في وسع أعضاء الجمعية الوصول الى نتيجة يحمد الناس أمرها أم يجعلون اشتغالهم في ايجاد طريقة لاصلاح طرق التعليم على نحو اشتغالهم بالتعليم نفسه لانهم أنفسهم هم الممثلون لهيئة الجمعيتين الاصلاحية والتعليمية

وذكر لي بعض من أثق بفضله وفهمه ان حالة الجمعية الاصلاحية سيئة كحالة الجمعية التعليمية سواء بسواء وأنا لا أدري حقيقة الامر في ذلك غير اني رأيت وأنا بالهند عام تسعة عشرة بعد ألف وثمانائة مجموعة من أعمال الجمعية في سنة أو سنتين قد طبعت في مجلدة فاذا تسعة أعشارها شعر ركيك لبعض أعضاء الجمعية في مدح بعضهم بعضاً فان كان أكثر اجتماعهم يدور على هذا فابعد شيء ان ترى حالة التعليم والعلم صالحاً في الهند كافية في الغرض منها

ونحن انما جعلنا كلامنا مقصوداً على المدارس الدينية الاسلامية التي الغرض منها إحياء العلوم الدينية فقط لأن غرضنا اصلاح طرق

التعليم في هذه المدارس محافظة على الدين والا فانا اذا نظرنا الى طرق التعليم في الشرق الادنى من الهند الى فارس الى العراق الى الشام الى مصر الى البلاد التركية الى قازان وجاوة لوجدناها نسبة واحدة في التأخر والانحطاط العلمي

قد قرأت طرفاً يسيراً عن حالة التعلم والتعليم في المدارس الدينية الاسلامية وبقي عليك ان تعرف حقيقة التعليم في المدارس النظامية وهي مدارس الحكومات ومدارس الاهالي وانت اذا نظرت اليها وجدت طرق التعليم فيها تخالف طرق التعليم في المدارس الدينية والكتب التي تقرأ فيها مخالفة للكتب الدراسية في تلك وهي حسنة صالحة للاخذ منها الا ان النتيجة واحدة في الجميع وعدد الناجحين حقيقة من كل فريق يكافئ الناجح من الفريق الاخر او يقاربه

وتتخصر الاسباب في عدم نجاح تلامذة المدارس النظامية في البلاد المشرقية في امرين أحدهما من قبل المعلمين والاخر من قبل التلامذة أما الذي من قبل المعلمين فهو اكتفاؤهم من التلامذة بحفظ مسائل الكتب التي يقرؤونهم اياها بحيث اذا سئلوا عنها اجابوا بلفظ الكتاب من غير زيادة ولا نقصان بدون نظر منهم فيما اذا كان في وسع هؤلاء التلامذة تطبيق ما حفظوه من القواعد على الفروع الجزئية والانتفاع به عند مسيس الحاجة اليه اولاً: والامر الثاني اكتفاء

التلامذة من أنفسهم بهذا المقدار فان الطالب اذا دخل المدرسة لم يكن همه الا الحصول على الشهادة سواء حصل منها ما ينتفع به بعد خروجه منها أولا فهو يبذل قصارى جهده في حفظ نصوص الكتب حتى اذا سئل عنها أجاب وان لم يفقه لها معنى ولا أمكنه ان يستفيد منها الفائدة التي من أجلها دون الفن وألف الكتاب

فأنت اذا سألت بعض التلامذة عن حكم من الاحكام الكلية في أى فن من الفنون التي يقرأها في مدرسته لم تجد أسرع منه الى الجواب بعبارات لطيفة وألفاظ موجزة كما هي مذكورة في الكتاب فاذا سأله عن حكم جزئى من جزئيات تلك القاعدة الكلية والحكم الكلي اضطرب ولم تجد عنده بها خبراً

وقد كنت أسمع هذا من بعض أهل الفضل عن تلامذة مدارس الحكومة المصرية وكنت أرى ان في ذلك مبالغة حتى اختبرت ذلك بنفسى فوجدته كما قال لا يختلف عنه بشئ

وقبل تحرير هذا المقام بأيام دخل على تلميذ من تلامذة مدارس الحكومة المصرية ممن تحصل على الشهادة الابتدائية بعد ست سنوات قضائها في المدرسة واتفق دخوله على ويدي كتاب اعجاز القرآن لابي بكر الباقلانى أنظر فيه فلما جلس سأله عن تعريف المبتدأ والخبر وحكمها والمضاف اليه وحكمه فأجاب عن كل ذلك جوابا حسنا فقلت

كيف تعرب اعجاز القرآن ففكر طويلا ثم قال فعل وفاعل فقلت أعد النظر وتأمل فما زال يورد وجوه الاعراب ويردد بينها حتى قلت إنه قد استقراها ولم يهتد للصواب في شيء مما قاله

والعادة المستمرة ان الحكم على الجزئي ليس حكما على الكل
لكننا يمكننا ان نستثنى هذا من هذه القاعدة فنقول ان حال هذا التلميذ كحال سائر التلامذة لأنه قد نال من معلميه شهادة بنجاحه فلولا ان كل من كان على مثل حاله يعد من الناجحين ويعطى هذه الشهادة لم يعطها هو

نعم اننا اذا رأينا في تلامذة المدارس الدينية من هذا حاله لم نجر حكمه على الباقيين كما وقع لنا مع رجل من علماء الدرجة الثانية في الازهر سألتناه عن أصيلا لا في بيت النابغة

وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوا بآوما بالدار من أحد
فقال أصيل بفتح الهمزة وكسر الصاد ولا نافية للفعل بعدها
فقلنا لا بل أصيلا لا كلها كلمة واحدة والفعل بعدها مثبت فضحك
وقال يقول الله بكرة وأصيلا وتقولون أصيلا لا

وانما لم نجر حكم الفرد في المدارس الدينية على الكل وأجريناه على الكل في المدارس النظامية اذا كان ذلك الفرد قد نال شهادة بالنجاح لأن في امتحان تلامذة المدارس الدينية من المحاباة ما ليس في امتحان

تلامذة غيرها وشتان ما بين امتحان واحد على حدته ومثيرة في
نفس واحد

فرجال التعليم في المدارس الدينية ما زالوا يبالبون في تحقيق
قواعد العلوم وضبطها وايضاها وتقريبها الى فهم الطالب وتمكينها
في فكره حتى انقلب الأمر الى ضده فصار الايضاح ابهاما والتقريب
ابعادا ورجال التعليم في المدارس النظامية اكتفوا من العلم بحفظ
قواعده وان لم يفهم معناها ولا تمكن حافظها من أخذ حكم جزئي
من جزئياتها منها

فما أشبه حال رجال الفريقين بذلك الراجز العربي الذي وفد
على نصر بن سيار في خراسان وهو اذ ذاك أمير عليها فدحه بأرجوزة
تشبيها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات فقال نصر والله ما تركت كلمة
عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فان أردت
مديحي فاقتصد فدخل عليه يوماً آخر فأشده

هل تعرف الدارَ لام عمرو دع ذا وحبر مدحة في نصر

فقال نصر لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين

فالصواب في الأمر الذي ينبغي المصير اليه التوسط بين
الطرفين والخروج عن إفراط أهل المدارس الدينية وتفريط أهل
المدارس النظامية الى حالة وسطى تتكفل بالغرض المطلوب من

تأسيس هذه المدارس وصرف الاوقات الطويلة في قراءة هذه الفنون
وسند كرهذا الوسط في الفصل الذي خصصناه لذلك ان شاء الله تعالى
وانما قصدنا الآن لذكر أهمية هذا النوع من العلم وبيان ما يقرأه
طلاب العلوم من كتبه وذكر طرق تعليمهم وتعلمهم وقد علمت
مما قدمناه أنه من الأهمية بحيث لا يستغنى عنه انسان وان كتبه التي
يؤخذ منها في عامة البلاد هي من أحط الكتب قدراً وأكثرها
حشواً وأقلها فائدة وان الاشتغال بها قاطع عن علم العربية لا مفضل اليه



﴿ ما الذي ينبغي ان يقرأ من كتب هذا الفن ﴾

ينبغي للطلاب لأول اشتغاله بتعلم هذا العلم ان يقرأ على أستاذ
عالم بصير بطرق التعليم كتاب الكافية لابن الحاجب مجرداً عن كل
شرح أو حاشية فان كان ولا بد فشرح ابن الحاجب نفسه فان حفظ
مع ذلك المتن عن ظهر قلبه فقد استوثق لنفسه من هذا الفن فاذا
انتهى منه انتقل الى كتاب المفصل للزمخشري فاذا استوعبه قراءة
وفهما فقد أخذ من هذا الفن ما يتوصل به الى ما ترمى اليه نفسه من
مجانبة اللحن في الكلام والخطأ في القول ونال منه ما يكفيه لفهم كل
كلام عربي من قرآن أو سنة أو شعر منظوم أو كلام مرسل وتمكن
من إفهام الذي يقصد إفهامه بعبارات تدل عليه على وجه لا يشوش

الفهم على السامع ويهيم عليه المراد من كلامه . والعلم الذي يكون
 الغرض منه التوصل به الى علم آخر يكفي منه قدر ما يوصل الى ذلك العلم
 ثم ان أراد الطالب التوسع في هذا الفن فضل توسع فليس بعد
 كتاب التسهيل لابن مالك غاية لا مل وهو على صغر حجمه قد احاط
 بقواعد اللغة العربية ايما احاطة فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من مسائل
 الفن الا ذكرها وبينها

نعم ان كتاب التسهيل معقد العبارة عسر المأخذ لكن حاشا لله
 ان يكون كحاشية الصبان على الأشموني أو حاشية العصام على شرح
 الجامى على الكافية ثم ان المشتغل به يحصل منه على فوائد وعلوم نافعة في
 العربية والمشتغل بتينك الحاشيتين لا يحصل الا على خرافات وأوهام
 وقد قررنا في أول البحث ان هذا الصنف من العلم ليس من جملة
 العلوم التي القصد منها نفسها وانما هو وسيلة لغيره وأذ ذلك كذلك
 فينبغي الاقتصار منه على مقدار ما يوصل الى المقصود لذاته وعدم
 التوسع فيه بالاستكثار من التفريعات والانظار فان ذلك مخرج له عن
 المقصود وعائق عن التوصل به الى غيره

وظلاب العربية في المدارس الدينية يتعاطون دراسة هذا الفن الذي
 هو من العلوم الآلية مدة تعلمهم مهما كانت طويلة فاذا انتقل الطالب
 من التعلم الى التعليم قضى ما بقي من عمره في إقراءه وتعليمه لا يفتقر

عنه ولا يني كأن ليس ثمة من العلوم غيره وان الله تعبه بتلاوة كتبه
طول عمره

وان أردت تحقيق ما قلناه فاقراً ما كتبه ابن خلدون في
مقدمة تاريخه . قال

﴿ فصل في ان العلوم الآلية لا توسع فيها الانظار ولا توسع المسائل ﴾
اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات
كالشرعيات من التفسير والحديث والفقهاء وعلم الكلام والطبيعات والالهيات من
الفلسفة وعلوم هي آلية ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات
وكلنطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين
فاما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل واستكثار
الأدلة والانظار فان ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة
وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر
فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل
لأن ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكما خرجت
عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة
الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل
العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن
تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر
وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق
وأصول الفقه أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات
بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها
في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضرّة بالمتعلمين على الاطلاق

لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا
العمر في تحصيل الوسائل فتى يظفروا بالمقاصد فهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم
الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينهوا المتعلم على الغرض منها ويتفوا به عنده
فن زعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليرق له ماشء من المراقى صعباً
أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له اه كلامه

ومما ذكره رحمه الله تعلم ان هذا الداء الذي نراه اليوم يقطع
أوصال جسم العلوم العربية والدينية ليس هو من الامراض الجديدة
وانما هي قديمة جداً فان ابن خلدون انتهى من تسويد مقدمة تاريخه
التي نقلنا عنها الفصل السابق سنة تسعة وسبعين وسبعمئة أي من
نحو ستة قرون وهو من ذلك العهد يصف ما حل بجسم العلوم من
الادواء ويشكو من فساد طريقة المعلمين تأليفاً وتعلماً

ونحن وان لم نعلم ما هي تلك الكتب التي كانوا يتداولونها بينهم
ذلك الحين ولا شهدنا رجال العلم فيهم فنعرف حقيقة تلك المؤلفات
وكيفية ذلك التعليم ومقدار ما هو عليه من الفساد والاختلال لكننا
نجزم مع هذا بان حالة العلوم اليوم أسوء منها قبل قرن واحد وهي
قبل قرن أسوء منها قبل قرنين ونجزم أيضاً بانه ليس في مؤلفات
ذلك الوقت كحاشية الصبان على الأشموني التي يمضى فيها الطالب في
أيامنا هذه خمس سنوات لا يكون للطالب من حظ فيها سوى قراءة
اعتراضاته على الحفني والسيد البليدي وان لم يفهم منها فائدة ولا انتهى

منها الى شيء محمد ومهما بالغنا في شرح مساوي هذه الكتب لم نصل
الى درجة المطمع عليها والبلاغ في هذا ضرب من المحال
وعلم التصريف أحد شقي هذا العلم والمتأخرون منهم من أفردوه
عن علم النحو وجعله علماً برأسه وأفردوه بالتأليف وهو ان لم يكن أحد
جزئي علم النحو فهو شقيقه والحاجة اليه أشد من الحاجة الى علم النحو
لأن علم النحو يعتصم به من الخطأ في الحرف الأخير من الكلمة
العربية وهذا الصنف يحترزه عن الخطأ في كل أحرف الكلمة ومن
لم يكن له حظ في هذا العلم لم يكذب ينطق بكلمة على وجهها وان
أصاب في جهة اعرابها

وهذا النوع من العلم على أهميته قلت العناية به في جميع الاقطار
فاما أهل مصر فلا يرون من قواعده غير ما ذكره ابن مالك منه في
آخر منظومته المسماة بالخلاصة وهو على قائمه فقد علمت ان من عادتهم
ان لا يصلوا الى هذا الموضوع من الكتاب حتى تكون السنة الدراسية
على آخر رمق من الحياة وهم على غاية السآمة والملل فلا ينالون من قراءة
هذا القسم من الكتب قليلاً ولا كثيراً ولا يحصلون منه على طائل
ومطبوعات مصر على كثرتها ليس فيها من كتب الصرف
غير العزى ومصباح الارواح بشرحين عليه ومن هذا تعلم قدر اهتمام
طلبة العلوم الدينية في مصر بهذا القسم من العلوم العربية على مقدار

أهميته وشدة الحاجة اليه

وطلاب العلم الديني في البلاد التركية والسورية والهندية يقرأون
كتاب الشافية لابن الحاجب ببعض شروحيها وهو كتاب حسن سهل
المأخذ الا أنه غير كاف في المقصود

وفي كتاب المفصل للزمخشري من قواعد هذا الفن ما فيه
غنية عن التطلع الى غيره لمن فيه مقنع ومن أراد زيادة التوسع ففيما
أورده ابن مالك في التسهيل من قواعد هذا الفن مالا زيادة بعده لمستزيد
فاذا وفق الله اطالب هذين العلمين النحو والصرف من يقريه
كتابي الكافية والشافية في سنة ساعة كل يوم ثم كتاب المفصل
كذلك ثم كتاب التسهيل كذلك مع أخذه بتطبيق العلم على العمل
فقد تمكن منهما غاية التمكن واستولى منهما على كل ما يريد

ولأحمد فارس الشدياق محرر جريدة الجوائب سابقا بدار الخلافة
الاسلامية وصاحب التأليف المشهورة كتاب سماه منية الراغب في
النحو والصرف وحروف المعاني ذكر في مقدمته انه يضمن لمن قرأ
كتابه في ستين درسا ان تحصل له الاحاطة بقواعد الفنين وهو كتاب
حسن بسط فيه كتابي الكافية والشافية لابن الحاجب وزاد عليهما طرفا
من الكلام على حروف المعاني أخذه من كتاب مفصل الزمخشري
وانما غرضه بقوله هذا التشجيع على قوم جعلوا هذين العلمين

الذين هما من أضعف العلوم الآلية شغل العمر كله من المهدي إلى اللحد
لا أنه يمكن تعلمهما فعلا في ستين يوما

وليس كل علم ينفع وإنما النافع من العلم ما أمكن التوصل به إلى
العمل فأما ما لا يمكن التوصل به إلى العمل فهو وعدمه سياتي وقواعد
هذين العلمين لو لخص الضروري منها الذي تكثر فروعه في تضاعيف
الكلام ويكثر دوران جزئياته على اللسان لا يمكن لذي الذكاء حفظها
في ستين يوما إلا أنه لا يمكنه أن يفهمها في هذه المدة فهما حقيقياً بحيث
يمكنه الانتفاع بها في العمل الذي تعتمد من أجله حفظ قواعد هذا الفن
وفيما ذكرناه سابقاً عن تلامذة المدارس النظامية وانهم اضطرب الناس
حفظاً لقواعد فنونهم التي يتلقونها في مدارسهم وانهم أقل الناس انتفاعاً
بما يعلمون لأنهم قل ما يعتنون بفهم حقائق هذه القواعد وتطبيقها على
فروعها الجزئية التي دون الفن وربت القواعد لاجل بيان أحكامها
لا شيء في أنفس هذه القواعد دليل على هذا وإيضاح له

وسندكر ان شاء الله تعالى في باب اصلاح طرق التعليم فصلا
نذكر فيه ارتباط العلم بالعمل وان العلم بدونه كالجسم الذي لا روح
فيه ونذكر طرفاً من اخبار من تضلع في قواعد بعض العلوم وقتلها
شرحاً وتقريراً ثم لما حاول أن يعمل بها لم يستطع ذلك وخاتمه قواه



﴿ علم تفسير كتاب الله ﴾

الغرض من هذا العلم ظاهر من اسمه وغايته معرفة مراد الله جل شأنه في كلامه المنزل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم والفائدة في ذلك معرفة مواضع أمره فتوتى ومواضع نهيه فتجنب ومعرفة الدلائل على وحدانيته وأوصافه الكمالية وتواريخ الامم الغابرة وأخبارهم مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله اليهم وما حل بالمخالفين منهم من السخط والعذاب ليكونوا عبرة لمن بعدهم من الامم الى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي يشتمل عليها كتاب الله جل جلاله ولا يمكن الاطلاع عليها الا بالاطلاع على كتب التفسير المنقولة نقلا صحيحا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلماء أصحابه . . . وقد يظن بعض الناس ممن تخيل له أوهامه ان في قدرة عقله ان يحيط بما بين العرش والفرش ان في استطاعة كل أحد الوقوف على معاني القرآن والاحاطة بأسراره باستصحاب أي قاموس من قواميس اللغة العربية ومن يرى من الناس ان نفسه تحده بذلك وتريه هذا الغرض الاقصى تحت يده فليختبرها بقصيدة من شعر أحد الجاهليين أو أحد المخضرمين أو أحد الاسلاميين ويصحبها ما شاء من قواميس اللغة فان استشعر من نفسه العجز عن معرفة مراد قائلها منها وقصرت به أفكاره التي يثق بها فهي عن فهم كلام الله أكثر قصورا وهي فيه أقصر باعا

وهذا على ما تراه من الأهمية وشدة الحاجة إليه فطلاب العلوم الشرعية أقل الناس عناية به وأزهدهم فيه فالطالب الذي يصرف عشر سنوات من عمره في تعلم النحو من حواشي المتأخرين أو بالحري يمضي عشر سنوات في قراءة قيل وقال واعترض وأجيب مما ليس بعلم من العلوم يضمن على كتاب الله وقانون دينه ومبدأ سعادة البشر في النشأتين بسنة يصرفها في قراءة تفسير من تفاسيره اللطيفة الموثوق بها والمعلومة درجة مؤلفيها وطبقتهم بين العلماء

وليس هذا الذي تقوله خاصا بطلبة مصر أو قطر بل طلاب العلوم الشرعية في جميع الأمصار والاقطار قد أطرحوا هذا القسم من الفنون وجعلوه دبراً ذاهباً ولم يعيروه أدنى نظر والتفات غير طلبة العلوم الشرعية بالاستئانة العالية فانه من المتحتم على الطالب عندهم ان يقرأ من كتب التفسير تفسير القاضي البيضاوي فان لم يحضره على أحد الشيوخ في جملة كتب العلوم الشرعية لم ينل درجة العالمية وأما في مصر فالتفسير عندهم من الفنون الدراسية والمتعرض لنوال شهادة العالمية يمتحن في علم التفسير كما يمتحن في سائر العلوم ولكن كل الحائزين على هذه الشهادة لم يقرأوا شيئاً من كتب هذا الفن ولا شموله رائحة وأطولهم فيه باعاً من حضر قطعة صغيرة من تفسير الجلالين ومن غريب الاختلال في نظام المدارس الشرعية ان رؤساء هذه

المدارس الذين اليهم أمر الطلبة وترقيتهم الى مراتب العلماء يتمتحنون
الطلاب بما لم يتلقوا من العلوم ولا اطاعوا عليه ويجيزونهم فيها فان الطالب
عندهم يقيم في مدرسته ماشاء الله ان يقيم بدون مراقب يلاحظ سيره
واستقامته واشتغاله يحضر ما شاء ان يحضر من الكتب والفنون ان
كان له نية في الاشتغال ان لم يكن غرضه تخليص نفسه من يد الجندية
فاذا تمت المدة الدراسية ان كان لها نهاية كما هو في مصر اليوم وخيلت
له أوهامه انه قد صار لديه من الاستعداد ما يؤهله لأن يقف في
مصاف المعلمين وينقل عن مرتبته الأولى طالب ممن اليهم النظر في
هذه الامور امتحانه في العلوم التي جرت العادة بامتحان من يريد مثل
ذلك بها فيقبل منه الطالب بدون نظر في شيء غير كونه قد أمضى المدة
القانونية التي لا يجاب طلبه قبلها فاذا دخل قاعة الامتحان فهناك القمار
ولقد أعلم رجلا في مصر من طلبة العلوم الشرعية فيها تقدم
لنوال شهادة العالمية فعينت له الجمعية العلمية المنوط بها امتحان الطلاب
الدروس التي تريد اختباره بها لينظر فيها قبل الدخول في قاعة الامتحان
فاجتمع اليه جماعة من الشيوخ يساعدونه على فهم هذه المباحث التي
سيمتحن فيها وذلك متعارف بين طلبة العلوم الشرعية بمصر فسأله أحد
هؤلاء وكان يقرأ في باب لا التي لنفي الجنس من شرح الاشموني على
الالفية عن اعراب (لا اله الا الله) فقال لا مبتدأ فقال السائل التمس

وجها آخر فقال هذا متعين ليس غيره ثم لم يمنعه كل هذا الجهل من نوال شهادة العالمية بعد كونه من ذوى الوجاهة وله وسائل أقوى من الملكة والاستعداد

وإذا كان هذا حال العلم والتعليم بمصر وهذه درجته في الاختلال وكان على علاقته بمصر خيراً منه في سائر البقاع الاسلامية من الشام والغرب والعراق والهند وتركستان وبخارا وقازان والروم ايلي والاناطول فكيف ترى حالة العلم في البلاد الاسلامية . . وهل شئ يساويها اعتلالا واختلالا

ومجمل القول في علم التفسير انه مهجور بين الطلاب طلاب العلوم الشرعية في الممالك الاسلامية كلها وان من نظر منهم في كتاب من كتبه فنظرة من غير قصد أو بقصد لا يصحبه شئ من الاعتناء والاهتمام وعنايتهم بالدواوين الشرعية على انهم لا يتعاطون نظمه ولا يحسنونه لو تكلفوه فوق اعتنائهم بعلم التفسير اضعافا مضاعفة والذين يقرؤن شيئاً من كتب التفسير يشتغلون بكل شئ سوى التفسير فيضيع المقصود من الفن فيما بين تلك المباحث التي لها أول وليس لها آخر

والذي ينظر فيما طبع من نحو قرن في مصر وهي محط رحال العلوم الدينية وكعبة العلوم التي يفسد اليها الحجاج من جميع الآفاق

والقدوة لكافة أهل الامصار يرى العجب العجائب
 يرى ان الذي طبع منها الى الآن . تفسير الخازن . تفسير الجلالين
 بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل . البيضاوي بحاشية الشهاب . الكشاف
 بقطعة من حاشية السيد . تفسير فخر الدين الرازي . تفسير أبي السعود .
 تفسير النسفي . تاج التفاسير . ابن جرير الطبري طبع من نحو سنتين
 فقط . الدر المنثور للسيوطي . تفسير ابن عباس وبعض تفاسير ضئيلة
 هذه هي كتب التفاسير التي تداولها أيدي الناس اليوم وهي
 التي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله جل شأنه
 والوقوف على مراده منه

فأما تفسير الخازن وهو أكثر كتب التفاسير تداولاً وأعظمها
 انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية فهو الكتاب الذي يقف
 القلم حائراً عند وصفه لا يدري ما يقول فيه وما الذي يحذر به المسلمين
 منه وخير ما يقال فيه انه مجموعة الاكاذيب ولا أرى الا أن الانسان
 لو جرد ما فيه من الاكاذيب الموضوعه على لسان رسول الله صلى الله
 عليه وسلم والأقاصيص الكاذبة التي وضعها اليهود كقصه بابل
 والغرائق وارم ذات العماد وغيرها لكانت فوق نصف الكتاب وبعد
 ذلك فأشياء ان لم تضر لم تنفع

وهو على اشتهاه على هذين الوصفين الذين هما من أقبح أوصاف

المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين وأكثر طلبة العلوم الشرعية وأكثر انتشاراً بينهم . ولقد أرى ان نسخة التي نشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى ومن العجيب ان لا يوجد في علماء الاسلام من ينهي الناس عن نشر مثل هذه الكتب المفسدة للعلوم والشرائع المضرة بالاخلاق والعقائد وقد لا يخلو بلد من بلاد الاسلام عن قوم من أهل العلم ولو قليلين يعرفون ما في هذه الكتب من المفسد ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها بل ربما سألوا عنها فأنشروا عليها خيراً مسaire لا ميل العامة ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين وهذا البحث موعنا به ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد وانما غرضنا في هذا القسم النظر في طرق التعليم وكتب العلم المستعملة وبيان جيدها من رديئها

واما تفسير الجلالين بحاشيته الجمل والصابوي فهما يساويان تفسير الخازن انتشاراً وكثرة تداول الا أن انتشار الخازن بيد العوام أكثر وانتشار هذين بيد الخاصة نعتي طلاب العلوم الشرعية أكثر . فأما الشرح فهو غاية في الاختصار لا يمكن الاستقلال به في فهم كتاب الله تعالى مع علل فيه آخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير

المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها . وأما حاشيتهما الضخمتان فهما من مؤلفات متأخرى أهل العلم بمصر وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلفات

فصل ولقد كانت الحالة العلمية في البلاد الاسلامية وفي مصر بنوع أخص في درجة سيئة جداً ومن نظر في طبقات ذيك القرنين يرى أنكر النكر يرى أن مادة العلوم قد تلاشت حتى ما يحس لها أثر في الوجود وصورته قد مسخت الى أقبح صورة فما يكاد النظر يثبت فيها قبحاً واستنكاراً

ولقد سمعت شيخاً من خيرة أهل العلم بمصر وأكثرهم بصيرة بحالة العلوم غابرها وحاضرها يقول ان قدر ان يكون حال العلوم الشرعية في هذا الجيل كحالها في الجيلين السابقين فهو آخر أدوار العلوم الشرعية ثم يذهب الاسم كالمسمى فلا تبقى شيئاً مذكوراً

واما الكشاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشككة التي لا تحل اجمالاً واغلاقاً وغموضاً ولشدة عراقتهما في ذلك أكثر المتأخرين من تعليق الحواشي والشروح عليهما لبيان عباراتهما وتوضيح مقاصدهما حتى لو جمعت الحواشي والشروح التي عليهما لا ربت على ألف مجلدة وما ذكره صاحب كشف الظنون مما كتب عليهما قليل من كثير ولولا انهما بحيث يخفيان الا على من ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج

المخبات لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما والمبالغة في توضيح غوامضهما

وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرّة لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابهما وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين فإنه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً ويلحق تاج التفاسير بتفسير الجلالين ونسبته إليه كنسبة تفسير أبي السعود إلى تفسيري الكشاف والبيضاوي وإن اختلف عنه فيسيرا

وأما تفسير نخر الدين الرازي وهو كتاب العامة والخاصة ونعمدة الناس في هذا الموضوع فأبو حيان المفسر يقول في تفسيره تفسير الامام نخر الدين فيه كل شيء لا التفسير. وما أحسن ما ترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير بل البحر العميق ولقد يفتح الانسان جزءاً من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن تفسير آية من آي كتاب الله فلا يشعر إلا وقد توسط بحراً جلياً لا يخلص الانسان منه إلى ساحل. ويظهر مما كتبه الامام نخر الدين في مقدمة كتابه أنه قد أودع كتابه كثيراً مما لا تملك له بعلم تفسير كتاب الله ولا ارتباط له (١٢ - التعاليم)

فيه بوجه من الوجوه وإنما كان غرضه مما جمعه في تفسيره من هذه
المسائل الغريبة مع ان الكتاب في تفسير كتاب الله خاصة على ما يظهر
من كلامه في أول كتابه ان يبرهن على حقيقة ما قاله لبعض مناظريه
من ان كتاب الله جل ثناؤه وعلا سلطانه لا يمكن استقصاء ما فيه
من الاسرار ولا الاحاطة بما فيه من المعاني والحكم ولو كتب في ذلك
مآت من المجلدات وان فاتحة الكتاب يمكن ان يكتب فيها مجلد ضخيم
في أحكامها وأسرارها ومعانيها ولذلك وضع في تفسير الفاتحة مجلد
لرد ما أنكره المنكرون عليه وان كان لم يصنع شيئاً بالرد عليهم
بحشو كتابه بهذه المسائل التي ذكرها ولا ارتباط لها بتفسير كتاب
الله بوجه من الوجوه: وكل كلام مؤلف كلام الله أو غيره يمكن للعالم
ان يتوسع في الكتابة عليه الى مثل ما توسع به الامام فخر الدين في
تفسير كتاب الله

والمؤلف اذا أغمض عينه وتسامح في تأليفه وراعى المناسب
والمجاور ومجاوره استطال في يده جبل الكلام فلم يقف به عند حد
ولقد رأينا لمتأخر من متأخري المصريين يدعى السحيمي حاشية
على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع في أربع مجلدات
ضخام على ان الامير وهو أطول باعاً منه في علم الكلام وأدق نظراً
استوعب الكلام على شرح عبد السلام في مجلد صغير وكان في

قدرة السجيمي ان يضيف الى مجلداته الاربع اربعة آخر ولاكن رأى
ان الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ الى ما قصده من البرهان
على سعة اطلاعه

وجاء الآكوسبي من متأخري أهل العراق فأخذ تفسيره من
تفسير الامام فخر الدين الا أنه حذف منه كثيراً من الزوائد
وأضاف اليه وأحسن غاية الاحسان شيئاً من أقوال سلف المفسرين
ومتقدميهم وان لم يميز بين ما قوى سنده من هذه الأقاويل وما وهى
فبقي في الأمر بعض لبس واشكال وأضاف اليه أيضاً جملة كبيرة من
تفسير المتصوفة فلم يكتف رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي
تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم وتطبيقها على ما أدّتهم اليه
عقولهم منها عملاً بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل اذا
عارض العقل حتى يرجع الى العقل فأضاف الى ذلك تأويلات المتصوفة
التي صرفوا بها القرآن عن ظاهره الى معان لا تدل الالفاظ العربية
عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس فجاء كتابه جامعاً
للطرق الثلاثة طريقة السلف وطريقة المتكلمين وطريقة المتصوفة الا
ان طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتمييز صحيحها من
سقيمها ولذلك كان ككتب الحديث التي لا يبين فيها سند الحديث
وحال رجاله لاتقع الثقة به سيما اذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح

بينهما بوجه من وجوه الترجيح

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطي فقد زعم انه اختصر به على حسب عادته تفسير ابن جرير الذي جمع فيه صحاح الأحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى وبيان أسباب النزول وأضاف السيوطي في مختصره أحاديث واهية الاسناد في هذا الموضوع نفسه ومزجها بتلك الأحاديث الأصل فاختلطت بها حتى لا يمكن التمييز بينها وفلت الثقة في الجميع

وربما استبعد أحد ان يضع السيوطي في تفسيره الدر المنثور أحاديث واهية الاسناد أو موضوعة مع ماله من المؤلفات في موضوعات الأحاديث : فنقول ان من علم طريقة السيوطي في التأليف لم يستنكر هذا الذي قلناه وطريقته رحمه الله على ما علمنا من استقراء كتبه انه كلما وقع اليه كتاب من الكتب في أي فن من الفنون واستحسنه اختصره ونسبه الى نفسه بدون تمييز بين غث وThin ولا وقوف على حقائق العلوم ولذلك تراه مضطربا في كتبه لانه لا يحكم فكر نفسه وانما يحكم في كل كتاب فكر مؤلفه هو فيضيفه الى نفسه بعض تصرف يحدته في الكتاب

وان كنت قد قرأت في كتابه الذي سماه الجامع الصغير في أحاديث البشير النبوي وكتابه الذي سماه الآلي المصنوعة في الأحاديث

الموضوعة ورأيت في الجامع الصغير كثيراً من الاحاديث التي نص
في كتابه اللآلي على انها موضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه
وسلم لم تصح عنه بطريق من الطرق جازمت بصحة هذا الذي قلنا
وعلمت انه لا يؤلف وإنما يخلص كتب الناس وينسبها لنفسه

ولقد كان رحمه الله محافظاً على هذه الطريقة ملازماً لها لا يصدده
عنها صاد ولا يمنعها منها مانع ولا يرحم فيها مؤانفاً ولا يشفق على مؤلف
ولشدهما بالغ ياقوت في خطبة كتابه معجم البلدان^(١) في اللطف للسيوطي
وأمثاله وأكثر من الاسترحام لهم أولاً ثم تخويفهم ثانياً لتلايمسخوالة
كتابهم فقال... ولى على نافل هذا الكتاب والمستفيد منه ان لا يضع نصبي
ونصب نفسي له وتعبي بتبديد ما جمعت وتشتيت ما لفتت وتفريق ما تمم
محاسنه وتفي كل عاق نفيس عن معادنه ومكانه باقتضابه واختصاره
وتعطيل جيده من حليه وأنواره وغصبه اعلان فضله وأسراره قرب
راغب عن كلمة غيره مهالك عليها وزاهد في نكتة غيره مشغوف بها
ينضي الركب اليها فان اجبتني فقد بررتي جعلك الله من الابرار وان
خالفتني فقد عقتني والله حسبيك في عقي الدار ثم أعلم ان المختصر

(١) كتاب معجم البلدان هو الكتاب الوحيد في بابه وقد طبع في مصر الآن
على نفقة السيد محمد أمين الخانجي الكنتي وشركائه في عشر مجلدات وشكر آله
على ذلك نذكره هنا

لكتاب من أقدم على خلق سوي فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين
أبتر الرجلين أعمى العينين أصلم الأذنين أو من سلب امرأة حليها فتركها
عاطلاً أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً

فارق السيوطي لاستعطائه ولا رثى لبكائه ولا خاف عاقبة ما حذره
منه فاختصر كتاب معجم البلدان بكتاب سماه (مرصد الاطلاع على أسماء
الأمكنة والبقاع) اختصاراً فأحشأ تركه كقهررس لأسماء البلدان
والمواضع وجرده من كل الفوائد التي ملأ بها صاحب المعجم كتابه
كضبط أسماء البلدان وبيان معانيها وبيان اشتقاقها وذكر قسم من تاريخها
وآثارها وخواصها وعجائبها ومن فتحها من المسلمين وكيف كان فتحها
صالحاً أو عنوة ومن نسب إليها من أهل العلم والصلاح وما قيل فيها
من الأشعار فكان مختصر السيوطي خلواً من كل فائدة

وأشبهه الناس بالسيوطي في عصره ابن كمال باشا فقد كان رحمه الله
جداً ولو عاباً بانحلال الكتب العلمية إلا أن طريقته فيها غير طريقة السيوطي
وطريقته إصلاح كتب العلماء بتغيير عباراتها مع المحافظة على المعنى
والتجافي عن مواضع الاعتراض فيها والتنبيه على ما وقع من الخلل فيها
بحسب رأيه وفكره فله إصلاح الايضاح وإصلاح المفتاح وإصلاح
السراجية وإصلاح الهداية وغيرها من كتب الإصلاح التي كان يغنيه
عنها تعليقات قليلة على الكتب التي زعم أنه أصلها ولم يصنع شيئاً فيها

وصاحب الشقائق النعمانية يقول ومن المكثرين في التأليف في عهد السلطان سليم السيوطي بمصر وابن كمال باشا بديار الروم الا ان ابن كمال أدق نظراً من السيوطي وقد علمت شأنهما

وأما تفسير محي الدين فهو مسخ للقرآن ونقض للدين من أساسه ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محي الدين وإنما هو من مؤلفات القاشاني أحد الملاحدة الباطنية نسبة لمحي الدين ليروجه بين عوام المسلمين ومن يستमितون الى ما يقوله محي الدين مهما كان حاله والظن بمحي الدين أنه لا يضع مثل هذا الكتاب ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة في تفسير كتاب الله تعالى

وسواء كان من مؤلفات محي الدين أو غيره فان انتشاره بين المسلمين بحت ضرر سيما ولا موقف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب

وأما تفسير ابن عباس فهو من مؤلفات مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس وقد علمت مما ذكرناه في المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه وقلة ثقة العلماء بروايته

هذه كتب التفسير التي نقرأها اليوم وان كان قد فاتنا ذكر شيء منها فانه لا يخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي

ذكرناها فلم يبق بيدنا ما يصح الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن
جرير وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الاسلامية بعد قرن وأكث من
ظهور المطابع في الممالك الاسلامية ولولا ان بعض أمراء الاعراب من
سكان الجزيرة العربية راسل بعض تجار الكتب بمصر في شأنه وأعانه
على ذلك بمساعدات جليلة لم يظهر له ظل في عالم المطبوعات اكتفاء
عنه بالخازن والجمل

وان أردت معرفة تفاسير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين
وعلماء القرن الثالث فارجع الى ما كتبناه في المقدمة على هذا العلم فقد
بسطنا هناك مؤلفات القرون الثلاثة والباحث عليها ان لم يجدها كلها
وجد منها ما يكفي لحاجة الناس

﴿ خاتمة واعذار ﴾

لا يظن ظان أننا نريد بما كتبناه انتقاص أحد من العلماء حاشا
لله وانما الغرض بيان ان هذه المؤلفات التي نتداولها قاطعة لنا عن
العلوم الاسلامية وان ضرورة المحافظة على الدين تقضى علينا باختيار
الكتب النافعة فكل ما نذكره فانما الغرض منه تمحيص الحقيقة
والتماس الأنفع لنا في علوم ديننا وهذا عذرنا في كل ما نسطره عن هذه
المؤلفات التي ابتلينا بها اليوم وابتليت بنا فما نجد الى غيرها ولا نجد
الى غيرنا سبيلا

﴿ علم المنطق ﴾

قالوا الغرض من هذا العلم عصمة الذهن عن الخطأ في الفكر والمراد بالفكر المعلومات التي يتوصل بها الى المجهولات فهو الميزان الذي يعرف به صحيح الفكر من سقيمته ولذلك سماه بعضهم الميزان ولولاه لم يعرف من قضايا العقول حق من باطل ولا صواب من خطأ .. وذكروا في بيان الحاجة اليه ان العلوم ليست كلها تدرك ببديهية العقل ولا كلها نظرية يتوقف تصورهما أو الحكم بوجودهما على دلائل وأنظار وإنما بعضها يتوقف على ذلك وبعضها يدرك بالبديهية ثم القسم الذي يتوقف على الدليل إنما يعلم بواسطة ترتيب المقدمات وهذا الترتيب ان لم يكن على قانون مخصوص لم يؤمن الخطأ فيه فكانت الحاجة ماسة الى قانون يعرف به صحيح هذا الترتيب من فاسده وهو المنطق

واتفق القائلون بحله على ان حكمه الفرضية واختلفوا في انه فرض عين أو كفاية والأكثر على انه فرض عين : قالوا في بيان ذلك ان هذا العلم يتوقف عليه علم التوحيد الواجب اجماعاً والمنطق وسيلة اليه وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب أما انه وسيلة لعلم التوحيد فلأن علم التوحيد لا بد وان تكون دلائل مسائله عقلية والدلائل العقلية

لا تعلم صحتها الا بعرضها على الميزان المنطقي فما قبله منها قبل وما رده
 رفض وترك فكان علم التوحيد متوقفا على المنطق ولذلك صدر
 بعض المتأخرين كتبهم الكلامية بالمنطق وأما أن ما يتوقف عليه
 الواجب فهو واجب فذلك بين لا يحتاج الى بيان

هذه مقالاتهم في حكم علم المنطق من الوجهة الشرعية وتلك مقالاتهم

في حاجة الناس اليه التي تدعوهم للاشتغال به والالتفات اليه

أما نحن ففري ان هذا الفن لا حاجة اليه بوجه من الوجوه

وان الاشتغال به ضرب من العبث واشغال للنفس بتعلم ما لا ثمرة لها

فيه وان حكمه انه يجب وجوبا عقليا ترك الاشتغال به حرصا على

صرف العمر فيما لا خير فيه في دنيا ولا آخرة وانا أئين ذلك بيانا شافيا

يرفع كل نزاع واختلاف ثم أنقل من كلام أئمة هذا الفن ما يشهد لنا

بصحة هذا الذي قلناه فنقول: تتوقف صحة الدليل وكونه موصلا الى

المدلول على أمرين: الاول ان تكون المادة التي ركب منها الدليل

صحيحة غير فاسدة فان كانت فاسدة في أصلها كانت النتيجة التي تفضى

اليها فاسدة أيضا فان النتائج تتبع المقدمات فانها بناتها فعلى أى صفة

كانت أمهاتها كانت هي: الأمر الثاني وهو أضعف الأمرين واكلهما

حاجة اليه ان تكون المقدمات التي ركب منها الدليل مؤلفة تأليفا

مخصوصا على الطريقة المبينة في كتب المنطق في بحث الاقوال

الشارحة والقضايا فاذا اختل نظام تركيبها فلم توافق صورة من الصور
 التي بينها المنطقيون في كتبهم لم تنتج إنتاجا حسنا يفيد فائدة صحيحة
 وانما قلنا ان هذا أضعف الأمرين وأقلهما حاجة اليه لأن من
 حضرت في نفسه مقدمات الدليل على شئ من العلوم وكانت تلك
 المقدمات صحيحة أمكنه ان يصل بها الى نتائجها الصحيحة أيضاً وان
 لم يلاحظ قواعد ترتيب أجزاء المقدمات كما كان الناس قبل ان يترجم
 هذا الفن من اليونانية الى العربية يبحثون وينظرون ويستدلون على
 ثبوت أشياء وبطلان أخرى: فان قالوا ان الفطرة قامت عندهم مقام
 قراءة هذا الفن ومعرفة اصطلاحاته وقواعده فقد كفونا مؤنة
 الاستدلال على ان هذا الفن لا حاجة اليه ولا فائدة في تعلمه
 اذا علمت ان صحة الدليل وكونه موصلا الى مدلوله يتوقف أولاً
 على كون المقدمات صحيحة وثانياً على كونها مؤلفة تأليفاً مخصوصاً
 فاعلم ان المنطق انما يبحث عن الأمر الثاني وهو كيفية ترتيب أجزاء
 الدليل تعريفياً كان أو برهاناً فبين فيه ما يلزم في التعاريف من تقديم
 الاجناس على الفصول أو كل أعم على ما هو أخص منه وفي القياس
 ما يلزم من موافقته لأحد الأشكال الأربعة ولم يبين فيه أجزاء التعاريف
 والأقيسة التي هي صحيحة مقبولة فاذا ألفت تأليفاً موافقاً للميزان
 كانت منتجة إنتاجاً حسناً

نعم ان المنطق يبحث عن أجزاء التعاريف وعن مقدمات الدليل
 فيبين الحد التام والحد الناقص والرسم التام والرسم الناقص ويعرف
 الاجناس والفصول والانواع والاعراض الخاصة والاعراض العامة
 ويبين في القياس ما كانت مقدماته يقينية أو ظنية خطافية أو
 شعرية ويذكر ما يفيد منها اليقين وما لا يفيد الا الظن وما لا يفيد
 أصلاً الا أنه بين كل ذلك بنوع اجمال وترك التفاصيل الى المـعرف
 والمستدل ومن هنا نشأ الغلط وكثر الخبط فانا اذا حاولنا الاستدلال
 على بعض المطالب العلمية وربنا لذلك دليلاً فمن أين لنا ان نعرف ان
 مقدمات هذا الدليل يقينية حتى تكون النتيجة يقينية ونحن نعلم
 ماهية اليقيني ولكن جزئيات هذا اليقيني ليس لها علامات محسوسة
 تميزها من غيرها فلا تشبه بها وانما تميزها بعلامات عقلية بحته والعقل
 مستور بحجاب العادات والأوهام وفيه قصور عن ادراك كل الحقائق
 فربما مر عليه ان هذه المقدمة يقينية غلطاً أو لكونه أعتادها أو لأن
 الوهم صورها له يقينية فما الذي يفيد الناظر هنا معرفته بالمنطق

فصل: وأنت اذا نظرت الى المناطقة في كتبهم الفلسفية
 والكلامية رأيت بينهم اختلافات هائلة ورأيت كل واحد منهم يحيل
 ما يوجبه الآخر وكل واحد منهم من الراسخين في المنطق وله فيه
 كتب ومقالته مؤيدة منه ببراہین من كبة علي هيئة براہین كتب

الميزان وأحد المختلفين غالط ولا محالة وربما كانا كليهما غالطين فمن
 أين عرض لهما أو لأحدهما الغلط مع معرفتهما بالمنطق معرفة تامة
 لا تضارعهما معرفتنا بقواعده إذا كان المنطق يعصم الذهن عن الخطأ
 في الاستدلال كما يزعمون: بل نرى ان الواحد من هؤلاء قد يقول
 مقالة ويقيم عليها ما شاء الله أن يقيم من الدلائل وينصب لها البراهين
 ويزعم انها ضرورية لا تقبل النزاع والاختلاف ثم تراه في كتاب
 آخر من كتبه أو في موضع آخر من كتابه ذلك قد نقض مقالته
 وأفسد مقدمات أدلتها بعد ان كان يزعم انها بديهية يقينية وهو في
 أحد قولييه غالط أو في كليهما والميزان عنده حاضر فان كان هذا
 الميزان يميز بين صواب وخطأ كما يزعمون فلم اضطربوا كل هذا
 الاضطراب واختلفوا كل هذا الاختلاف وتناقضوا كل هذا التناقض
 هذا شيخ الاسلام أبو حامد الغزالي ومؤلفاته في المنطق لا تخفى
 كثرة وهو القائل ان من لا معرفة له بالمنطق فلا ثقة بعلمه لو جمعت
 بين مؤلفين من مؤلفاته في الفلسفة والكلام تراه ينقض في كل
 واحد منها ما أثبتته في الأول وبرهن عليه وهو على كثرة معرفته
 بالميزان لم يستقم له وزن في العلوم التي جعل المنطق وسيلة لها: وهذا
 نخر الدين الرازي على توسعه في فن المنطق وانفراده فيه بأقوال خالف
 فيها أهل الوضع كتبه أيضاً في الفلسفة والكلام مضطربة جداً لا يكاد

يوافق بعضها بعضاً .. ولقد رأيت في شرح اشارات الشيخ الرئيس
أبي علي الحسين بن سينا مال في النمط الأول الى ترجيح قول الفلاسفة
بابطال الجزء الذي لا يتجزى وفي النمط الخامس من الكتاب المذكور
رجح قول المتكلمين بوجود الجزء الذي لا يتجزى وفي النمط الثامن
تخير وتوقف وقال ان أدلة الفريقين متكافئة لا يمكن ترجيح شيء
منها: وحاشا لله ان يتكافأ الحق والباطل وانما احتكموا الى العقل فيما
لا مدخل له فيه فقام الوهم ينقض ويبرم

وهكذا تجده في بقية مؤلفاته لا يستقر على حال من القلق ثم
رأى في آخر عمره ان المسالك التي سلكها كبقية إخوانه المتكلمين
لا تروى غليلا ولا تشفي عيلا فترك ذلك كله ورجع في العقائد الى
ظاهر القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيمر بك نقل عبارته
عند الكلام على العقائد

فلو ان المنطق كما يزعمون ميزان للافكار يعرف به جيدها من
رديتها لم يضطرب أئمة المنطق ومدونو كتبه في أفكارهم كل هذا
الاضطراب ولم يتناقضوا كل هذا التناقض ويبد كل واحد منهم ميزان
لا يختلف عن الميزان الذي بيد الآخر .. فان قال قائل ان الميزان في
ذاته صحيح ولكن الصنجات التي يوزن بها في هذا الميزان وهي العقول
متفاوتة فمن هنا جاء الاختلاف: قلنا هذا صدق ومقبول ولكن أي

خير في ميزان ليس له صنجات معلومة المقادير يوزن فيه بواسطتها
 أو ليس وجود مثل هذا الميزان وعدمه سواء: ثم ان أصل دعوى
 المتمسكين بهذا الفن انه ميزان للافكار أى انه الذى يميز بين جيدها
 ورديثها واذا كانت الافكار معيارات يوزن فيه بواسطتها فكيف
 تكون موزونة به... فان قيل ان بعضها معيار وبعضها موزون قلنا يلزمكم
 ان تفرقوا لنا بين ما هو معيار وما هو موزون فان قيل ان المعيار
 المعلومات من الافكار والموزون المجهول منها قلنا هذا المعلوم الذى
 جعلتموه معيارا هل تعنون به أى معلوم كان صوابا كان أو خطأ أو
 تعنون به ما كان معلوما على وجه صواب فان قلتم انما نعنى به ما كان
 معلوما على وجه صواب قلنا ومن أين لنا ولكم علم هذا وأى ميزان
 يعرفنا ذلك فقد جعلتم هذه المعلومات من الموزونات وأصل دعواكم
 انها من المعايير: فان قلتم انها مبينة في علم آخر قلنا المنطق آلة العلوم
 العقلية كلها فلا يصح ان يتوقف على غيره ثم أى علم هو وما هى
 كتبه المدونة فيه

فصل . والشيخ الرئيس أبو على الحسين بن سينا يقول في منطق
 الشفاء في بحث الاقوال الشارحة ان التمييز بين الفصول والخواص
 أمر في غاية العسر بل ربما لم يمكن الوصول اليه في أكثر الحقائق
 لاشتباه أحدهما بالآخر وعدم الفارق الذى يمكن الرجوع اليه في

تمييز أحدهما عن الآخر

وإذا كان كذلك فقد بطل الوثوق بالاقوال الشارحة جملة لأن التعاريف المعرفة للحقيقة والمبينة لكنه الذات هي التي تركبت من الاجناس والفصول وإذا اشتبهت الفصول بالخواص واختلطت اختلاطاً لا يكاد يمكن التمييز بينها لم يعد في الوسع الوصول الى حقيقة شئ من الاشياء ولا ماهيته التي كان بها قوامه

والغزالي أبو حامد يقول في كتابه محك النظر الذي ألفه في المنطق ان العمدة في البراهين على اليقينيات التي توافق الواقع ولا تخالفه ولكن الوصول الى اليقينيات ضرب من المحال مع غلبة الاوهام والعادات على العقل وسترها له عن مشاهدة نور الحقيقة

فان صح هذا الذي قاله أبو حامد وهو صحيح فقد ارتفع الوثوق بالاقيسة والبراهين وهي الشق الثاني للمنطق لان المقدمات اذا كانت انما تكون مفيدة علماً صحيحاً اذا كانت مقدماتها يقينية واليقينيات لا يمكن وصول العقل اليها لكونه مستوراً عنها كما يقول أبو حامد بحجاب الأوهام والعادات لم يمكن الوصول بها الى شئ يوثق به ويرتكن اليه ولسنا ننكر امكان الاستدلال على بعض المجهولات ببعض المعلومات بل هذا ممكن في ذاته وواقع في الخارج وانما ندعى ان هذا الفن الذي زعموه ميزان الافكار قليل الجدوى في هذا الباب جداً

لأنه ميزان صور الأدلة والعمدة في الأدلة على موادها التي ألفت منها
لا على صورها وقد حققنا ذلك والحمد لله

فصل: ونحن إنما جعلنا كتابنا هذا في بيان كتب العلم واصلاح
طرق التعليم ومن جملة ذلك تمييز العلوم النافعة التي لها نتائج حسنة
من التي لا خير فيها فإنا الغرض لنا من هذا كله النظر في حالة طلبه
العلوم الشرعية وصرف وجوههم الى ما فيه صلاح لهم ولا متهم في
أمر دينهم وديارهم وصرفهم عن الاشتغال بما لا يفيدهم ولا يفيد
أمتهم من العلوم وبما هو قاطع لهم عن الحصول على العلوم النافعة من
الكتب السافلة الرديئة الساقطة فلا يظن ظان أننا خرجنا عن الموضوع
الذي جعلنا أس كتابنا هذا عليه

فصل .. وكل المشتغلين بهذا الفن من أهل هذا العصر يعلمون
من أنفسهم أنهم لم يحصلوا منه على طائل ولن يحصلوا ولو أن لدينا انصافا
واطراحا للعادات والتقليد لكفينا مؤنة البحث والاستدلال على هذه
الحقيقة المشهودة واكتفينا بالإشارة اليها بأدنى إشارة ولكننا قوم
تعرف قلوبنا وتكذب ألسنتنا وأفعالنا .. فأنت لو سألت أحدا ممن
يشتغل بهذا الفن عن فوائده التي تقصد من تعلمه لجمع لك فيها بين
خيرى الدنيا والآخرة ولو سألته عما حصل له من فوائدها لتوقف
ولم يجب بشيء

فما أشبه حال هؤلاء الناس بحال رجال الكيمياء تسمع منهم
 عن هذه الصنعة ما يخيل لك أنهم لو أرادوا قلب الجبال ذهباً لفعلوها ثم
 هم مع هذا العلم الشريف والصنعة العجيبة أفقر الناس وأسوأهم حالاً
 وأنكدهم عيشاً وأتعيبهم بالاً ولو أنك جادلت أحدهم الليل والنهار على
 أن هذه الصنعة باطلة لا أصل لها وإن الذهب أو الفضة لا يمكن أن
 يحصل من معدن آخر لم تقنعه فإن سألته عن السبب في عدم حصوله
 منها على طائل أعتل بعلل لا تقنع إلا فكره السافل فهو يكذب عقله
 وحسه وتجربته واختباره ويركن إلى كتاب لا يعلم من هو مؤلفه ولا
 غرضه من تأليفه ذلك

هذا ونحن نعلم أننا لو أملينا الوفا من المجلدات في بيان أن علم
 المنطق علم لا فائدة فيه وإن الاشتغال به ضرب من العبث وقام ابن
 سينا من قبره يشهد لنا بذلك ويقرر على الناس أنه لم يستفد مما قرأ
 وكتب في المنطق فائدة في عقيدته ولا في طبيعياته ولا في طبه وإنما
 جذبه التيار العام إلى تعلمها والتأليف فيها كما جذبتنا تقليد من سلف من
 أمثالنا من طلبة العلوم إلى الاشتغال بها وإن كنا لا نرى لها نتيجة
 نحمد لها غيب هذا السرى الطويل لم نبلغ بكلامنا قلوبهم لأن عليها
 من التقليد وآباء العادات أغشية تحول بينها وبين كل ما يلقي إليها
 من وعظ وارشاد

ثم ان هذا الفن ليس من العلوم الاسلامية فتلزمنا المحافظة عليه
وانما هو من وضع اليونان ثم ترجم في زمن المأءون كما سبق ذكره في
التمهيد فضياعه وبقاؤه علينا سيان

ولدينا من العلوم ما هو أهم منه نخير من صرف الاوقات الثمينة
في تفهم هذه الاصطلاحات التي لا فائدة وراء تعلمها تعلم تلك العلوم
الشرعية التي قد أهملت وصارت نسياً منسياً أو العلوم المادية التي فقد
الاسلام بفقدها أهم خصال الشرف والسؤدد

ونعني بهذا الذي نصفه بانه أهم خصال الشرف والسؤدد علم
جلب الغنى والثروة لأن الغنى اذا تجردت عنه أمة من الأمم جردت
عن كل أوصاف الشرف وسلبت جميع سمة الكمال وألصق بها كل شر
وأضيف اليها كل قبيح وان لم تكن على مثل ما تصفها به الامم الأخرى
أو بعض أفراد تلك الأمة

وحال الأمم كحال الافراد فكما ان أفراد الناس يقع التفاضل
العام بينهم في الغنى والثروة فهما كان الانسان غنياً كان عند الناس محبوباً
مبجلاً محترماً تضاف اليه كل فضيلة وان لم يكن متصفاً بها وينزه عن
كل رذيلة وان كان في أخلاقه بعضها أو كلها والضد بالضد

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المعدم الهبل
وانما قلنا ان التفاضل العام يقع بينهم في الغنى لأن التفاضل

بالمزايا الفاضلة والاخلاق الكاملة انما يقع عند نفر قليل من الناس
هم بالنسبة الى غيرهم كالعدم اذا نسب الى الوجود

فكذلك الأمم انما يقع التفاضل بينها بالغنى فهما كانت الامم
غنية واسعة الثروة كانت معظمة بمجلة موقرة صرية الجانب عند بقية
الأمم مشهوداً لها بالكمال معترفاً لها بالفضل وان لم تكن على شئ
من هذه المزايا مسلوباً عنها ما يشينها وان كانت مغموسة فيه عاطلة
من كل حلي الكمال وان كانت فقيرة كانت على ضد ذلك وان لم يكن
لها من أخلاقها ما يحط من كرامتها ويشينها

والسر في ذلك ان النفوس مطبوعة على حب الاستئثار بالمنافع
المادية والمعنوية فكل نفس تحرص ان يكون كل ما في هذا العالم مما جعل
الله النفوس شركاء فيه تحت يدها وفي قبضة تصرفها لا ينازعها فيه
منازع ولا يشاركها فيه مشارك وكذلك الاخلاق الشريفة والمزايا
الكاملة تحب ان تضاف اليها دون غيرها وان تخص بها فلا يشرك
غيرها معها فيها .. وكل نفس من هذه النفوس تبذل قصارى جهدها
في الوصول الى هذه الأمنية لاتي فيه أبداً ولا تألو في تحصيله
جهداً وكل واحدة منها يحصل لها منه على قدر طلبها وبحسب
استعدادها وهذا هو الذي يسمى المعترك الحيوى

ولا تجدهم نفساً ترضى ان ينال غيرها من هذه المنافع شيئاً أو ان

يستبد دونها بشيء من تلك المزايا وترى كأن كل ما يعلق بالنفوس الأخر من المنافع المادية والمزايا الفاضلة هو حقها قد غصب منها وسلبته بقوة تخالف الشرف والانصاف فهي تحرص على سلبه ممن ترى أنه سلبها إياه ولن ترضى بتركه وتخضع للمشاركة في المنافع والمزايا إلا إذا رأت أمامها قوة تقهرها فتكف حينئذ محافظة على ما بيدها من تلك المنافع لا تسامحها منها فيما بيد غيرها منها

إذا فالنفوس إنما تعترف لبعضها في حق المشاركة في المنافع والمزايا إذا كان في المعترف له قوة قاهرة لا توجد في المعترف وكان المعترف يتوقع منه لو نازعه غلبته على ما في يده منها .. فشكل ذي قوة معترف له باستحقاق ما يدعيه لنفسه من المنافع والمزايا وإن كان لا يستحقها والتفاضل بالقوى .. والقوة مادية وهي قوة الجسم ومعنوية وهي قوة المال والغنى فإذا كان لإنسان هاتان القوتان خضع له من كان له أحدهما فقط واعترف له بكل ما في يديه وما يدعيه لنفسه وإن كان مبطلا في دعواه ومن كان له واحدة منهما خضع له من ليس له شيء منهما محافظة على ما تحت يده من المنافع ورجاء أن يناله منها شيء آخر بواسطة ذلك القوى

ونمثل هذا الذي ذكرناه في شخصين أحدهما قوى الجسم والثاني ضعيفه ولا ناصر لهذا الضعيف يرد عنه صولة القوى أو أحدهما

غنى والثانى فقير ترى ان الضعيف من كل منهما يعترف للقوي بكثير
من الحقوق والمزايا التي لا يستحقها ولا هو متصف بها بل ربما سلب
نفسه شيئاً من مزاياها ومنحه اياها كل ذلك محافظة على ما بيده
من تلك المنافع

ونفوس الأمم كنفوس الافراد والاعراض واحدة في الكل
فكل ما قلناه في نفوس الافراد يقال مثله في نفوس الأمم سواء
بسواء لا تفارق هذه تلك في شيء أبداً . . فاي أمة توفر لديها قوة
المال والجسم وقوة جسم الأمم العصبية غلبت على من دونها واعترف
لها كل من لا يساويها من الأمم في هاتين القوتين بالمنافع والمزايا
وجعلوا لها ما ليس لها بحق ونعتوها بما ليس من نعوتها

وان أردت اليقين في ان الفضل تابع للقوة وجوداً وعدمًا فاعتبر
هذا في رجل طعن في السن فتلاشت قواه الجسمية أو أصابه مرض
فانهكه أو رجل كان غنياً فافتقر بسبب من الاسباب التي تفرق بها
الثروات ترى ان من كان يألفه ويتودد اليه ويؤثره على نفسه في
المادى والمعنوى من المزايا انقلب عليه وقلب له ظهر المحن فسلبه كثيراً
من مزاياه الحقيقية بعد ان كان يعترف له بما ليس فيه ولا هو من
نعوته وقد يكون هذا الذي نزل به ليس من صنعه ولا له مدخل فيه
حتى يجعل هو من ذنبه

وكذلك الأمم اذا سقطت واحدة منها بسقوط عصبيتها أو
ماليتها تبادرتها الأمم فما أبتت عليها ولا أتقتها بعد ان كانت تجلبها
وتحترمها وتخافها وتحامها وقول الخاصة الحق للقوة وقول العامة
(البقرة اذا وقعت كثرت سكاكينها) يلم بهذا الذي قلناه

فالعصبية والمال أصل حياة الامم فهما اشتدت عصبية أمة من
الأمم واستحكمت أو اصرها وتوثقت عراها ووفرت ماليتها باتساع
تجارتها ونمو زراعتها كان مركزها بين بقية الامم مهيبا ولم يمتد إليها
نظر ناظر ولا تعلق بها طامع طامع ولذلك يقول ابن خلدون في مقدمة
كتابه ديوان العبر ما معناه .. ان قيام الدول يحتاج أول ما يحتاج الى
عصبية فكلما قويت عصبية الملك كانت دعائم ملكه أرسخ وأقوى
وأقدر على دفع صدمات المهاجمين الذين يسعون في نقضها فاذا ثبتت
وقامت احتاجت الى المال لتحصين الثغور واقامة المسالخ وبناء
الحصون وتشديد القلاع وترتيب الجند وتفريق العمال في الاصقاع
لجباية الخراج ورفع المظالم الى آخر ما ذكره

هذا رأينا في نفاضل الامم ونحن لا نرتاب في ان المخالف لنا
أكثر من الموافق من سائر الطبقات ولكن لا علينا ان خالفنا الناس
أجمع بعد ان تكون حوادث التاريخ شاهدة لنا على حقيقة ما ذهبنا
إليه من ان التفاضل بالقوة بقسميها

ظهر الاسلام غريباً بين طوائف اليهود وجاهير النصارى
 والمجوس الاعاجم وكتائب الوثنيين من العرب ففته كل فريق وعاداه
 أهل كل ملة فما زالت عصبية تقوى وتتضاعف وعصبية غيره تضعف
 وتلاشى حتى ظهر عليها كلها وخضعت بحملتها لقاهر سلطانه فدخل
 منهم قوم فيما رأوا من باهر آياته وواضح بيناته ولزم آخرون
 ما كانوا عليه وأقروا له بالسلطة ورضخوا له بما أوجب عليهم أداءه اليه
 ولم يكن في الامم التي دوخها الاسلام ووهن بنيانها وقهر سلطانها أمة
 تساويه في البداوة غير الوثنيين من سكان الجزيرة ويقرب منهم يهودها
 وما سوى هؤلاء من الامم من أروام واقباط وأفرنج وأعاجم فقد
 كانوا كلهم أرقى من المسلمين مدنية وحضارة فكانت العلوم عندهم
 موفورة وباب الانتفاع بها واسع لكن قوة العصبية لا يثبت امامها
 شئ من القوى ويتلاشى امامها كل شئ فلما انقلبت هذه العصبية وماتت
 فيهم وانقلبوا على بعضهم كانوا قد اتسعت ثروتهم وفشت فيهم الصناعات
 والتجارات والزراعة فحفظ ذلك لهم مركزهم بين بقية الامم
 وتساووا مع غيرهم فصاروا يدولون مرة ويدال عليهم مرات لضعف
 عصبيتهم وقوة عصبية غيرهم ثم مالوا الى السكون وأخذوا الى
 الراحة فضاعت من أيديهم قوة المال أيضاً فتداعى بنيان عزمهم
 ومجدهم وطمع فيهم من كان يخافهم وما زال حالهم يتسفل حتى صاروا

الى ما ترى من الهوان على سائر الامم

ولما لم يبق لديهم من القوى ما يدفعون به عن حوزتهم ويزودون به عن زمارهم ولا خير يرتجى ولا بأس يتق تسلمت عليهم بقية الامم وزاحمهم على البقية الباقية في أيديهم من منقول وقار بطرق تنازع البقاء وحب الاستئثار بالمنافع وجردهم عن الكمالات التي هي في سجايهم وأخلاقهم وطبائعهم بعد أن كانوا يعترفون لهم بما ليس لهم من المزايا ويسلمون لهم ما ليس لهم من الحقوق

ولو اننا بحثنا عن ذنوب المسلمين لم نجد لهم ذنباً غير أنهم أصبحوا أمة فقيرة منحلة قد فقدت كل الاسباب التي تحفظ لها كرامتها بين بقية الأمم وتمنعهم من التطاول عليها والتحرش بها. والناس لا يشكرون عليهم هذا فقط وانما ينسبون لهم كل عيب ويجردونهم عن كل كمال على أننا لو نظرنا الى سائر الاوصاف والعيور التي تعرض للامم لو وجدناهم يساؤون بقية الامم فيها

فما من فضيلة توجد في أمة من الامم الا وهي موجودة في المسلمين بنسبة وجودها في الأمم الاخر لا تنقص عنها ولا كقدر ذرة وربما كان وجودها فيهم أكثر كمية وأقوى كيفية لتوفر الدواعي اليها من العقل والدين وما من رزية توجد في المسلمين الا وهي موجودة في الأمم الاخر بنسبة وجودها في المسلمين وربما كان

(١٥ - التعليم)

وجودها في غيرهم أكثر لضعف الوازع عنها عندهم : ونحن لو بسطنا صفات الكمال واحدة واحدة وسألنا المنصف ان يذكر لنا أي صفة من هذه الصفات تجرد عنها المسلمون لم يجدوا واحدة يقال انهم قد تجردوا عنها حتى ما تكاد توجد فيهم ولم يسعه اذا أمعن النظر وحقق الأمر أن يدعي أن وجودها في غير المسلمين أكثر بل ربما ظهر له انها فيهم أكثر وارتباطهم بها أشد كما اننا لو بسطنا صفات النقائص وسألنا المنصف أن يذكر لنا أي صفة انفرد بها المسلمون دون غيرهم من سائر الأمم أو انهم أكثر ارتباطاً بها وتعلقاً فيها لم يستطع ان يذكر شيئاً فان الواقع على خلاف ذلك وقلة التأمل هي التي ادت الى هذا الغلط فليس في الحقيقة من ذنب لهم سوى انهم فقراء أفذاذ لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم ولو كانوا ذوي ثروة واسعة كالتي في يد غيرهم ولهم روابط تربط أقصاهم بأدناهم كما لغيرهم من الأمم لم ينلهم من هذا الاضطهاد شيء والغنى محبب الى النفوس والغنى محبوب ولو انك نظرت الى دول الارض لوجدت فيها دولاً لا ترتفع في أخلاقها وعاداتها وأحكامها ونظاماتها عن قبائل البربر في صحارى أفريقيا ولكنهم مع هذا الحال مبجلون موقرون برغم أنوف المتمدنين لأن لديهم من قوى العصبية والمال ما يطؤون به على أنوف من يناوئهم ويطمع فيهم أو ينظر اليهم نظرة

فان كان غرض أصحاب الافكار الذين وقفوا أنفسهم وأقلامهم
لخدمة اخوانهم المسلمين من المعارف التي يحثون دائماً على تعلمها
ويتألمون من كساد سوقها بين ظهر ايننا المعارف العملية التي هي ينابيع
الثروات فهم مصيبون وان كان الغرض هذه العلوم الفكرية التي
لا تتجاوز نتائجها أفكار متعلميها كأكثر ما يقرأ في المدارس الاسلامية
من المدارس الشرعية والنظامية فشر هذه أكثر من خيرها وضررها
أكثر من نفعها ولئن أكثر عدد هذه المدارس وزاد على ما هو عليه
الآن فلا بد وان يصير المعول أكثر من العائل وتتضاعف البليات
والإحـن ببقاء أكثر أهل البلاد بلا شغل ينالون به قوتهم ونحن
اليوم الى أرجل متحركة في العمل والكسب أحوج منا الى أدمغة
متخيلة والداخل الى بلاد الاسلام أكثر من الخارج منها فان لم يوجد
طريق للتوازن بينهما فما أقرب ما نرى أنفسنا وليس عندنا من شيء
نتوسل به الى القوت غير قوانا الجسمية نهكها في الخدمة للحصول
على القوت اليومي

وفي الممالك الاسلامية أكثر من مليوني طالب علم منهم طلاب
العلوم الشرعية ومنهم تلامذة المدارس النظامية وليس فيهم مائة نفر
يشتغلون بتلقى العلوم الصناعية أفليس لو اعتيـض عن نصف هذا المبلغ
من الطلاب فصرف الى تعلم هذه العلوم الصناعية التي هي ينابيع

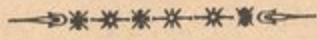
الثروة في كل عصر حتى اذا اتقنوها عملوا بها بمساعدة وجهاء البلاد
 وأهل الثروة فحفظوا خيرات بلادهم التي يشتريها الغريب الغربي
 منهم بالقنطار وبيعهم اياها بالدرهم لانفسهم كان خيراً لنا من ان يشتغل
 هذا الجم الغفير من الناس في علوم أكثرها لا خير فيه وليس هو
 من علوم الدنيا ولا من علوم الآخرة .. أليس في الايام الحاضرة من
 الادلة الحسية ما يدل على ان أكثر هذه العلوم ليست في شيء من
 أمور الدنيا والآخرة .. أيرى الناس ان عدد أهل البطالة الذين
 قضاوا مآسر من سني حياتهم وسيقضون الباقي عالة على أهلهم قليل
 فهم يزيدون فيه كل يوم مئات وهل في وسع الحكومات ان ترزقنا
 كلنا عن آخرنا : اللهم قد عظم الخطب واشتد الكرب ولم يبق في
 قوس التصبر منزع فوفق ساداتنا وكبراءنا وخاصتنا لصرف وجوهنا
 نحو سعادتنا انك علي ما تشاء منا ومنهمقدير رجع

وان كان ولا بد لطلبة العلوم الشرعية من تعلم هذا الفن والاشتغال
 به كما هو الظن بهم فخير من حاشية الباجوري على السلم وحاشيتي
 العطار والحفني على شرح ايساغوجي وحاشية العطار وابن سعيد على
 الخبيصي التي يقرأها أهل مصر وأهل الغرب ومن حواشي ايساغوجي
 التي يتعاطاها الاتراك والتي لا يكاد يحصرها العد ومن حواشي القطب
 لوامع الهدى ونور الهدى وحواشي سلم العلوم التي يتعاطاها طلاب

العلوم الهنديون محك النظر للغزالي أو ما هو في حجمه وسهولة ترا كيبه
 وقرب معانيه من كتب متقدمى المناطقة ثم البصائر النصيرية التى سعى
 بنشرها منذ سنوات مفتى مصر السابق المرحوم الشيخ محمد عبده ثم
 منطق الشفاء للشيخ الرئيس فان هذه الكتب على كونها لا تساوى
 فى الحجم حاشية من حواشي تلك الكتب فالعلم موجود فيها برمته
 وهى خالية عن الحشو وسقط الكلام من اعتراض وجواب والذي يريد
 ان يحصل على قواعد هذا الفن يمكنه ان يأخذها من هذه الكتب ان
 وفق الله له المعلم الناصح فى زمن يسير فأما من يريد الشغب والنزاع
 من غير طائل ولا جدوى فلن يجد فى هذه الكتب أمينته

فان قالوا (وهو اعتراض أورده علينا بعض شيوخ الازهر)
 ان كتب المتأخرين أخصر وأجمع وتناول العلم منها أقرب . . قلنا ان
 سلمنا لكم ذلك فلا نزال نقول ان تركها لازم جداً فان هذه المختصرات
 من مؤلفات المتأخرين التى قلم انها أخصر وأجمع من مؤلفات
 المتقدمين ان كلفتم قراءتها وحدها قلم انها رموز وإشارات لا يمكن
 الوصول اليها بدون حواش وتقريرات فصرتم الى ما هو أطول من
 كتب المتقدمين التى تشتكون من طولها بل الى كتب الهدايات
 التى ليست فى شئ من العلوم فتعين ان الرجوع الى كتب المتقدمين
 فى كل ما ألف من العلوم خير من الاشتغال بكتب المتأخرين بما

ذكرناه من البراهين على ذلك والله خير موفق على اتباع الصواب
ومعين على ترك العادات واطراحها



﴿ علم أصول الفقه ﴾

الغرض من هذا العلم معرفة طرق استنباط الاحكام الشرعية
العملية من الادلة الشرعية أى من الكتاب والسنة واجماع علماء الامة
والقياس عند من يراه حجة أيضاً

فهذا العلم للمجتهد كالقدوم والمنشار للنجار فكما ان النجار ليس
في استطاعته ان يعمل في صنعته بدون آلاتها فكذلك المجتهد الذى
نصب نفسه لاستنباط الاحكام الفرعية العملية من الادلة الشرعية
لا يمكنه استنباط شئ من الاحكام بدون اتقان هذا الفن والاحاطة
به .. وبعبارة أخرى المجتهد كما لترجم فان لم يكن على علم تام بأصول اللغة
التي يترجم عنها وفروعها لم تقع ترجمته صحيحة .. وحاجة غير المجتهد
الى هذا الفن كحاجة الاعمى الى مصورات الجغرافيا فان تصور أن يكون
للاعمى حاجة الى هذه المصورات التي لا يعلم ما فيها الا بحاسة البصر
أمكن تصور حاجة غير المجتهد الى فن أصول الفقه

ولطلبة العلوم الدينية عناية حسنة بهذا الفن وهو مستعمل بينهم
بدرجة متوسطة ولاهل كل قطر كتب خاصة بهم يتدارسونها بينهم

على طريقته المألوفة بينهم في التعلم كما علمت مما قدمناه آنفا
فأهل مصر يتعاطون من كتبه شرح المحلى على جمع الجوامع
بحاشية البناني ما يعرفون غير هذا الكتاب ولا غير هذه الحاشية فهو
أول ما يتلقى الطالب من كتب هذا الفن وآخره وان اتفق لاحد ان
يكون قرأ على أحد شرح الورقات أو نظرفيه بنفسه فذلك من غرائب
الصدف ونوادير الاتفاق

والسبب في اقتصارهم على هذا الكتاب مع ان فيهم الشافعي
والحنفي والمالكي والحنبلي والكتاب المذكور في أصول فقه الشافعية
ان الكتاب المذكور من الكتب التي يمتحن بها من يريد الحصول
على شهادة العالمية من أهل أى مذهب كان فالطالب كيف كان مذهبه
مضطر الى حضوره .. فاجعل هذا على ما قدمناه من سوء حالة التعليم
وفسادها وعدم عناية العلماء الذين بيدهم الحل والعقد واليههم مقاليد أمور
الطلبة بشأن من تحت يدهم ونظرهم في استفادتهم وتحصيلهم وهل
من فائدة للطالب في اشتغاله بأصول مذهب لا يعرفه وهل ليس
يدخل تحت قدرة من القى الله اليهم لسوء حظنا مقاليد أمورنا أن
يفرقوا بين أصول المذاهب كما فرقوا بين الفروع ويجعلوا امتحان من
يريد الحصول على شهادة العالمية من كتب أصول مذهبه أو لم يكن
ذلك خيراً لهم من البقاء على هذه الحال التي طالما سألهم الطلاب

إعفاءهم منها فلم يجدوا لشكواهم سامعا
 ومن سنين قلائل ظهرت حركة من الحنفية في مصر في قراءة
 كتب أصول مذهبهم الا أن هذه الحركة لم تلبث أن خبت نارها
 وخذضارمها وأظن ان السبب في خمودها انهم كانوا يظنون انهم يتوسلون
 بذلك لاقتناع من اليهم أمر الطلاب بجعل امتحان من يريد الحصول
 على شهادة العالمية يكتب أصول مذهبهم فلما لم يوفقوا لذلك
 وأخفقت مساعيهم رجعوا الى طريقتهم الأولى إذ ليس في وسعهم
 الجمع بين الطريقتين

وليس في استطاعة احد أن يعرف نتيجة تعليم هذا الفن وتعلمه
 قبل ان يعرف حال كتاب جمع الجوامع وشرحه وحاشيته التي هي
 عمدة أهل مصر في تعلم هذا الفن الذي هو آلة المجتهد التي يتوصل
 بها الى استنباط الاحكام من الكتاب والسنة .. فأما المتن وهو جمع
 الجوامع فقد اختصره مؤلفه من نيف وستين كتابا من كتب هذا
 الفن وجعله كالتذكرة لمن أحاط علما بقواعد هذا الفن وخلاف الناس
 فيه من كتبه المبسوطه فهو يتذكر به ما يعرف من القواعد والاحكام
 خشية ضياعها ولم يجعله ليتعلم منه فن الاصول من لا يعرف قليلا ولا
 كثيراً من أصول الفقه ولا أدرك له طعاما ولا شم له رائحة .. وسيمر
 بك في الفصل الذي عقدناه آخر الكتاب لبيان الطرق النافعة في

تعليم العلم وتعلمه ان الكتب المختصرة مضرّة بالتعليم وقاطعة عنه وان
الاشتغال بمبسوطات الكتب لا بد منه في ابتداء التعليم وان المختصرات
لا ينبغي ان يمسها الا من يريد ان يجعلها تذكرة يتذكر بها ما يعلمه
ولا ينبغي ان يمسها من يريد ان يتعلم منها ما يجمل فانها لا تفيد شيئاً
وأما شرحه فقريب منه غموضاً وخفاء واختصاراً ولن تجد أحداً في
استطاعته الوقوف على حقيقة منه اللهم الا أن يكون له اطلاع على
قواعد هذا الفن واحاطة بها من غير هذا الكتاب .. وأما حاشية
البناني عليه فلا مساس لها بالكتاب بوجه من الوجوه ولا ارتباط بينهما
ولا علاقة وانما هي محاميات بين الناصر اللقاني وتلميذه ابن قاسم العبادي
وكان الناصر اللقاني كتب حاشية على هذا الكتاب تقع في مجلدة فجاء
تلميذه ابن قاسم وكان بينه وبين شيخه منافسات فكتب حاشية على
الكتاب المذكور تقع في أربع مجلدات زيف بها أكثر أقاويل
شيخه ثم جاء البناني فوضع حاشيته على شكل محامكة بينهما لم يتعرض
فيها لا يوضح شيئاً من غوامض الكتاب

هذا هو الكتاب الذي يتلقى منه طلاب العلوم الشرعية بمصر
فن أصول الفقه على الطريقة المألوفة بينهم والتي شرحنا لك طرفاً منها
فيما سبق فاحكم أنت بنفسك على قدر استعدادهم في هذا الفن
وتصور كيف يكون حال الاحكام الشرعية إن أوقع الله في نفوس
(١٦ - التعليم)

بعض هؤلاء الناس أن آلات الاجتهاد قد توفرت لديه واستكملها
 بالاحاطة بطرق الاستنباط فعمد لاستنباط الاحكام الشرعية وزاحم
 الأئمة المجتهدين في مذاهبهم وعارضهم وناقضهم
 ومن الحكايات المضحكة في هذا الشأن ان أحد كبار علماء الازهر
 بمصر وأطولهم باعا في العلوم العقلية والنقلية وأكبرهم شهرة بين
 الطلاب استنبط يوما وهو يقرء التلامذة شرح الورقات ان افتتاح
 الأمور ذوات البال بالبسملة واجب كوجوب الصلاة واعتل لذلك
 بحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الى آخر الحديث وقال
 ان هذا خبر بمعنى الطلب والطلب للإيجاب فلابتداء بالبسملة
 واجب ثم قال هذا مذهبي وان وقع الاجماع من الأئمة والعلماء على ان
 ذلك مندوب اليه عملا بصريح الحديث وصريح قاعدة الاصوليين
 المتفق عليها من ان الأمر للوجوب .. فذكرنا له ان الامر انما
 يكون للوجوب اذا توفر فيه أمران أن يكون ثبوته قطعياً بان
 يكون آية من كتاب الله أو حديثاً متواتراً أو مشهوراً الثاني ان تكون
 دلالاته على المعنى قطعية لا يحتمل لفظه غير هذا المعنى فان سقط أحد
 الأمرين من الأمر لم يفد الوجوب وهذا حال عنهما معاً فانه حديث
 آحاد ودلالاته ظنية فكيف يستنبط منه الوجوب فأنا نكر علينا ما قلنا
 وأصر على ما قال

هذا والشيخ قد قرأ جمع الجوامع على الشيوخ وسئل فيه يوم امتحن ليعطى شهادة العالمية فأجاب ثم أقرأه الجم الغفير من الطلاب فما باله لم يهتد لفهم قاعدة من قواعد الاصوليين ان كان في هذا الكتاب خير لمعلم أو متعلم

وطلاب العلوم الشرعية بالأقطار الهندية يعتنون بكتاب مسلم الثبوت للمحب البهاري أحد علمائهم عناية أهل مصر بكتاب جمع الجوامع وحالة الكتابين واحدة في الاختصار وكونهما بحيث لا يطلع على خفاياهما الا الراسخون في هذا العلم

والطلبة الاترك يقرأون من كتب هذا الفن التوضيح وأصول البردوى بشرح عبد العزيز البخارى عليه وشرح ابن الملك على المنار وهي كتب مبسوطه بهض البسط والاستفادة منها ممكنة في الجملة ولكني لأحقق ان نتيجة التعلم عندهم أحسن منها عند المصريين وربما كان سبب ذلك عدم اعتنائهم بتأسيس قواعد هذا العلم بالعمل

وطريقة أهل الغرب في هذا الفن وغيره كطريقة أهل مصر والعلم انما ينقل اليهم من مصر دون غيرها من سائر البلدان . . . وأهل الشام ينالون من طريقة المصريين وطريقة الاترك الا أن عنايتهم بهذا العلم كسائر العلوم دون عناية غيرهم

هذا مجمل حال علم الاصول في المدارس الشرعية الإسلامية

وأنت ترى أنه حال غير حسن وفي البقاء عليه اضاءة للوقت وصرف
 للعمر في طلب مالا يحصل والسعي وراء مالا ينال .. وحاشا العقلاء
 من مثل هذا

﴿ كلمة في فن الأصول ورأي في الاجتهاد ﴾

قد ذكرنا في صدر كلامنا على فن الأصول ان هذا العلم آلة
 المجتهد الذي ينصب نفسه لاستنباط الاحكام من الكتاب والسنة وان
 حاجة غير المجتهد اليه كحاجة الاعمى الى مصورات الجغرافيا وانما
 نريد بهذا الكلام التمهيد لذكر الاجتهاد والتقليد وبيان رأي الناس
 فيهما والصواب في ذلك فما لم تُعرف حقيقة الحكم في ذلك لم يمكن
 الحكم بلزوم هذا الفن أو عدمه

وأقوال الناس في الاجتهاد والتقليد لا تزيد على ثلاثة أقوال
 .. فقوم يرون أن التقليد ضربة لازب وان دعوى الاجتهاد ضرب
 من الكفر والاحاد في الدين ويرون أن باب الاجتهاد قد أغلق بعد
 الأئمة المجتهدين الذين وقع الاتفاق على تسليم الاجتهاد لهم وجواز
 تقليدهم وهذا رأي الجمهور ولهم على ذلك حجج وبراهين ليس هنا
 محل بسطها: وفساد قول هؤلاء معلوم بالضرورة ويكفي في بيان فساد
 انه تحريم مالم يرد نص عن الشارع بتحريمه وقول على الله بغير علم
 . القول الثاني ان الاجتهاد لازم وان التقليد غير جائز بوجه من الوجوه

وعلى كل واحد من المسلمين ان يجتهد لنفسه فيما يعرض له من أمور دينه ويعمل بما أدى اليه اجتهاده وانتهى اليه بعد ان يكون قد نظر في الدلائل الشرعية .. وهؤلاء قليلون جداً ولهم دلائل على ما ذهبوا اليه كما ان للفريق الأول دلائل وحسبنا في ابطال ما ذهب اليه هذا الفريق ان أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا مجتهدين وانما كانوا يقلدون فيما يعرض لهم من أمور الدين علماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأمثالهم رضی الله عنهم وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين ولم ينقل عن علماء ذلك العصر انهم أنكروا على من جاء يستفتيهم في أمر من أمور دينهم تركه الاجتهاد وميله الى التقليد ولو ان في ذلك محظورا على الناس في دينهم لم يسع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التواطى على السكوت على هذا المنكر

ولسنا نقول اننا لم نعلم ان أحداً من علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الفتيا فيهم أنكروا على من جاء يستفتيه التقليد وترك الاجتهاد بل نقول نحن نجزم جزماً قاطعاً بانهم لم ينكروا على أحد .. وهذا كاف في الجزم بان الاجتهاد في الاحكام الفرعية ليس بلازم على كل أحد وحاشا الحنيفية السمحة من هذا التشديد الشديد .. القول الثالث وسط بين القولين وهو ان الاجتهاد ليس بمحظور

على أحد من الناس وليس بضربة لا زب على كل انسان بل من رأى
منه ما يؤهله للقيام باعباء هذه الخطة العظيمة فله ان يجتهد ويعمل بما
أداه اليه اجتهاده ومن لم يجد من نفسه ذلك لم يلزم بالاستعداد له
والتهيء حتى يصير بحيث يمكنه بل يجوز له ان يقلد أحد الائمة المجتهدين
ويكون ذلك كافيا له في أعماله متى كان قصده بتقليد من قلده موافقة
ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وان لم يوافق ما قصد اليه

ونحن نرى ان هذا القول الاخير هو الصواب الذي ينبغي
المصير اليه في أمر الاجتهاد والتقليد وان الانسان في سعة من اتباع
اجتهاده بعد استفراغ الوسع في طلب الحق .. حاشا أنا لا نجيز
لأحد يرى في نفسه صلاحية للاجتهاد ان يدعو الناس الى العمل بقوله
والاخذ بما أداه اليه اجتهاده لاشئ سوى اننا نرى ان في ذلك توسيعاً
لباب الخلاف بين المسلمين ونحن في حاجة الى تضييقه

نعم نحن لانكر ان في سعة باب الاجتهاد راحة كبيرة للناس
وخيراً كثيراً للمسلمين وخروجاً عن الاصر الذي طوقت به رقاب
الامم التي لم تخضع لأحكام هذا الدين حتى أداها التدين الى ترك الدين
والمروق منه مرة واحدة الا أن الناس لغلبة الجهل عليهم جعلوا هذا
الاختلاف المذهبي الذي هو من تمام محاسن هذا الدين وخفة على
المتدينين به سبباً للتعصب والنزاع وتآلب بعضهم على بعض وقيام كل

فريق منهم ضد الفريق الآخر كما يقع بين أهل الأديان المختلفة: ولقد قرأنا في كتب التاريخ عموماً وقع بين أهل المذاهب المختلفة من المسلمين ماكدنا نكذبه لولا انا رأينا له في أيامنا من الشواهد ما يصدقه ويقويه ومن ذلك ما قرأناه في كتاب معجم البلدان قال اجترت ببلد من بلاد الفرس فوجدتها عامرة أهلة بالسكان زائجة الأسواق ثم عدت اليها بعد سنوات قليلة فوجدتها خراباً يباً قد هدمت مساكنها ودخلت من أهلها ولم يبق بها الا أقل من القليل فاستغربت من سرعة الخراب اليها وتفريق جماعاتها في الزمن اليسير فسألت رجلاً من العقلاء عن السبب في ذلك فقال كان أهل البلد قسامين أهل سنة وشيعة وكان أهل السنة قسامين أيضاً حنفية وشافعية فحصل بين أهل السنة والشيعة ما أفضى لقيام بعضهم على بعض وكان أهل السنة أكثر عدداً وأقوى عدة فما زالوا بهم قتلاً حتى أفنواهم عن آخرهم وأصبح نحو نصف البلد خراباً لا يعمره أحد من الناس ثم وقعت العصبية بين الشافعية والحنفية وقامت بينهم الحروب حتى أفنى بعضهم بعضاً ولم يبق من الفريقين غير بيوت قليلة من الشافعية سبق فناء الحنفية عن آخرهم آجالهم فبقوا على قيد الحياة

ومثل هذه الحوادث كثير لا حاجة بنا الى ذكرها والمشاهد منها كاف في الاستدلال به على الغابر ومنشأ هذا جهل العامة وفساد

حال رؤساء الدين وتمصبهم ومع هذا فلا حاجة بنا الى فتح باب
آخر للخلاف

على انا لو سلمنا لكل أحد دعوى الاجتهاد وسوغنا له دعوى
الناس الى مذهبه الذي اجتهد فأداه اليه اجتهاده لأوقعنا الدين في هوة
عظيمة من الفساد .. فان منصب الاجتهاد عظيم والنفوس تميل اليه
جداً لأنه من الرياسة الدينية فلو انا فتحنا الباب لدخله من لا يعرف
قبيلاً من دبير واتخذ له مذهباً جديداً دعى الناس اليه وناظر من خالفه
فيه عليه وفي ذلك تعريض الأحكام لخطر كبير: وقد كنت أرى أن
في الزام الناس تقليد أحد من الائمة المجتهدين دون غيرهم وعدم تسليم
الاجتهاد لاحد من أهل هذا العصر حجراً على الناس وتضييقاً على
الافكار وحصرراً لفضل الله في قوم قليلين .. فلما كنت في الهند عام
تسعة عشر بعد ألف وثلثمائة دعيت احدي ليالى رمضان لتناول
طعام الافطار عند أحد التجار وكان في جملة المدعوين رجل من علماء
نجد يرى انه من المجتهدين وله من أهل وطنه من يرى قوله حجة
فلما مدت المائدة ووضع الطعام مد المجتهد يده اليه فقلت امسك فلم
يحن الوقت والشمس لم تغرب بعد فقال أرى ان الشمس قد غربت
وان الوقت قد حان وما كنت لاقلد أحداً وأهوى بيده فأكل
ونحن لانشك في عدم دخول وقت الغروب .. فمن ذلك الحين

رجعت عن فكري وملت الى رأي من يرى الحجر على الناس في هذه الدعوى وقلت ان لم يكن في هذا الحجر سوى كف مثل هؤلاء الحمقاء عن ولوج هذا الباب ومزاحمة العقلاء الفضلاء فيه لكفى ذلك داعيا الى اختياره وترجيحه على غيره سيما وان درء المفسد مقدم على جلب المصالح ولا شك ان ما ينشأ عن هذا الباب من المفسد يقل بجانبه ما يترتب عليه من المصالح

وفوق هذا كله فان الغرض من الاجتهاد اليوم ان كان الخروج عن ائمة التقليد في الأحكام فقد علمت مما حكيناه عن الصحابة أنه غير ممنوع وانه ليس كل أحد من المسلمين مكلفا بالاجتهاد وان كان الغرض تنقيح أقوال الائمة المجتهدين وبيان غير الموافق منها فالظن لا يدفع بظن مثله ولا يمكن للانسان ان يصل في المسائل الاجتهادية مهما بالغ في البحث والتنقيب الى درجة يجزم بها بان ما انتهى اليه بحثه حق قطعاً وأكثر ما يمكن ان يصل اليه غلبة الظن : وخير من الاشتغال بهذا واجدى للمسلمين اختيار ما يوافق أهل كل عصر ومصر من أقوال الائمة المجتهدين والعمل بها وترك التقيّد بمذهب امام واحد من الائمة وفي هذا من التوسيع على المسلمين والنظر اليهم ما لا ينكر وقعه والناظر في أقوال بعض الائمة في فروع المعاملات التي لا يزال العمل بها جاريا على القوانين الشرعية يرى كثيراً منها لا يناسب حال

(١٧ - التعليم)

هذا الزمن وفي قول غيره من الائمة ما يناسب حال الزمن وينطبق عليه خیر من التقييد بقول واحد يكون فيه المناسب وغير المناسب اختيار المناسب من مذهب كل امام من الائمة والعمل به ولو أننا ذهبنا نستقرئ افراد المضار التي تنشأ من التقييد بمذهب واحد في المحاكم الشرعية لخرجنا الى حصر ما لا يبلغه الحصر وعد ما لا يستوفيه العد: ومن العجب ان الناس مع اعتقادهم بان سائر الائمة على درجة واحدة وان تقليد كل واحد منهم كتقليد الآخر اذا سمعوا مثل هذا نفروا عنه واشمأزت منه نفوسهم مع ما في ذلك من الضرر عليهم

ولو ان رجال الدين في القرون الاخيرة نظر وانظرة رجل خبير بصير واستعملوا الأناة والصبر ووفوا التأمل في مصلحة الدين حقه لم تهجر أكثر أبواب الفقه ولا منعت المحاكم الشرعية من النظر فيما يحدث من الحوادث المتعلقة بها . . . ولكنهم أصروا على البقاء على طريقة أصبح العمل بها غير ميسور وفي الاحكام الشرعية ما يناسب ويمكن العمل به الا أنه من قول امام آخر غير الامام الذي يجرى العمل بمذهبه بين الناس أو من الأقاويل الضعيفة في مذهب ذلك الامام نفسه فاضطر القائلون على الناس والناظرون في ترتيب أمورهم وربطها بروابط يصلح معها حال المعاش ويستقيم أمر العباد الى الاعراض

عما حرص عليه أولئك والخروج عنه الى أقوال ليست من الدين في
 شيء حرصا على صلاح حال الناس في دنياهم .. وهذا بعض ما يترتب
 على الجمود من الفساد والله المستعان على تحمل آلام هذا الجمود

وفي امكاننا بعد ما ذكرنا من التمهيدات السابقة الشافية الوافية
 الواضحة أن نقول ان علم الاصول ليس من العلوم الضرورية اليوم
 وانه لو رفع من جمهور العلوم الدراسية لكان خيرا من الاشتغال به
 وصرف الاوقات الطويلة فيه سيما وان الناظرين في هذا الفن
 الحريصين عليه يرون ان دعوى الاجتهاد ضرب من الاحاد والزندقة
 فأبي خير لهم بعد قولهم هذا في الاشتغال بعلم لا ينتفع به الا المجتهد
 وحاجة غير المجتهد اليه كحاجة الاعمى الى ضوء السراج .. والمسوغون
 للاجتهاد اليوم يرون ان قواعد الاصوليين منشأها الذوق العربي
 وعندهم من الذوق العربي والمللثة ما يغنيهم عنها

فأبينا في الاجتهاد ينحصر في أمرين .. الاول ان من رأى في نفسه
 استعدادا له لم يمنع منه ولا حجر عليه فيه ولا عد من المستخفين بالدين
 ما لم يظهر عليه من الاضطراب في الرأي ولم يكن من المتهاونين
 بالتكاليف الشرعية والا كان غرضه العبث بالدين .. الثاني ان يمنع
 المجتهدون من دعوة الناس الى ما اجتهدوا فيه فأداهم اجتهادهم اليه
 لأن في ذلك مفسدة كبيرة على العامة; وغير هذا انما يقوله متعصبا أو

جاهل رقيق الدين ذو مجون

وهكذا كان رأي الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده في أمر الاجتهاد ولم يكن يرى ان الاجتهاد واجب على كل أحد وانه لا يجوز تقليد أحد من الأئمة كما يذكر ذلك عنه أعداؤه وجهلة محبيه وحاشا الرجل العاقل البصير ان يرى مثل هذا الرأي ويدعو الناس الى ما لا يمكنهم ولو فعلوه لكان في ذلك فساد دينهم ودنياهم : واذا كان الشيخ محمد عبده يسؤه الاختلاف الواقع بين المذاهب الاربعة فكيف يدعو الناس الى ان يكون لكل واحد منهم رأي واذا كان الاختلاف السابق سبباً لارتباك الحال فكيف يكون الأمر لو أصبح الناس كلهم مختلفين

ولقد دخلت عليه رحمه الله يوماً ما استفتيته في بعض الحوادث فذكر ما هو المذهب المعروف في ذلك وكان بحضرتة رجل لا أعرفه فنازعه في الحكم وقال لو كان بغير هذه الطريقة لكان خيراً وأنظر فتعال الاستاذ لا يقع رأيك حجة على الناس وأنت مخير في شأن نفسك هذا هو الرأي الحق الصواب البين الواضح الذي يجمع النظر الى المصلحتين معاً مصلحة الدين ومصلحة الناس وأما ما تسمعه من الناس من ذكر الاجتهاد والحث عليه واطراح التقليد والتنفير عنه والوقوع في المتمسكين به وأسأمتهم القول فيهم فنشأه حب الظهور بين

الناس لا تحرى المصلحة ولو سألت أولئك الذين لا ينزل من
 السننهم ذكر الاجتهاد في الدين لم تجد لهم أقل معرفة به ولو سألتهم
 عن الاضرار التي ولدها التقليد لم يذكروا شيئاً أصلاً وإنما كان قولهم
 ان البلاء كل البلاء إنما وقع على الدين من اختلاف المجتهدين وترك
 الاجتهاد فان سئلوا البيان لم يبينوا وغاية علمهم في ذلك انهم سمعوا
 الناس يقولون فقالوا وهم لا يفرقون فيما يدعون اليه بين غث وThin

﴿ علم الفقه ﴾

الغرض من هذا العلم معرفة ما يعرض لأفعال المكلفين من الحل
 والحرمه والكراهة والندب والإباحة والجواز والفساد وهو من
 الأهمية بحيث لا يخفى على أحد فيحتاج الى البيان والايضاح واثن
 استحالة الحال وتغير الزمان وقهر ظلام الباطل المتكاثف نور الحق
 المتفرق حتى أغلقت أكثر أبواب الفقه وارتفع العمل بها استغناء
 عنها بما لا يساويها ولا يدانيها اعتدالا فلا نياس من يوم يعود كل شيء
 فيه الى مقره ويكشف نور الحق ظلام الباطل ويصدعه فتفتح هاتيك
 الابواب ويظهر منها شعاع نور الحق
 على انا والحالة هذه في حاجة تامة لقراءة كتب هذا الفن

وتعليمه وتعلمه لأقام الصلوات المكتوبة وأداء الزكوات المفروضة
والصوم والحج والأنكحة والطلاق والموارث والأوقاف والذبايح
ونحوها مما لا يزال باب العمل فيه مفتوحا علينا ولا غنى للهيئة
الاسلامية عنه وان استغنى عنه بعض الافراد من المسلمين

وهذا العلم من العلوم المقصودة لذاتها وليس هو من العلوم الآلية
التي يكون الغرض منها التوصل بها الى غيرها من العلوم بل هو وعلم
التوحيد الذي هو معرفة الله جل شأنه بما يجب له وما يجوز عليه وما
ينزه عنه ومعرفة رسوله كذلك على هذا الوجه هما العلمان الوحيدان
المقصودان لذاتيهما وكل ما عداهما من العلوم فانما هو وسيلة لهما أو
وسيلة لما هو وسيلة لهما فان الله جل شأنه انما خلق هذا الخلق لعبادته
كما قال جل شأنه (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وعبادته
توحيد وطاقته في فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه ولما كان من
فوق طاقة العقول ان تعبدوه جل شأنه ابتداءً من عند انفسها لعدم
اهتدائها بدواتها لما يليق به من العبادة وما لا يليق أرسل رسوله ببيان
ذلك للناس تخفيفاً منه عنهم وقطعاً لاحتجاجهم عليه فيقولوا ربنا لولا
أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نضل ونخزي وأنزل معهم
الكتب تبق بين أيديهم ليتذكروا بها أبداً ما افترض عليهم وما شرع
لهم من الدين وليرجعوا اليها فيما اشتبه عليهم من أمر دينهم

اذا تدبرت هذه المقدمة التي ذكرناها لك علمت ان جميع
 اصناف العلوم الشرعية كلها آلات لعلم الفقه والتوحيد وليس غيرها
 بينها من علوم المقاصد فعلم التفسير والحديث رواية ودراية وكتب
 الرجال جرحا وتعديلا وعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض
 والقوافي والاشتقاق وسائر العلوم الادبية انما الغرض منها ان يتوصل
 بها الى معرفة الكتاب والسنة والغرض من الكتاب والسنة معرفة
 ما اوجب الله على عباده وكلفهم به على لسان رسوله عليهم السلام
 وانت خير بان طلبه العلوم الدينية في جميع البلاد الاسلامية
 كل منهم يتلقى هذا الفن على حسب مذهبه التي يتعبد به في فروع
 الاسلام فمنهم شافعيون ومنهم حنفيون ومنهم مالكيون ومنهم حنابلة
 ولكل فريق كتب خاصة به يتلقى فروع مذهبه منها وقد يغلب بعض
 المذاهب على اهل قطر فلا يكاد يوجد غيره عندهم
 ونحن سنجعل كلامنا قاصراً على المذهبين الحنفي والشافعي
 لأمريين الأول أنهما أكثر انتشاراً بين المسلمين في مشارق الارض
 ومغاربها دون مذهب مالك وأحمد بن حنبل الأمر الثاني أننا نعرف
 شيئاً من حال كتب هذين المذهبين المتداولة الآن فلا يمكننا استحسان
 الحسن منها واستقباح ما ليس بحسن وتمييز النافع منها من غيره على أننا
 ان وفق لنا من يعرفنا حقيقة الحال في ذلك ممن نثق بعلمه وعقله

وانصافه ألحقنا ذلك بالكتاب وأضفناه اليه والا فلا لوم علينا في ترك ذلك والاعراض عنه فالله تعالى يقول ولا تقف ما ليس لك به علم وقبل الخوض في المقصود نذكر كلمات يسيرة في أسباب اختلاف المذاهب في الفروع الدينية ونبين ان ذلك ليس بقادح في الدين ولا في أصحاب تلك المذاهب مع اقامة البراهين على ان الاتفاق في ذلك ضرب من المحال : فقد نسمع من قوم الطعن في حقبة الدين لهذا الأمر ومن آخرين القدح في أصحاب المذاهب قال الأولون إن الدين الاسلامي لو كان صحيحا في ذاته لم تتضارب أحكامه فيكون الفعل الواحد فيه حلالا وحراما وصحيحا وفاسدا وموقوفا وناظرا لان الصحيح المنزل من عند الله لا يختلف ولا تتضارب أحكامه ولا تتناقض ولأن المتناقضين كل منهما يكذب الآخر ويدفعه فيتساقطان ويبطل الحكم بوجهيه فيرجع التدين الى ترك الدين واطراح أحكامه وهذا خلاف المقصود من التشريع

وقال الآخرون ان الحكم في ذاته واحد إما الحل أو الحرمة أو الصحة أو الفساد والله سبحانه لا يجعل لشيء واحد حكيمين متناقضين لأنه لو فعل ذلك لكان هو متناقضا لانه اذا وصف شيئا واحداً بالحل والحرمة في وقت واحد فقد وصف نفسه بكونه أمرآبه تاهيا عنه في وقت واحد وهل التناقض غير هذا .. واذا كان ذلك

كذلك فهذا الاختلاف المشهود بين أصحاب المذهب الاربعة وغيرهم
إما منشأه القول بالهوى والرأى من غير استناد على أصول الشريعة أو
إهمال منهم في تعرف الحق وتمييزه من غيره وتقصير وترك للمبالغة في
الاجتهاد وتمييز الصحيح من الفاسد وكيف كان الحال فان هذا
يوجب اطراح أقوالهم لعدم الوثوق بها لتناقضها وعدم معرفة حقها
من باطلها على ان الاحكام المشروعة واحدة والحق في ذاته واحد

هذا كل ما احتج به الطاعنون لا يعرف لهم دليلا غير هذا الذي
ذكرناه وأنت اذا تأملت ما سند كره في هذا المقام فأنت في غنية
عن الجواب عما اعترضوا به وارتكنوا اليه

ما هو الدين : الدين قانون سماوى أنزله الله على رسول من رسله
وكلفه بإبلاغه لمن أرسله اليهم وأخذهم بالعمل به والسير على موجهه
سواء في معاملة الخلق والمخلوقين .. هذا هو حقيقة كل دين وكل ما
يوجد في كتب القوانين الشرعية السماوية من قصص ومثل ووعد ووعيد
ووصف النعيم بما يرغب فيه والشقاء بما ينفر عنه فانما المقصود من ذلك
حمل المكلفين على العمل بهذا القانون والوقوف عند حدوده وعدم
تعديها لان التكاليف الشرعية منها ما هو من أعمال الجوارح ومنها
ما هو من أعمال القلوب والعقوبات المشروعة في القوانين الشرعية انما
هي على أعمال الجوارح دون أعمال القلوب وانما لم يجعل الشارع عقوبة

على أعمال القلوب التي تخالف شرعه كالعقوبات التي جعلها على أعمال الجوارح لانه لما كان تنفيذ تلك العقوبات على المخلفين موكولا الى الخلق وهؤلاء ليس في استطاعتهم الاطلاع على القلوب ومعرفة أعمالها الموافقة لأمر الشارع والمخالفة وكان علم ذلك مما استأثر به علام الغيوب جعل لذلك عقوبات أخرويات يتولى هو اقامتها على مخالفته وبين لهم على لسان رساله ما أعد من أنواع العذاب لمن خالفه وتعدى حدوده ليكون ذلك باعثا لهم على الامتثال وكافا عن المخالفة والتعدى

فالدين على هذا لذي ذكرناه قانون كبعض هذه القوانين التي تتعامل بها الأمم اليوم وإنما يمتاز عنها كما باشماله على بيان ما على المخلوق لخالقه فهو قانون دنيوي أخروي والقوانين الوضعية التي هي من أوضاع البشر قوانين دنيوية بحتة لا تعلق لها بأحوال الآخرة ويمتاز عنها كيفاً بحسن الوضع وكمال الاحاطة مع غاية الاعتدال في ترتيب العقوبات على الجنايات وموافقته لجميع الناس في كافة الاعصار بحيث لا يأتي زمن يحتاج فيه الى تحوير كالذي يقع في القوانين الوضعية

والقانون شرعياً كان أو وضعياً لا يمكن ان تبين فيه أحكام الحوادث الجزئية حادثة حادثة كل حادثة بحكمها الذي هو لها لان ذلك يقتضى قبل كل شيء استقراء أفراد الحوادث وكيف يمكن

استقرارها وهي متجددة بتجدد الأزمان ولكل زمان من جزئيات
 الحوادث ما ليس لغيره فلو جعل التشريع عبارة عن بيان أحكام جزئيات
 الحوادث تفصيلاً لأدى ذلك إلى إبطال التشريع
 فتعين إذا أن يكون القانون عبارة عن قواعد كلية يعرف منها
 أحكام جزئيات الحوادث الكونية فلا ديان السماوية عبارة عن قواعد
 كلية كسائر القوانين

ثم إن القوانين لوضعية سواء المستعملة في أيامنا هذه أو المهجورة
 من قوانين الأمم الغابرة لو رجع الإنسان إلى شروحيها التي وضعت
 عليها لا يوضح تلك القواعد الكلية وجد بينها اختلافاً كبيراً في تفسير
 تلك القواعد وتطبيقها على الحوادث الجزئية حتى إن الأحكام تختلف
 باختلاف الشرح والتطبيق فتكون مباحة على قول ومحظورة
 على قول آخر

بل رأينا في عصرنا قوماً نرى أنهم من أفاضل رجال هذا العصر
 ومن كبار المشرعين يختلفون في تفسير اللوائح التي تصدرها دوائر
 الحكومات في الحوادث الجزئية مشتملة على المادتين والثلاث فقط
 فيبيح أحدهما قانوناً ما يحظره الآخر وحجة كل منهما نص اللائحة
 هذا على أن القوانين الوضعية من أوضاع البشر أمثالنا وعباراتهم
 في قوانينهم كالتى ألفناها في محاوراتنا ومراسلاتنا وهي دون القوانين

الشرعية غموضاً واجمالاً

وإذا كان الحال على ما سمعت ورأيت في القوانين الوضعية فأى موجب للقدح في القانون الشرعي أو في شراحه إذا اختلفوا في تفسير بعض مواده أو في تطبيقها على فروعها الجزئية وما الذي يجعل اشراح القوانين البشرية في اختلافهم عذراً دون شراح القوانين الشرعية السماوية وفوق هذا فإن القانون الشرعي الاسلامي تفرقت مواده بتفرق حفظته في الأقطار اذ لم يكن مجموعاً في سفر لا اشتغال أهل العصر بالدعوة الى الدين والفتوح عن ذلك فأخذ أهل كل مصر بما وصل اليهم من هذا القانون وعملوا به وبقي غيره غيباً عنهم لم يطعموا على شيء منه فلم يكونوا مكافين به

هذا وان لا ثبات حقيقة هذا الأمر وكونه غير مخالف للقواعد الطبيعية مسالك آخر أقوى وأمتن من هذا الذي سلكناه الا اننا رأينا ان الاحتجاج على هؤلاء الطاعنين بما يستحسنونه ولا ينكرونه بآيات مشابهة من كل الوجوه لما ينكرونه خير من الاحتجاج عليهم بشيء ربما كانوا لا يوافقوننا فيه فنحتاج الى الاحتجاج على ما احتججنا به على مقصودنا ويطول النزاع

ونرجع الآن الى ما كنا بصددده .. وهو ذكر الكتب الفقهية التي يتسداولها طلاب العلوم الشرعية في الممالك الاسلامية من

حنفية وشافعية ونيز الحسن منها من غيره معتمدين في جل ما نقول
أو كله على ما قاله متأخرو الفقهاء فنقول

يقراً طلاب العلوم الشرعية الحنفية في مصر شرح مراقي الفلاح
للشربلالي مجرداً وبجاشية الطحطاوي عليه وشرح الطائي على متن
الكنز ولا حاشية على هذا الشرح والحمد لله وشرح ملا مسكين عليه
كل واحد من هذه الكتب الثلاثة في سنة ثم شرح العيني على الكنز
في سنتين ثم شرح الدرر على الفرر لملا خسرو في سنتين أيضاً ثم
شرح الدرر بجاشية ابن عابدين في خمس أو ست سنوات فيكون
مجموع ما ينفقه الطالب من سني عمره ثلثاً عشرة سنة هذا إذا لم يعد
قراءة كتاب واحد مرة أو مرتين فإن أعاد شيئاً منها ارتقى العدد
إلى أضعافه

فأما شرح مراقي الفلاح للشربلالي ففيه من المسائل الغريبة
العويصة والعبارات المعقدة والعلل الأصولية شيء كثير فلا ينبغي أن
يكون أول ما يشتغل به صغار التلامذة الذي هم إلى تعلم فرائض
العبادات ولوازمها أحوج منهم إلى غرائب المسائل ونكات الأصوليين
وأما شرح الطائي على متن الكنز فهو الآية العظمى اغلاقاً
واجمالاً واختصاراً وما زالت أكباد طلاب فقه أبي حنيفة في مصر
متعطشة لحاشية على هذا الكتاب تفصل مجمله وتحل معماه وتقيده

مطلقاته لكن لم يوفق أحد لهذا المشروع الذي يرون أنه أجل مشروع
 .. وهذا الكتاب باتفاق أهل العلم فيهم أعضل الكتب الفقهية لشدة
 غموض عباراته وكثرة إجمالها ولهذا قالوا أنه لا يصح الافتاء بما فيه
 ولا يصح التعويل عليه في القضاء ففيه بليتان كل واحدة منهما تكفي
 في ترك الاقبال عليه والاعتناء به : وأما شرح ملامسكين فقد ذكروا
 ان مؤلفه مجهول لا يعرف هو ولا أحد من أشياخه الذين أخذ عنهم
 وأكثر نقوله ضعيفة ولذلك أسقطوا الاحتجاج به في القضاء والفتيا
 وأما شرح العيني على الكنز فهو كالذين تقدموا وعلمته التي مات بها
 ان مؤلفه اختصر به شرح الزيلعي على الكنز في ستين يوماً ففاته شيء
 كثير يتوقف عليه الفهم أو صحة الحكم

وأما شرح الفرر لملاخسرو المسمى بالدرر فإنه قد زاد في مته على

ما في متن الكنز زيادات غير حسنة فسقط اعتباره لهذا

وأما شرح الدرر بحاشية ابن عابدين وهو أكثر الكتب تداولاً

وانتشاراً فالتن والشرح في غاية الخفاء والاعلاق لشدة اختصارهما

والشرح مملوء بالنقل عن صاحب النهر وابن كمال باشا والاشباه لابن

نجيم وهي كتب مضطربة لا يصح التعويل عليها ولذلك قالوا أنه

لا يصح الاحتجاج به في القضاء والفتيا لشدة اختصاره ولكثرة ما فيه

من الحشو والزوائد المنقولة عن الضعفاء : وابن عابدين على سعة

وضخامته ترك أكثر المواضع من غير تحرير واغفل التنبيه على أكثر ما فيه من الأغلاط والعذر له في ذلك انه ينقل من كتب المذهب ما يسر له النقل فاذا لم يجد سكت فان تكلم شيئاً من عند نفسه خاتته قواه ولقد سمعت من هو أوثق من ابن عابدين وأوسع منه اطلاعا وأدق نظراً يقول اذا رأيت ابن عابدين يقول في آخر كلامه فافهم فاعرف انه قد اعتمد على نظره فاخطأ

وهي ان نقحت عن هذه الزوائد التي فيها واصح ما فيها من الأغلاط فلا بأس باستعمالها لاشتمالها على كثير من الاحكام الفقهية ولكن الاشتغال بغيرها من كتب المذهب المصححة المنقحة الموثوق بما فيها لجلالة مؤلفيها وتضامهم وأخذهم عن الثقات خير منها كيف كان حالها وربما قرؤا على ندرة كتاب الاشباه والنظائر لابن نجيم المصري وهو كتاب في غاية الاغلاق والايجاز وقل ان يهتدى أحد لحل رموزه الا بعد عناء ومشقة وبعد هذا فان كثيراً من الاحكام التي نقلها لا تنطبق على الاحكام الفقهية المنقولة عن المذهب الحنفي والسبب في ذلك ان ابن نجيم ألف هذا الكتاب في ستة أشهر ثم اخترمته المنون قبل تنقيحه وتبييضه واخراج ما فيه من الغرائب فبقى على ما هو عليه الآن؛ ولذلك يقول متأخرو الحنفية انه لا يجوز الاعتماد عليه في القضاء والفتيا وآخرون يقولون ان تداوله حرام اذ لا يوجد من يقدر على تمييز

صوابه من خطأه ففي استعماله ادخال بعض أحكام في الدين وهي ليست منه وربما كان قول هؤلاء أقرب إلى الصواب هذا كل ما يتداوله طلاب العلم الديني في مصر من كتب الفقه الحنفي وطلاب العلوم في الممالك التركية والسورية والهندية وغيرها يشاركونهم في هذا لا يزيدون عليهم إلا ببعض مؤلفات صغيرة هي كهد الكتب لأن عمدة طلاب العلوم الشرعية في كافة الممالك الإسلامية على الكتب المطبوعة التي يتيسر لهم تناولها ولن ترى مهما فتشت في خزانة كتب أحد من الطلبة كتابا خطيا وإن وجد في خزائن بعض الموسرين من أهل العلم فقليل . . والطباعة أول ظهورها في الممالك الإسلامية كان في الأستانة ومصر وكان نموها في مصر أكثر لضعف يد المراقبة عليها

وصادف حين ظهور الطباعة في مصر ضعفا في العلم الديني وجهلا في سائر الطبقات وتسلمت من العلماء الأغبياء على الحكام الجهلاء فكان هم المطابع المصرية طبع آثار هؤلاء الذين نشير إليهم وأشياخهم وبعض من يثقون بهم من علماء القرون الوسطى دون شيء من كتب المتقدمين لمخالفتها لأفكارهم

وربما تقدم واحد لطبع كتاب من الكتب النافعة إمام من مؤلفات المتقدمين أو من مؤلفات بعض المتأخرين فمنع من ذلك لأن بعض

المشاخ رأى فيه مسألة تخالف رأيه أو اعتقاده وان كان رأيه واعتقاده خطأ في نفس الأمر

فكان المطابع ما وجدت في مصر الخدمة أفكار هؤلاء الناس الأغنياء ونشر مؤلفاتهم ومؤلفات من يحبون دون غيرهم من سائر طبقات العلماء وكانهم أخذوا من الله ورسوله حجة وثيقة على انهم هم المصيبون وغيرهم من المخطئين .. ومن رأى حالة قلم المطبوعات تلك الأيام ووقوفه موقف الحيرة بين الناس والعلماء رأى ما يضحك ويبكي

فانتشرت هذه الكتب بين الناس انتشاراً هائلاً وتفرقت في ممالك المسلمين شرقاً وغرباً وعكف طلاب العلوم على تعلمها والأخذ عنها لعدم وجود غيرها بأيديهم وجعلوها قدوة لهم في علومهم وما زالت على تكرر الزمان نعلو منزلتها عندهم حتى صاروا يعدون الكلام في ابطالها والاستغناء عنها بما هو أنفع منها ضرباً من الاحاد في الدين وأهل الآستانة على ضعف سيرهم في هذا الطريق كانوا يحتدون في سيرهم حذو الطباعة المصرية ويقتدون بها في طباعتهم لا اعتقادهم ان أهل مصر لوجود الأزهر بينهم هم القدوة في كل ما يصدر عنهم من حركة وسكون

فكان ظهور الطباعة في مصر في ذلك العهد بلية عظيمة على

المسلمين كافة في مشارق الارض ومغاربها ولولاها لم تنتشر كتب
الكفر والخرافات بين أيدي المسلمين فتصير عند العوام فيهم وما هم
قليون ديننا منزلا وشريعة متبعة

فصل - واذا قايس المرء بين مطبوعات مصر ومطبوعات
البلاد الافرنجية رأى أمراً معجباً... يرى ان مطبوعات البلاد
الافرنجية كلها لأجل علماء الاسلام وأفضلهم اللهم غير كتب قلائل
ويرى ان المطبوعات في مصر على ضد ذلك على خط مستقيم: نعم ان
خزائن الكتب في البلاد الافرنجية ملأى من الكتب الاسلامية
الجليلة بخلاف مصر فانها بعد نحو نصف قرن من تأسيس مكتبة رسمية
لم تحصل من الكتب الا على هذه الدشوت المودعة في خزائن مكتبة
الحكومة والتي هي غير القليل منها عبارة عن شروح وحواش من
مؤلفات المتأخرين وما قد يوجد من كتب المتقدمين قاما ناقص أو
مغلوط لا يوثق به لكن أي عذر لهم في ترك استجلاب الكتب
النافعة ومزاحمة الاوربيين في اقتنائها واستنساخ الالهة فالأهم منها
أو لم يكن ذلك خيراً لهم من شحن خزائن المكتبة بالكتب الافرنجية
التي لا يعرفها أحد من أهل البلاد

فان قال قائل ان هذا من شأن الحكومة وليس من شأن
الأهالي فهم معذورون قلنا الى هنا وندع الكلام فاننا قوم مشرقيون

وعلاقة المحكوم منا بالحاكم علاقة العبد، الخوارج بالسيد الجبار وإنما عليهم الأمر وعلينا السمع والطاعة

أرانا قد بعدنا عن الموضوع وخرجنا إلى الكلام عما لم نجعل كتابنا من أجله وإنما الحديث ذو شجون والنفس إذا كانت تألم من شيء وتطلب الخروج عنه وإخلوص منه إلى فضاء ضده تتبعت أدنى الوسائل لذكره فذكرته لتعلن بشكواها منه وتلمس الفكك من أسره فلنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول

قد ذكرنا ما يتداوله طلاب العلوم الشرعية من كتب الفقه الحنفي وبيان درجتها بين الكتب ومقدار ثقة الناس فيها حتى من يحرص عليها ويشتغل ليله ونهاره فيها وحسبنا دليلاً على صحة ما ذكرناه قلة الناجحين في هذا الفن ففي سنة ١٧ هجرية بعد ثلاثمائة ألف كان الناجحون في امتحان المكافأة من طلبة فقد أتي حنيفة في الأزهر ثلاثة نفر اثنان سوريان والثالث مصري وأنا لا أعلم كمية الذين دخلوا قاعة الامتحان من الحنفية لكنني أحقق أنهم أكثر من ثلثمائة

فإذا كان الناجحون واحداً من كل مائة في هذا الامتحان البسيط فكيف يكون عدد الناجحين في الامتحانات الحقيقية التي يقصد منها معرفة من له ملكة وإدراك ممن لا شيء عنده

نعم إنه ليست رداءة الكتب هي السبب الوحيد في عدم النجاح

بل لسوء طرق التعليم المألوفة بين أهل العلم بمصر دخل كبير في هذا
 الامر أيضاً بل هذا أشد ضرراً وأسوأ تأثيراً ولكن هذا لا يدفعنا
 عن المقصود ولا يزلزل قولنا فيه فإتباع القصد أثبات ان لهذه الكتب
 آثاراً سيئة على العلم لانها وحدها دون غيرها هي السبب فيه كله
 هذا ولو انا نعلم ان في تكتم الانسان عيوب نفسه ومبالغته في
 سترها عن أعين الناس مصلحة له لبالغنا في كتمان هذه الحقائق
 ولحرصنا على سترها ولكن المعلوم ان العيوب اذا تركت ولم ينظر في
 ازالها رسيخت فكانت ملكات واذا انتهت الى مثل هذا الحال صار
 زوالها ضرباً من المحال .. وليس من علاج لعيب خيرا من افشائه بين
 الناس فان المتصف به اذا رأى نفسه مشهوراً به بين الناس والناس مجمعون
 على استقباحه أخذ نفسه بالتنازل عنه أو عن بعضه

على ان كثيراً من قليلي الشعور يظنون ان حالة العلوم في البلاد
 الاسلامية حسنة وهي بحيث يمكن اجتناء ثمرها منها وانها في مصر
 كأحسن ما يمكن ان تكون حسناً واستقامة حال وان التعرض
 لاصلاحها سعى في افسادها فان اصلاح ما هو صالح في ذاته افساد
 له لا محالة .. ومن الناس من يشعر بسوء حالة العلوم في عامة الممالك
 الاسلامية سيما في مصر ولكنه لا يدري ما هو ذلك الفساد الذي نزل
 به ولا كيف يمكن علاجه كالرجل الذي ليس له معرفة بالطب يرى

المريض ملقى على فراشه يعالج سكرات الموت فيعلم علما جازما انه مريض لما يشاهد من آثار المرض عليه ثم هو مع ذلك ان سأل عن مرضه ذلك وعن العلاج الذي يمكن أستنقاذه به من مخالب هذا المرض الذي اعتراه لم يستطع عن أحدهما جوابا: فكان غرضنا من ذكر هذه الحقائق اقناع الاولين بسوء حالة العلوم الدينية في الممالك الاسلامية مصر وغيرها وافهام الآخريين حقيقة ذلك المرض الذي يشاهدون اعراضه على جسم العلوم الدينية وذكر الدواء الشافي من هذه الادواء رجع

وأما طلبة العلوم الدينية من الشافعية فيقرأون من كتب مذهبهم شرح ابن قاسم الغزى على متن القاضى أبى شجاع بحاشية البرماوى ثم شرح الخطيب الشربينى عليه ثم شرح التحرير بحاشية الشيخ عبد الله الشرقاوى ثم شرح المنهج بحاشية البناني هذه الكتب أكثر تداولها في أيدي طلبة العلوم الشافعيين وهى فى بعض البلاد كمصر ضربة لازب لا يسع الطالب ترك حضورها لعدم وجود غيرها عندهم وأقل مدة يمكن بها الطالب استيعاب هذه الكتب قراءة عشر سنوات

فأما شرح ابن قاسم فهو شرح حسن لا بأس باقراء التلميذ اياه فى أول سنى تعلمه ولكن حاشية البرماوى عليه لا خير فيها . . فانها على

كونها كسائر مؤلفات المتأخرين من شروح وحواش ليست في علم من العلوم المدونة وإنما هي في أبحاث لا تصح نسبتها إلى نوع من أنواع العلوم وفي عباراتها اغلاق وغموض يبهمان المراد على الطالب المتمكن في العلم فضلا عن الضعيف فيه ففي اشغال الطالب بها تعريضه إلى الضلال في عباراتها وتضييع له في مجاهل اشاراتها : وأما شرح الخطيب فهو خير ما يقرأ من كتب هذا الفن لبسط في عباراته وسهولة في تراكيبه إلا أن أهل العلم من الشافعية يقولون إن فيه شيئاً كثيراً من الأحكام الضعيفة والفروع الواهية فلا بد لمقرئه وقاربه من النظر معه في شيء من حواشيه ليتميز عند الناظر صوابه من خطأه وغمه من ثمينه .. فإن كان ما يقولون حقاً تعين عليهم تركه والمصير إلى غيره من الكتب الموثوق بها وبمؤلفيها فاشتغالنا باصلاح فساد نفوسنا ورفع آفة الجهل بعلم ديننا عنها خير من الاشتغال باصلاح فساد الخطيب وغير الخطيب .. والجدار المائل الذي لا يحتاج إليه الإنسان بوجه من وجوه الحاجة لاستغنائه عنه بغيره خیر من ترميمه نقضه لأن في نقضه مصلحة وهي دفع أذى سقوطه على أحد ولا مصلحة في ترميمه لعدم الحاجة إليه .. وأما شرح التحرير لشيخ الإسلام زكريا الانصاري وحاشيته للشيخ عبد الله الشرقاوي فأما الشرح فلو لا ضيق في عباراته واغلاق فيها وشدّة إيجازيهم المعنى ويشدت أفكار المعلم

والمتعلم لم يكن به بأس: وأما حاشيته فيكفيك في بيان درجتها معرفة
 ان مؤلفها من متأخر متأخرى فقهاء المصريين والحاشية فيها من
 كل شيء عدا الفقه اللهم الا بعض صور تخيلية يستحيل وجودها خارج
 الاعيان تخيلها المحشى موجودة فصار يبحث لها عن حكم شرعى يطبقه
 عليها والعجب كل العجب اهل ذكرا أحكام حوادث الفتيا التي تغدو
 على الناس وتروح والاشتغال بذكر أحكام حوادث خيالية يستحيل
 وقوعها خارج الأعيان .. وأما شرح المنهج وحاشية البناني عليه فأما
 متن الكتاب وهو المنهج فانه مختصر من مختصر الى ما شاء الله
 والشرح كذلك فهما من الاحاجي والالغاز .. ولما كانا بهذه المثابة
 وكانت الهممة في مصر مصروفة الى تعلمه وتعليمه كان كل من قرأه
 من العلماء كتب عليه ما شاء الله ان يكتب فلما جاء البناني ووقف على
 نسخة شيخه الصبان فوجد حواشيا مملوءة بالحواشي جرد تلك
 الحواشي وجعل هذا المزيج حاشية على شرح المنهج ثم طرحها الى
 تلامذته الذين طرحوها الى المطابع المصرية فطبعت منها الوفا مؤلفة
 من النسخ ثم طرحها اليها نقرأ منها ما لا يفهم ونفهم ما لا يعقل
 ونعقل ما لا يفيد

فصل - ومتأخرو المؤلفين معذورون فيما ألفوا من هذه الكتب
 لأنهم لما حرصوا على استبقاء ذكرهم في دفاتر مؤلفي الاسلام

والنفس أحرص ما تكون على خلود الذكّر بعد الممات وانتشاره في الحياة ولم يكن عندهم من العلوم ما يؤهلهم للوقوف في مصافّ متقدمي المؤلفين وكانت العلوم قد فرغ من تأسيس قواعدها وتهذيبها وتنقيحها ولم يبق في الوسع الحاق شيء بهاله نوع مدخلة فيها ولا اصلاح شيء منها فات المتقدمين اصلاحه عمدوا الى كتب المتقدمين فلخصوها ثم خلف بعضهم خلف آخر فلخصوا تلك الملخصات حتى صارت كل مجلدة من مؤلفات المتقدمين في أوراق قليلة فكانت هذه هي المنون وكل يزعم انه انما جملة على ذلك قصور هم الناس عن التطلع الى المطولات وليس كما زعم وانما جملة على ذلك حب الشهرة واستبقاء الذكّر

ثم رأوا ان هذه المختصرات التي نحتوها من تلك المطولات قد صارت من الاغلاق والخفاء بحيث لا يمكن فهمها وبطل الغرض المقصود منها فعمدوا الى شرحها ليتسنى لمن ينظر فيها ان يفهم شيئاً من معانيها فكانت هذه الشروح كفتاح لرموز تلك المتون ثم رأى قوم آخرون ان هذه الشروح غير كافية في المطلوب أيضاً لغموض عبارات الشروح من جهة ولعدم توفيتها بالمقصود من جهة أخرى فوضعوا على الشروح حواشي لا يوضح مبهمها وتكمل ناقصها فوقعوا في شر مما فروا منه ومن المقررن الشيء اذا خرج عن حده انقلب الى ضده فهو لا بالنعوا

في اختصار المطوولات حتى صاروا الى ما هو أطول من المطولات
على انها لا تساويها في استيعاب فوائد العلوم المدونة فيها
فانحل بشيوع هذه المؤلفات بين أيدي المتعلمين نظام العلم وذهب
رونقه وأظلم مشرقه وتلاشى واضمححل حتى عفت آثاره ودرست
معامله وأصبح كأن لم يكن شيئاً مذكورا

ثم نشأ بعد تلك الطبقات طبقة أخذوا معلوماتهم عن هذه
المؤلفات الرديئة فلم يحظوا من العلوم بظائل ولا بلوا بمائها لهواتهم وان
لقبوا بالعلماء في عصرهم ونشأت فيهم ناشئة الحرص على استبقاء
الذكر فالفوا مؤلفات رتب معانيها وألف ألفاظها استعدادهم الذي
استفادوه مما قرأوه من تلك الكتب وانتشر ذلك عنهم بين أيدي
الناس فأكثر ما ترى اليوم من الكتب فهو من آثار أولئك الذين نصف
لك حالهم في تعليمهم وتأليفهم

فصل - فاذا كان هؤلاء معذورين بما بسطناه آنفاً فأي عذر لنا
نحن في أخذ كتبهم والعكوف عليها بعد أن علمنا انها مضره للعلم قاطعة
عنه أو ليست مضره كما يقول عبادهما لكن في مؤلفات اسلافنا ما هو
خير منها وأسهل وأقرب تناولا

وقد تتبعنا حجج الناصرين لهذه الكتب المتداولة بيننا والذابين
عنها فوجدناها لا ترجع الى محصل ولا تنتهي الى شيء يمكن الارتكان

عليه في نصرتها ورفع شأنها ووجدنا ان كل ذلك يدور على شيء واحد وهو المحافظة على العوائد القديمة والمألوفات الموروثة مهما كانت رداءة وانحطاطا

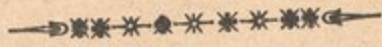
فصل - ومن أقبح آثار هذه الكتب وأشدّها ضرراً أنها تضعف الفكر وتفسد العقل وتقلل الإدراك وتقضى على الشعور ومن أغرب ما رأيت من قبيح آثارها أنه .. أقيم احتفال في بعض السنين في الجامع الأزهر بجلوس سموي خديوي مصر الحالي على أريكة الخديوية فحضر ذلك الاحتفال شيخ الإسلام وقاضي مصر المرحوم فن دونهما ممن ينسب إلى العلم وجم غفير من ذوات مصر ولنا إذ ذاك صديق بمصر من أدباء الأتراك وذوى الفضل فيهم فسألناه ان يزور معنا الأزهر لحضور هذا الاحتفال وكنا نظن أننا سنباهيه بهذا المجمع الذي لا يتفق مثله في بلادهم فلما حصلنا في الأزهر حيث أقيم الاحتفال وتسكملت وفود الناس من سائر الطبقات قام أحد كبار علماء الأزهر فتلا على الحاضرين ورقة ملخصها أنه في ليلة كذا (ليلتنا تلك) احتفل شيخ الجامع الأزهر ومدرسه وطلبته وجمع من ذوات مصر وأعيانها بعيد جلوس سمو الخديوي المعظم على أريكة الخديوية السامية احتفالاً جامعاً لمظاهر الأبهة والجلال والحسن والكمال وختم الاجتماع بالدعاء للسدة الملوكية

والحضرة الخديوية وبعض ذلك لم يكن حصل إذ ذاك
 نظرت الى رفيقي التركي فرأيتهم قد طبق أجفانه كأنه نائم .. فقلت
 أظن ان المجلس قد طال عليك ونالك من السآمة والملل ما جعل للنعاس
 عليك سبيلا .. فقال كلا .. وانما أطبقت أجفاني لثلا أرى بعيني
 ما أسمعه بأذني فأضيق على الخطيب فائدة الخبر

فداخلى من الخجل ما لم أملك دفعه ولم أجد عذراً أقدمه عن
 الشيخ الخطيب ثم علمت بعد ذلك ان قوما اعترضوا على الشيخ بمش
 ما اعترضنا به فكان من اعتذاره انه كان أعدتلك الخطبة ليقوم بها بين
 يدي الجناب الخديوي بعد احتفال أهل الازهر ليطلع سموه على
 مكانته في قلوب الازهريين واتفق ان الجناب الخديوي سافر قبل
 احتفال أهل الازهر لجهة أو كان مسافراً ولم يحضر فقام الشيخ خطيباً
 بها بين الازهريين يخبرهم بما كانت منهم ويفترى عليهم شيئاً لم
 يصدر عنهم

أفترى ان هذا الشيخ لو كان تلقى الفنون التي يتداولها أهل
 الازهر من كتب العقلاء كان يصدر عنه شيء من هذا الذي حكيناها
 عنه ولكنه عود فيكره على شيء فاعتاده والعقل قوة من القوى
 كالجوارح وعمله كأعمالها فكما ان الجوارح اذا عودت على خسيس
 الأعمال كالسرقة اعتادته وألفته حتى ما تقلع عنه ولم تمتد الي صالح

فكذلك العقل اذا انتقشت فيه العقائد الفاسدة والمعلومات الرديئة أظلم
وصدأت مرآته حتى ما يرتسم فيه شيء ينفع



﴿ علم الحديث وتوابعه ﴾

هذا العلم أحد أركان الدين على ما قدمنا من القول وفائدته
كفائدة علم التفسير وكل ما قيل في علم التفسير يقال فيه سواء بسواء
وهذا على ما علمت من أهميته شقيق علم التفسير في قلة العناية
به والانتفات اليه كما كان شقيقه في حاجة المسلمين اليه وفي توقف
الدين عليه لأنه أحد أركانه التي يقوم عليهما

فليس في المدارس الاسلامية كافة من ينظر في كتب هذا الفن
أو شيء من توابعه .. فعلم ناسخ الحديث ومنسوخه على شدة الحاجة
اليه وتوقف الاحكام عليه لا يوجد له ذكر أصلا بين طلاب العلوم
الشرعية .. وعلم رجال الحديث المسمى بعلم الجرح والتعديل كرفيقه
لا يوجد له ذكر أصلا مع ان الاحاديث لا يعلم كونها مقبولة أو
مردودة الا بعد معرفة أحوال روايتها وعلم مصطلح الحديث الذي به
تعرف مراتب الاحاديث من صحة وحسن وارسال وضعف وانقطاع
واعضال وشدوذ وغير ذلك مع معرفة أحكام كل مرتبة من هذه

المراتب ان وجد في بعض المدارس الاسلامية فوجوده ضعيف لا يكفي في الغرض المطلوب منه ولا يفيد الفائدة التي دون من أجلها وقد يظن بعض الناس ممن يتعاطى النظر في العلوم الشرعية انه قد وقعت الغنية عن علم ناسخ الحديث ومنسوخه بتدوين كتب الفقه والفراغ منها والوصول بها الى حيث لا يحتاج الانسان للتطلع الى كتب الاحاديث وعن علم رجال الحديث بتدوين المسانيد والمصنفات والجوامع وعن علم مصطلح الحديث بذكر مراتب الحديث في بعض الكتب

وكل ذلك خطأ ولده قلة العناية بأمر الدين وما هو مقصود بالذات من العلوم والاشتغال عنه طول العمر بعلوم المبادئ التي هي انما تقع منه موقع الوسائل من المقاصد أو علوم الاوهام والخرافات التي يشتغل بها الانسان عمره ثم لا يعرف لها نتيجة ولا يستفيد منها فائدة

فأما قولهم انه قد بطلت الحاجة الى علم ناسخ الحديث ومنسوخه بتدوين كتب الفقه... فكتب الفقه وان كثرت فيها الفروع والاحكام فلم تستوعب كل ما جاء في الاحاديث لعدم اطلاع كل واحد من الائمة المجتهدين على كل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث... ثم ان الاحاديث ليست كلها في التشريع وبيان الاحكام الفرعية العملية بل منها ما هو في العقائد ومنها ما هو في الاخبار عن

حوادث المستقبل ومنها ما هو في الاخلاق ومنها ما هو في شرح
السعادة الدنيوية ومنها ما هو في شرح السعادة الاخروية والشقاء
الاخروي ووصف نعيم الدار الآخرة وعذابها وشقائها الى غير ذلك مما
لا يكاد يدركه الحصر ولا يستوعبه العدد .. وبعض هذا الذي ذكرنا
يقع فيه النسخ فتكون الحاجة ماسة لمعرفة تواريخ الأحاديث
وأحكامها عند التعارض

ومما ذكرناه أيضاً تعلم شدة الحاجة الى علم رجال الحديث فان
كتب الصحاح لم تستوعب كل أحاديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وإنما تقل كل واحد منها ما سمعه ورواه وصحت طرق روايته
عنده وبقيت وراء ذلك أحاديث صحيحة لم تدون في الصحاح وفيها من
الاحكام والفوائد ما لا غنية بنا عنه ولا يمكن الوثوق به الا بمعرفة
حال رواته ودرجاتهم في العدالة والضبط في الرواية .. وكذلك
مراتب الأحاديث لم تبين كلها في كتب الاحاديث فما زالت الحاجة
ماسة للكشف عنها ومعرفة

على ان هذه العلوم على كونها من أجل العلوم الشرعية فائدة
وأكثرها عائدة فهي أقل العلوم قواعد وأندرها ضوابط والانسان
في وسعه تلقيها في أيسر زمن وفي المراجعة في كتبها بعد ذلك
الوصول الى المقصود منها وإنما لو قيست بعلم من هذه العلوم التي يفنى

طلاب العلوم الشرعية أعمارهم في تحصيلها على غير فائدة فيها لم تحتاج إلى عشر معشار ما تحتاج إليه هذه العلوم الآلية من الزمان ولكن ذهب زمان العلوم الشرعية النافعة التي هي أساس الدين الاسلامي وانقرضت دولتها فهجرتها حتى من ينتسب اليها وتوجهت نحوها سهام الطاعنين واعتراضات الناقدين وصار أمس الناس بها رحما أكثرهم لها قطيعة ٠٠ ولقد رأيت شيخا من شيوخ العلم بمصر وقف على أحد باعة الكتب يشتري منه كتابا من كتب الحكايات الأدبية فلما أخذ الكتاب وجد فيه على زعمه بيتا لآحد الشعراء مختل الوزن فدلسه على البائع تأنيبا ولو ما كان فيما قال له (يا أستاذ ان هذا من الكتب الأدبية وليس من الكتب الفقهية فتساهلون في أمر تصحيحه) فانظر كيف جعل هذا الشيخ الأزهرى إفساد كتب الحكايات والشعار فوق إفساد كتب الفقه مع ما في إفساد كتب الفقه من تحليل الحرام وتحريم الحلال

وهذا أيضا هو سبب استنكار الناس أحوال المحاكم الشرعية في الممالك الاسلامية وإكثارهم من الاعتراض عليها وعلى سيرها وقوانينها والحاحهم في طلب اصلاحها وقلب نظاماتها على ان المحاكم الشرعية في كل مصر من الامصار كحال المحاكم النظامية في ذلك المصر سواء بسواء وكل ما قد يوجد من اختلال في المحاكم الشرعية يوجد

مثله يمثل كميته في المحاكم الأخر إلا أن المحاكم الشرعية مظلمة بادبار
الأيام عنها وتلك مشرقة باقبال الأيام عليها فلذلك يستنكر الناس من
أمر الأولى ما يستحسنون من الثانية والكمال البشري ما وجد ولن
يوجد والانصاف في الناس قليل والاعتدال نادر وقل أن تجد مادحا
أو قادحا الا وقد ركب متن الشظط واعتسف

وربما حملك ما تسمع من كثرة اللفظ في الشرع والشريعات
والاسلام والمسلمين على الظن بان محي الشرع والاسلام كثيرون
والراغبون في رجوع الاسلام الى مثل حاله الأولى وخروجه عن هذه
الوهدة وليس كذلك بل مصدراً أكثر هذه الاقاويل أمران محبة
التقاليد الجديدة واستحسان ما استحسنته واستقباح ما تستقبحه ومن
ذلك تقاليد الدين الاسلامي الذي كان رغماً للمعاطس والثاني المحافظة
على التقاليد القديمة عن الآباء الموروثة لما في خروج النفس عنها من
المشقة عليها وان علمت ان الحق في ضدها فراراً من وصمة الاتصاف
بما ليس بحسن فنتيج لهؤلاء الناس في اجتماع هاتين المحبتين في قلوبهم
الميل الى الجمع بين التقاليد القديمة والحديثة بتصوير الأولى بصورة
الثانية وادعاء انها لا تخالفها وان كان قد حصل للصورة الأولى بعض
تغيير فمن آثار المتلاعبين حرصاً على عدم تقويت أحد المحبوتين
ولذلك كنا نساء مما يسر به كثير من الناس من هذه النهضات

التي يظنون أنها بعض الوسائل لترقي الاسلام ورجوعه الى مثل
ما كان في القرون الاول ٠٠ ونحن نرى انها سير الى هدم البقية الباقية
من ابنية الدين من طرق أقرب من الطرق التي كان يسلكها المسلمون
من عدة قرون غبرت

فالطرق القديمة طريقة المحب الجاهل الذي ربما أضر من حيث
يريد النفع وربما اتفق له النفع والطرق الحديثة طرق العدو العاقل
البصير الذي يري ان حياته يموت هذا الدين أخذناها عنه ونهضنا
للعمل بها

فما أشبه هذا الدين بين أيدينا كلنا معاشر المسلمين من مظلمين
ومتنورين بجدار لقوم حدث فيه وهن وثلوم فتر كه أهله وأعرضوا
عن رأب صدعه واصلاح ثلمه وسد خرقة قبل اتساعه وما زال
كذلك في وهن وتلاش حتى صار بحيث يخشي سقوطه فاجتمع أهله
ينظرون في إصلاحه فقال قوم انه ثابت مكين لا بأس عليه ولا يمكن
سقوطه وقال آخرون ان عوامل الفساد قد لعبت في أساسه على وهن
فيه فأضعفت الجدار فليس من طريقة لاصلاحه غير هدمه ونقض
أساسه ثم إعادته على شكل آخر نأمن بعدها سقوطه علينا وطال
نزاعهم في ذلك فأى فريق من الفريقين فرض غلبته الآخر على أمره
فالجدار مهدوم لا محالة وليس الرأي إلا في ترميمه وكف عوامل

الخراب عنه لا في تركه على حاله ولا في تقضه وإعادة بنائه
 ولولا ان هذا ليس من موضوع كتابنا لأشبعنا الكلام عليه
 ولو فينا حقه من الايضاح والبيان وربما عقدنا لذلك مقالا على حدة
 بينا فيه سوء آثار هذه النهضة على الاسلام وبنينا كيف ينبغي ان تكون
 النهضة وما الذي ينبغي ان يحرص عليه

هذا مقدار غناية طلاب العلوم الشرعية بعلوم الأحاديث النبوية
 وبعض الناس لهم غناية بمتون الحديث الا أنهم جعلوا الغاية من هذه
 الكتب التبرك بها وبرواتها فحظهم سماع ألفاظها دون فهم معانيها التي
 قيلت للدلالة عليها والله المستعان على ذلك وليس ما كل ما يعلم يقال
 أما كتب هذا الفن المتداولة بين الناس فهي جيدة لا ينقصها
 الا الانتفاع بها وحسبك بكتب الصحاح الست ويمكن للانسان ان
 يستثني منها مؤلفات السيوطي كالجامع الصغير ومختصراته فقد علمت
 مما سبق ما فيها من ضعيف وموضوع من الأحاديث على لسان رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وشرح الجامع الصغير لم يوفق الله أحدا منهم
 لتخريج أحاديثه وبيان صحيحها من سقيمها ومن لنا بمن يحذر المسلمين
 من تداول هذا الكتاب الذي لا يتميز فيه حق من باطل .. أو ليس
 من الغريب ان يكون اعتناء طلبة العلوم الشرعية بهذا الكتاب فوق
 اعتنائهم بالبخاري وشروحه على انه أصح الكتب المصنفة في الحديث

ومن خير شروح البخارى المتداولة بين الناس شرح ابن حجر
العسقلانى عليه أما شرح العيني فأكثره حشو وزوائد لا تجدى ولا
تفيد ولو ان مؤلفه اقتصر على قدر الحس من كتابه هذا لكان أوفر
له وانظر للناس في كتابه ولكن جرت عادة أكثر المتأخرين
بالتوسع في التأليف والا كثار من الكلام فيها بكل غث وThin وبما
يناسب وما لا يناسب رغبة في تكبير حجم الكتاب وزيادة عدد
كراريسه . . . وجاء القسطلانى بعدها فأخذ من شرح ابن حجر أظهر
مسائله فجعل منها شرحه على البخارى ووسع في حجمه بتكرير ضبط
أسماء الرواة حيثما وردوا وهو على علته خير من شرح العيني
وأقرب تناولا

ومن كتب الحديث كتب الرقائق (المواعظ) كدرة الواعظين
وتبنيه الغافلين وتبنيه المغترين وموعدنا بالكلام على هذه الكتب
وبيان مفاسدها وآثارها السيئة على الدين القسم الثانى من هذا الكتاب
وهو قسم الارشاد فانها بذلك القسم أمس وأكثر تعلقا ولأنها وان
كانت كما يستعملها العامة يستعملها طلبه العلوم الشرعية الا أن استعمالهم
اياها في حلق دروس الوعظ لا في المدارس المؤسسة لتعليم علوم الدين



﴿ علم التوحيد ﴾

اختلفوا في موضوع هذا الفن اختلافاً كثيراً لا يكاد يحصى ولا
 يحصر فالمتقدمون من المتكلمين جعلوا موضوعه ذات الباري جل شأنه
 من حيث اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن سمات النقص وعن
 أفعاله في الدنيا من خلق العالم جواهره وأعراضه وإرساله الرسل
 وأفعاله في الآخرة من بعث الناس ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء
 بإساءته ثم اتسع الموضوع فما زال في اتساع حتى جاء نحر الدين الرازي
 ومن أخذ عنه فقالوا إن موضوعه المعلوم من حيث هو معلوم ! وفائدة
 إرشاد المستر شدين ورد شبه المفسدين في الدنيا والفوز بالسعادة الباقية
 في العقبي على ما يقول أهله في كتبهم

ونحن نبين هنا بعون الله وتأييده أن هذا العلم من العلوم المضرة
 وأنه يجب تركه والأعراض عنه كلية وأنه يضاد ما كان عليه النبي صلى
 الله عليه وسلم ومن بعده وترتب الكلام فيه على ثلاث مقالات (المقالة
 الأولى فيما) ورد عن سلف الأمة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 والتابعين وتابعي التابعين وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بانهم
 في الدين خير ممن بعدهم من أهل سائر القرون من ذم هذا العلم
 والنهي عن الخوض فيه والتحذير منه (المقالة الثانية) في ذكر شيء
 من مقالات المتكلمين وبيان ما فيها من الفضاة والمخالفة لدين الإسلام

ونختم هذه المقالة بفصل نيين فيه ان أكثر هذه الأقاويل والمذاهب التي ظهرت بين المتكلمين وانتشرت عنهم سببها التعصب وانتصار كل واحد منهم لطريقته فان كانت تؤدي الى لوازم فاسدة التزمها ولم يتنازل عن رأيه الأول (المقالة الثالثة) في بيان طريقة السلف في العقائد الدينية ومتشابهات القرآن: سالكين في هذا كله طريق الايجاز والاختصار فانا لو أردنا ان نبسط الكلام على هذه المواضيع الثلاثة التي فتحنا باب الكلام عليها ونوفيها حقها من الشرح والبيان لخرجنا بالقارئ من فضاء الراحة الى ضيق السامة والضجر ٠٠ على أن في هذا الايجاز بلاغا الى ما قصدنا اليه من الوقوف بالقارئ على ضرر هذا العلم وسوء تأثيره على الاسلام والمسلمين

وعلينا لقارئء كتابنا صدق الحديث وتحري الحقيقة وترك الاعتساف ولنا عليه في كل ما كتبناه ولا سيما في هذا الموضوع ان لا يعجل بالاعتراض علينا اذا لاح له اعتراض قبل استيفاء البحث واجادة التأمل وان ينصفنا من نفسه ويخرج لنا عن عادته كما أنصفناه من نفسنا وخرجنا له عن عادتنا وان يظن بنا خيراً فيما عسى ان يضل به الفكر ونفقد فيه الصواب والله لنا وله خير حسيب

﴿ المقالة الأولى ﴾

(في ذكر ما ورد عن السلف الصالح من ذم هذا العلم والتنفير عنه)

روى ان قوماً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خاضوا
 في البحث عن القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام فهذا أمر تم وقال
 انما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال أولفظ هذا معناه فلم يرض
 صلى الله عليه وسلم من أصحابه الخوض فيما كتب فيه المتكلمون
 أهل الكلام على اختلاف آرائهم مجلدات كثيرة وزعموا انهم يتقربون
 بذلك الى الله تعالى ويتحرون ما فيه رضاه ورضا رسوله

وفي حديث مسلم ان رجلاً من أهل مصر يسمى صبيغاً دخل
 على عمرو بن العاص وهو بمصر يسأله عن معنى قوله تعالى (الرحمن على
 العرش استوى) فقال له ليس عندي علم ذلك واني مرسلك الى من
 عنده علم ذلك فأوفده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتب اليه
 معه كتاباً يقول فيه يا أمير المؤمنين ان هذا الرجل يسأل عن متشابه
 القرآن فلما قدم صبيغ على أمير المؤمنين عمر وقرأ كتاب ابن العاص
 غضب حتى استبان ذلك في وجهه وعلاه بالدرة فما زال به حتى قال له
 يا أمير المؤمنين لم يبق والله في رأسى شيء مما حدثت به ثم نفاه الى
 البصرة وأمر ان يهجر سنة فلا يكلم فلم يكن جواب مسأله عند
 عمر رضي الله عنه غير ضربه ونفيه وأمر الناس بهجره ولو أن فيما
 أجاب به أهل الكلام المبتدع بتفسير استوى باستولى خيراً لأجابه
 عمر به واحتج له بألف بيت كبيت

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
ولكنه رأى ان نفس السؤال تشويش في الدين ولا يقع الجواب
عنه الا بالدرة

وفي كتاب الجوامع العوام لابي حامد الغزالي ان رجلا جاء الى عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه يسأله عن القرآن أهو مخلوق أم لا فتعجب
عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به الى علي بن أبي طالب رضى الله
عنه فقال يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول يا أمير
المؤمنين قال الرجل سألته عن القرآن أهو مخلوق أم لا فوجم لها
رضى الله عنه وطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا
نبأ في آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه
.. وروى أحمد بن حنبل هذا عن أبي هريرة قال أبو حامد فهذا
قول علي بحضور عمر وأبي هريرة رضى الله عنهم ولم يقولوا له ولا
أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف علي رضى الله عنه في نفسه
ان هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله وطلب معرفته
لصفة القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل
المعرف لاحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد
فانظر الى فراسة على واشرافه على ان ذلك قرع لباب الفتنة وان ذلك
سينتشر في آخر الزمان الذي هو موسم الفتن ومظيتها بوعد رسول

الله صلى الله عليه وسلم وانظر الى تشديده وقوله ولو وليت لضربت
 عنقه .. فمثل أولئك السادة الاكابر الذين شاهدوا الوحي والتنزيل
 واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال صلى الله عليه وسلم في
 الاول لو لم أبعث لبعث عمر وقال في الثاني أنا مدينة العلم وعلى بابها
 يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين
 بالكلام والمجادلة وممن لو انفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّاً أحدهم ولا
 نصيفه ان الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض في الجواب
 وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه انه محق وفي علي وعمر انهما مبطلان
 هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة
 بالحدادين ورجح المجادلين علي الأئمة الراشدين والسلف انتهى كلام
 أبي حامد الغزالي

ودخل رجل علي مالك بن أنس يسأله عن قوله تعالي (الرحمن
 على المرش استوى) فقال في جوابه الاستواء معلوم والكيف مجهول
 والايان به واجب والسؤال عنه بدعة .. ودخل أبو حنيفة علي ابنه
 حماد وهو يناظر رجلا في القدر فزجره وقال اياك ان تعود الي مثل
 هذا والخوض فيه مرة ثانية : ودخل عليه بشر المريسي يناظره في
 الكلام فانههره وقال له اخرج عني يا كافر : وروى أبو يوسف قال كنا
 جلوسا عند أبي حنيفة اذ دخل جماعة في أيديهم رجلان فقالوا ان

هذين يقول القرآن مخلوق وهذا ينازعه ويقول هو غير مخلوق قال لا تصلوا خلفهما قال أبو يوسف قلت أما الأول فنعم لأنه لا يقول بقدوم القرآن وأما الآخر فما باله لا يُصلى خلفه فقال إنهما يتنازعا في الدين والمنازعة في الدين بدعة: وتقل الزاهدي في كتاب التلخيص عن أبي حنيفة أنه كان لا يجوز الصلاة خلف المتكلم يرى أنه مبتدع وعنه من رواية أبي يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء افتقر ومن طلب غريب الحديث كذب

وقال الامام الشافعي حكى في أهل الكلام ان يضربوا بالجرید والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة .. وقال

كل العلوم سوى القرآن مشغلة الا الحديث وإلا الفقه في الدين العلم ما كان فيه قال ح. ثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين ومن كلامه أيضاً لان يلقى العبد الله بكل ذنب خلا الشرك خير له من ان يلقاه بعلم الكلام .. وقال لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله .. وقال اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له .. وقال أيضاً لو علم الناس ما في هذا الكلام من الاهواء لفروا منه فرارهم من الاسد

وعن أحمد بن حنبل أنه قال علماء الكلام زنادقة .. وقال لا يصلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل وقد بالغ فيه حتى هجر الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه حين ألف كتاباً في الدر على المبتدعة وقال له ويحك أأنت تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم .. أنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في الشبهة فيدعوهم ذلك الى الرأى والبحث والفتنة .. الى غير ذلك من أقوال الائمة مما لو أردنا نقله لاتسع مجال المقال

فصل - واذا كنت لا تقنع بما نقلناه لك من قول عمر وعلي وأبي هريرة وأئمة الدين أصحاب المذاهب المتبعة المشهود لهم بالصلاح وتحري طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتأولت لذلك التأويل التي تراها في كتب علم الكلام فأنا أنقل لك من أقوال علماء الكلام ممن وفقه الله قبل موته الى ترك هذا العلم الممقوت والرجوع عنه الى طريقة السلف بعد ان اشتغل فيه زمناً طويلاً وألف فيه كتباً كثيرة ما يحتاج به صدرك وتحس به يبرد الحق ان شاء الله

فهذا أبو الحسن الأشعري امام المتكلمين في عصره وشيخ أهل السنة والجماعة رجع في آخر عمره عن كل معتقداته التي أخذها من علم الكلام وذكر في كتابه الابانة وهو آخر مؤلفاته انه رجع في عقائده الى مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه الذي هو مذهب

الصحابة والتابعين

فما أجدر هؤلاء الذين ينتسبون اليه في عصرنا وبتحلون عقائده
 ويقتدون به ان يرجعوا الى مثل ما رجع اليهم امامهم ويطرحوا كتب
 البدع والخرافات بعد ما تبين لهم من رجوع امامهم عما هم عليه اليوم
 .. ولا يحملهم التعصب الباطل والتمسك بما وجدوا عليه أسلافهم على
 الوقوع في الاشعري والطعن فيه لرجوعه بعد ما مكثوا زمنا يقتدون
 به ويحتجون بقوله كما فعل يهود خيبر بعبد الله بن سلام حين سألهم
 النبي صلى الله عليه وسلم عنه ولم يكونوا علموا اسلامه فقالوا هو خيرنا
 وابن خيرنا وعالمنا وابن عالمنا فلما أخبرهم باسلامه نقضوا مقالهم آنفا
 وأكذبوا أنفسهم وقالوا هو شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا
 :فشر الجهل ما أفضى الى مثل هذا التعصب الوخيم

وأبو حامد الغزالي على كثرة اشتغاله بهذا الفن وكثرة مؤلفاته
 فيه انتهى به البحث الى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض
 عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فبات والبخاري على صدره وقد نقلنا لك طرفا من كلامه في ذم هذا
 العلم في حديث عمر وعلى السابق .. وابن رشد الحفيد أطول الناس
 باعا في هذا الفن واعلمهم بمذاهب الفلاسفة والمتكلمين ومقالاتهم
 قال في كتابه تهافت الفلاسفة ومن الذي قال في الالهيات شيئا يمتدبه

والآمدى أفضل أهل عصره وصاحب المذاهب المشهورة في الكلام
توقف في آخر عمره وتخير .. والامام نضر الدين الرازى على ما علمت
من حاله في هذا العلم قال في كتابه الذى صنّفه في أقسام الذات
نهاية أقدم العقول عقل غاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسامنا وحاصل ديانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا
وقال فيه ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما
رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن
اقرأ في الاثبات الرحمن على العرش استوى واليه يصعد الكلم الطيب
واقرا في النفي ليس كمثل شئ ولا يحيطون به علما ومن جرب مثل
تجربتي عرف مثل معرفتي .. وقال أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
الشهرستاني يذكر حيرة هؤلاء الاقوام

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادِم
وقال امام الحرمين يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام فلو عرفت ان
الكلام يبلغنى الى ما بلغه ما اشتغلت به .. وقال عند موته لقد
خضت البحر الخضم وخنيت أهل الاسلام وعلومهم ودخلت فيما
نهبوا عنه فان لم يتداركنى ربي برحمته فالويل لابن الجونى وها أنا ذا

أموت على عقيدة عجائز نيسابور وقال الخونجي عند موته ما عرفت مما
 حصلته شيئاً سوى ان الممكن مفتقر الى المرجح ثم قال الافتقار وصف
 سلبى أموت وما حصلت شيئاً .. وقال خسر وشاهي وكان من أجل
 تلامذة نخر الدين لبعض من دخل عليه ما الذي تعتقده قال الذي
 يعتقده المسلمون قال وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به قال نعم
 قال إشكر الله على هذه النعمة ولكني والله لا أدري ما اعتقد كررها
 ثلاثاً وبكي حتى اخضل لحيته

وقال آخر اضطجع على فراشي واضع الملحفة على وجهي وأقابل
 بين حجيج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجع عندي منها
 شيء ومن وصل به الحال الى مثل هذا نندق ان لم يتداركه الله برحمته
 وقد اتفق لي مثل ذلك كثيراً حين كنت اشتغل بهذا العلم
 الممقوت فربما خرجت في حاجة أقضيها فاشتغل فكري بالنظر في
 هذه المسائل وتعرف الصواب فيها فما أشعر الا وأنا في مكان بعيد
 عن المكان الذي خرجت أريده وربما كان الوقت المناسب لقضاء تلك
 الحاجة قد فات فتعطلت على مصالح نفسي بسبب كثرة اشتغال الفكر
 بهذه المسائل

واذكر اني وقفت يوماً بالصلاة المغرب أول ما أذله وكنت قبل
 ذلك بأيام انظر في بحث علم الباري من شرح جلال الدين الدواني

على العقائد العضدية الذي تحيرت فيه على ما يقول الجلال افهام العقلاء
وانقسموا الى أربعة مذاهب فلما أحرمت بالصلاة عرض لي هذا
البحث فما زالت مستغرقة بالنظر فيه واستقرأ الاقوال وتبين الصواب
فيها وأنسيت الصلاة حتى صاح المأذن للعشاء فانقضت عني تلك
السحابة وعادت الي الحواس فلولا اني على هيئة المصلي مستقبلاً
للقبلة لم أعرف ما الذي أقامني هذا المقام لشدة اشتغال البال واستغراق
الفكر في هذا البحث العقيم

هذا قليل من كثير مما ورد عن الصحابة والتابعين وخيار الامة
وأهل الاجتهاد ومن وفق للتوبة من أهل الكلام نقلناه فمن يرد الله
به خيراً وفقه لترك هذا العلم ونبد كتبه الممقوتة والتمسك في الاعتقاد
بظاهر كتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم كما كان السلف
الصالح ومن حرمه الله التوفيق أوقع في قلبه هجر كتاب الله وسنة
رسوله ووجب اليه التمسك باهداب المواقف والمقاصد وسائر كتب البدع
والخرافات في العقائد فتنه له في دينه ثم ان ربك لبالمرصاد

واعلم ان ابن المعلم هازل بأصحابه والباقلاني أهزل

ومن أعجب العجب ان أهل الكلام المبتدع المذموم يقولون ان
طريق السلف في ترك النصوص على ظواهرها وعدم تأويلها أسلم في
الآخرة وأقرب للنجاة وطريقنا في التأويل وصرف الالفاظ القرآنية

عن ظواهرها اعلم . . وان رجلا يفنى وقته ويقطع مادة عمره في
ابحاث ربما صرق بها عن الدين وحقت عليه بها كلمة العذاب لمجرد ان
يقال عنه ان قد سلك طريقة النظر وترك الالتجاء والتسليم لمخدول
محروم من التوفيق ونعوذ بالله من مثل ذلك

﴿ المقالة الثانية ﴾

(في ذكر شيء من مقالات المتكلمين المخالفة لحقيقة الدين الاسلامي)
أهل هذا العلم والمكثرون من النظر فيه أحد رجلين رجل ساءته
محاسن هذا الدين وسهولته وقربه من العقول وملاءمته للفطر وموافقته
لافكار البشر كافة فهو يبدع مقالات في الزيف والاحاد يشوه بها
محاسن هذا الدين الحنيف السهل وينفر منه العقول الداعية اليه ويبعد
عنه الفطر القريبة منه لينفر عنه من أقبل عليه وهجر ما سواه من
الاديان لملاءمته للفطر وموافقته للعقول فهذا رجل ليس من أهل
الدين وانما هو من أعدائه الذين ساءهم رقيه وانتشاره وأعجزهم الوقوف
امام تياره الجارف فعمد للنكايه فيه باسمه ليتمكن مما يريد من ابناؤه
مع المحافظة على نفسه بجمهور من أهل الدين الذين كثيراً ما يشتهبه
عليهم الدين بما ليس منه . . وأكثر فرق المتكلمين من هذا القبيل
ومن تتبع مقالاتهم علم صحة هذا الذي قلناه وسترى شيئاً منها فيما
سياتي من الكلام

والثاني رجل أراد ان يحقق للناس ماهيته ويشرح لهم كيفية الاتصاف به حتى لا تكون نسبة المنتسبين اليه نسبة اسمية خالية عن التحقق به والاتصاف بحقيقته فخرج به البحث عن الدين ووقع في شيء من الاحاد وهذا رجل حسنت نيته وساء عمله فطلب الدين لا من الجهة التي يطلب منها ودخل اليه من غير بابِه وأصل للوصول اليه أصولا لم يؤصلها الله ورسوله وهذا حال قليل من فرق المتكلمين الذين قضوا عمراً طويلاً في البحث في العقائد واقامة الدلائل عليها والاكثر من الانظار فيها

وقد ظهر لكل فريق من الفريقين مقالات شنيعة في الاسلام تخالف حقيقة الدين الاسلامي أدى اليها الزيغ وسلوك صراط غير مستقيم في الوصول الى حقيقة الدين وكل فريق يزعم ان مقالته هي الاسلام وان الخروج عنها كفر أو فسق وانتشر ذلك بين الناس وتمصب لكل فريق قوم أخذوا بقوله وانتموا اليه وقبلوا كل ما جاء في قوله من حق وباطل وضاعت حقيقة الدين بين جماهير تلك الأقوال الباطلة لقلّة من ينشرها وينوه بذكرها بين الناس حتى لقد يؤلف مؤلف كتابا في مقالات أهل الاسلام فيذكر كل مقالة حدثت في الاسلام ويغض عن المقالة الصحيحة في الاسلام مقالة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة الصالح كأنها وهي الاسلام نفسه لا تضارع في

نظره أشنع مقالة من المقالات التي ذكرها في كتابه وأشتغل في
البحث عنها زمنا طويلا

ونحن انما قصدنا ذلك شيء من هذه المقالات الشنيعة لننبه أفكار
المسلمين الى مقدار ما دخل في الدين من الوهن المعنوي بسبب هذا
العلم المشؤم ولنستلفت أنظارهم الى وجوب ترك هذا العلم الذي
يحرصون عليه ويفنون في الاشتغال به أعمارا طويلا وليس من فائدة
فيه غير زعزعة أركان الدين ونقض أساسه

﴿ قولهم في الباري جل شأنه ﴾

قال قوم من أهل الكلام ان الباري جل شأنه وتعالى عما يقول
هؤلاء الملاحدة الاشرار جسم طويل عريض عميق طوله وعرضه
وعمقه سواء وهو كالسبيكة البيضاء الصافية يتلألأ من كل جانب
وله لون وطعم ورائحة وهو يقوم ويقعد ويتحرك ويسكن وله مشابهة
بالاجسام لولاها لم يدل عليه ويعلم ماتحت الثرى بشعاع يفصل عنه
اليه وهو سبعة أشبار بشبر نفسه مماس للعرش بلا تفاوت بينهما وان
العرش يثبط تحته أطيط الرجل الجديد تحت الراكب الثقيل: وقال
آخرون هو على صورة انسان له يد ورجل وحواس خمس وأنف
وأذن وعين وفم ونصفه الأعلى مجوف ونصفه الأسفل مصمت
الا انه ليس لحما ولا دماً: وقال قوم ان الله على العرش تحمله الملائكة

(٢٣ - التعليم)

وهو أقوى منها كالكركي تحمله رجلاه وهو أقوى منهما وقال قوم
ان الله تعالى نور غير جسماني وهو مع ذلك على صورة انسان . وقال
قوم ان الباري تعالى لا يعلم الأشياء قبل حدوثها وإنما يعلمها حين
حدوثها وعلمه كعلم خلقه سواء بسواء لا يمتاز علمه عنها بشيء وان كان
خالقاً لهم وهم خلقه . . . وقال قوم انه تعالى حل في بعض خلقه وسموا
جماعة زعموا ان الباري حل فيهم حتى ادعى الشيطانية وهم أصحاب
محمد بن لقمان الملقب بشيطان الطاق لعنه الله وحزبه ان الله تعالى حل
في أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة وانه لم يقتل . . . وقال قوم انه
جل شأنه خلق الخلق دفعة واحدة في آن واحد فليس آدم قبل عيسى
ولا عيسى قبل محمد صلوات الله عليهم أجمعين وكأنهم أخذوا هذه
المقالة من قول بعض الفلاسفة بالكمون والبروز ومعنى ذلك أن
الأشياء كلها موجودة دفعة وإنما كمن بعضها في بعض فهذا الترتيب الذي
يشاهد بينها هو من ترتيبها في البروز الى الاعيان واما في الوجود فهي
متقارنة . . . وقال قوم ان الله جل شأنه لا يقدر على ظلم العقلاء وإنما يقدر
على ظلم الصبيان والمجانين وهؤلاء الاسكافية أصحاب أبي جعفر
الاسكاف لعنه الله ولعنهم . . . وقال قوم ان ما يقع في هذا الكون من
الشرور كالمرض ونحوه خلق الشياطين لا خلق الله تعالى وكان أحدهم
يمر بالزمني والمجانين وأصحاب العاهات فيقول أرحم الراحمين يفعل هذا

بخلقه .. وقال قوم ان للعالم الهان قديم وهو الله ومحدث وهو المسيح وهو الذي يحاسب الناس يوم القيامة وهو المعنى بقوله تعالى وجاء ربك والملك صفاً صفاً وهو الذي يأتي في ظلل من الغمام وهؤلاء الخابطية أصحاب أحمد بن الخابط من اتباع النظام .. وقال قوم ان الله جل شأنه يفعل ما يفعل لا لغرض ولا لحكمة فنفوا حكمه في خلقه وأمره وقالوا ليس في كلامه لام تعليل ولا باء سببية وتأولوا كل ما ورد في القرآن مما ظاهره التعليل والسببية فهل ترى في هذه الاقوال ما ينطبق على القرآن والسنة الثابتة الصريحة وهل هذا الا زندقة والحاد في الدين

﴿ قولهم في صفات الباري جل شأنه ﴾

ورد القرآن وجاءت السنة الظاهرة بوصف الباري تعالى بانه عالم قادر مرید متكلم سمیع بصير الى آخر ما جاء في القرآن والسنة فليرض أهل الكلام المبتدع من أشاعرة ومعتزلة وغيرهم من أهل هذا العلم ان يعتقدوا اتصاف الباري بهذه الصفات التي وصف نفسه بها ويرجعوا فيما وراء ذلك من تفسيرها وكونها عين ماهيته أو زائدة عنها الى تسليم الامر لله جل شأنه والكف عن الخوض فيما لا مدخل للعقل فيه ولا في الاستطاعة الاهتداء اليه ولا ورد عن الصادق ما يشرحه ويفسره ويعرف طريقه بل ورد عنه النهي عن الخوض فيه ورأوا ان الامتناع عن الخوض في غمار هذا البحث نقص في قدر معلوماتهم التي لم تقف

بهم عند حد وقالوا في ذلك مقالات لا يقاربهما شيء في الشناعة والقبح
 هذا غير ما في نفس البحث من الشناعة لانه بحث عن ذات الباري
 واتصافه بأوصافه ولا يعلم كنه ذاته ولا كنه صفاته ولا كيفية اتصافه
 بها الا هو

فالمعتزلة تبعاً للفلاسفة أنكروا زيادة أوصاف الباري على ذاته
 وقالوا انه عالم بذاته لا يعلم زائد على ذاته قادر بذاته لا بقدره زائدة على
 ذاته وهكذا في سائر الصفات التي ورد بها السمع قالوا لان أوصافه
 جل شأنه لو كانت زائدة عن ذاته فان كانت جزءاً من الذات لزم ان
 تكون الذات مركبة والمركب حادث وان كانت خارجة عن تمام حقيقة
 الذات عارضة لها فاما ان تكون قائمة بنفسها قيام الجواهر أو تكون
 قائمة بالذات قيام السواد بالأسود والبياض بالأبيض فان كانت قائمة
 بذاتها وهي قديمة لزم تكثر القدماء وقد كفر النصارى بأبواب ثلاثة
 قدماء فكيف من يثبت ثمانية قدماء وان كانت قائمة بالذات فان كانت
 محتاجة الى الذات لزم احتياج القديم والاحتياج من امارات الحدوث
 وان لم تكن محتاجة للذات كانت جوهرًا قائمًا بذاته وتسميتها صفة
 وعرضا تسمية لا توافق الحقيقة فللفرار من هذه اللوازم الفاسدة قلنا
 ان صفات الباري عين ذاته

أما الأشاعرة فوقعوا في حيرة بين رد النصوص القرآنية الصريحة

في ان للباري صفات قائمة بذاته جل شأنه وبين دفع هذه اللوازم
 الفاسدة أو التزامها ولم يحدوا للخروج عن هذا الاشكال سبيلا
 عمدوا الى التهافت والقول بما لا يعقل ولا ينعقد عليه القلب فقالوا ان
 صفات الباري جل شأنه لا هي عين ذاته ولا هي غير ذاته وهذه عبارة
 امامهم أبي الحسن: ولعمري لا يعقل العاقل شيئاً له وجود اذا نسب الى
 شئ يقال انه لا هو عينه ولا هو غيره ومهما تكلف الانسان لهذه
 العبارة من الشرح والتفسير فلن يبلغ بها مرتبة تكون بها معقولة لا ينفر
 منها السماع فان كان مراد أبي الحسن بهذا القول ان صفات الباري
 الباري عدم في الخارج وانها لا يصح ان تكون موضوعاً لقضية
 خارجية فيحكم عليها بانها عين أو غير فقد رجع الى رأى المعتزلة
 والفلاسفة بعد ان مكث زمناً يرد عليهم ويسفه رأيهم

وجاء من المتأخرين نحر الدين الرازي فاستشنع مقالة المعتزلة
 لمخالفتها ظاهر القرآن واستصغر مقالة الأشاعرة لانها لا ترجع الى
 محصل يجتمع عليه الفكر فان أولت تأويلاً مقبولاً عادت الى مثل
 مقالة المعتزلة وعسر عليه التفصي من هذا المضيق فلجأ الى القول بان
 صفات الباري جل شأنه ممكنة لا قديمة فراراً عما ألزم به من تعدد
 القدماء لو كانت الصفات زائدة على الذات فوقع في شر مما فر منه وهو
 تجوز قيام الممكنات بالباري وكونه محلاً للحوادث وقد بالغ هو نفسه

في إنكار ذلك على الكرامية أصحاب محمد بن كرام الذين جوزوا ان
تقوم الحوادث بالبارى وواقفه على ذلك من أخذ قواعد هذا الفن
من كتبه كعضد الدين الايجي والشريف الجرجاني والسعد التفتازاني
الا أنهم حاولوا التفريق بين الممكن والحادث فراراً من شناعة مقالة
الكرامية فلم يأتوا في ذلك بشيء يسمع وينعقد عليه القلب

وجاء آخرون قالوا مقالة الرازي بإمكان الصفات فلما أورد عليهم
ان البارى لا يصح ان يكون محلاً للحوادث فروا عن ذلك الى ان
صفات البارى ليست قائمة به بل هي قائمة لا في مكان فخرجوا من
الزندقة الى الجنون فان صفة الشيء اذا لم تقم به فبم تقوم واذا لم تكن
قائمة بشيء فكيف تكون صفة وأى فرق بين الجواهر والأعراض
حينئذ ولكن المتكلمين اذا عضهم البحث لجؤوا الى أظهر الأشياء
بطلاناً وأوضحها فساداً فقالوا به والتزموه ونصروه واحتسب هذا
منه وسيمر بك شيء آخر منه في فصل على حدة كما وعدناك به في صدر
كلامنا على هذا العلم

وانما اضطرهم الى هذا الخبط كله الدخول بعقولهم فيما لا دخل
للعقل فيه ولو أنهم رجعوا في ذلك الى ظاهر ما ورد في القرآن والسنة
فاعتقدوه ديناً ووقفوا فيما وراء ذلك لأراحوا واستراحوا ولم يلقوا
أنفسهم في مهواة عميقة يتعذر الخروج منها والوقوف في هذا المقام

ليس قصوراً فيكون عيباً يتزهه الكامل عنه انما القصور ان يحجم المرء حيث يمكنه الاقدام فأما الاقدام حيث لا يمكن الاقدام ويتعين الوقوف فذلك جهل وطيش وتغريب بالنفس وقول على الله بغير علم واقتراء عليه والله جل شأنه يقول ولا تقف ما ليس لك به علم: أعاذنا الله من الخذلان

﴿ قولهم في التقييد في العقائد ﴾

قال جمهور المسلمين كل من اعتقد بقلبه اعتقاداً لا يشك فيه وقال بلسانه لا اله الا الله محمد رسول الله وان كل ما جاء به حق وبرىء من كل دين سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم فهو مسلم سواء كان اعتقد ذلك بدليل عقلي أو بغير دليل

وقال الأشاعرة وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري المجتهد إنه لا يكون مسلماً الا من اعتقد ذلك عن دليل والا فليس مسلماً وزاد أبو جعفر أنه اذا بلغ الغلام أو الجارية سبع سنين وجب تعليمهما وتدريبهما على الاستدلال على ذلك

وهذه مقالة شنيعة وتضييق شديد على المسلمين وقد رفع الله عنا الاصر والخرج ومخالفة صريحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة وخيارها فانهم كلهم كانوا يقبلون اسلام الاعرابي والرومي والعجمي والعبد والامة بمجرد النطق بالشهادتين بدون طلب

استدلال ولم ينقل انهم طلبوا ممن دخل في الاسلام دليله على
الوحدانية والرسالة لا حين اشتغالهم بالفتح ولا بعد رجوعهم الى
أوطانهم واستقرارهم في ديارهم ولو كان ذلك لازما لفعلاه في أحد
المواطنين وحاشا لله أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعث لدعوة
الناس الى الدخول في دين الله وخلع ما سواه من الانداد ونشر قانون
السعادتين بين الناس بالسنان بعد البرهان ويقول أمرت أن أقاتل
الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأني رسول الله الحديث يهمل
مطالبة الناس بالاستدلال على ما يعتقدون في حين أن حقيقة الايمان
لا تتحقق الا بالاستدلال

ثم بعد هذا كله فليت شعري ما هو حد الاستدلال الذي
لا يكون الانسان مسلما الا به أرى كل دليل يقوم عند الانسان على
الوحدانية وصدق الرسالة يكفي في التحقق بحقيقة الدين وان كان عليه
شكوك واعتراضات أو لا بد من دليل يكون خالي عن الشكوك
والاعتراضات حتى يكون كافيا فان قالوا يكفي أي دليل فقد أتونا
بالامر النكر وان قالوا لا بد من دليل لا يمكن الاعتراض عليه كلفوا
الناس ما ليس في وسعهم ولا يدخل في طاقة أحد منهم غير قليل من
الناس في طويل الدهر وكثير التنقيب والبحث وحاشا الخفيفة السمجة
من هذا التشديد

ويلزم على هذه المقالة أن يكون المسلمون كلهم اللهم الا نفرًا يسيرًا من أهل الكلام كفارًا لانهم قلّ أن يوجد فيهم المستدل على عقائد دينه وهذه مقالة شنيعة نبرأ الى الله من اعتقادها والذي نعتقد وندين الله به ان كل من اعتقد الحق الذي هو حق عند الله تعالى فهو محق مؤمن مستدلا كان أو غير مستدل ومن اعتقد الباطل الذي هو باطل مردود عند الله تعالى فهو مخطيء كافر سواء كان مستدلا أو غير مستدل لان دين الله بغير هذا

وانما اضطرهم الى هذه المهاوي العميقة الاعراض عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بادلة الكتاب والسنة والميل الى تحكيم العقل فيما لا حكم فيه الا الله والعقل لا يهتدى اليه ولا يعرف وجه الصواب فيه وهذه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بين أيدينا لا نرى فيها أنهم كلفوا أحداً بالاستدلال على ما دعوا اليه من الايمان ولو كان غرض هؤلاء الناس القدوة بمن تجب القدوة به لما خرجوا الى هذه المذاهب الفاسدة والاقوال الرديّة ومن أعجب العجب ان قوما من الاشاعرة غلوا وافرطوا فقالوا ان الايمان شرطه الاستدلال والاستدلال شرطه الشك لأن من جهلت نفسه شيئاً لم توجه لطلبه ومن جزم به لم يستدل عليه فالايان شرطه الشك فن لم يشك في الله ورسوله أولاً ثم يستدل لهما ثانياً (٢٤ - تعلم)

لا يكون مسلماً ناجياً من عذاب الله

وهذه في الشناعة بحيث لا زيادة عليها وأى شناعة أشنع من أن يكون الايمان مشروطا بالكفر الذي هو الشك لان الشك كفر ومثل هذا لولا أننا رأيناه في كتبهم لم نصدق ان مسلماً يقول به ومع ان مقالة الاشاعرة متفقة على اشتراط الاستدلال في الايمان لم يخالف في ذلك أحد منهم غير السمناني قاضي الموصل تلميذ البلاقاني فنحن نرى قوما من متأخري الأشاعرة يقدمون تقليد أسلافهم على استدلالاتهم ونتائج عقولهم وهذا من أغرب ما ينقل عن هؤلاء الناس .. وممن رأيناه يستن هذه السنة (الامير) من متأخري المصريين وأهل الشهرة فيهم تكلم في حاشيته على عبد السلام على الجوهرة في بحث زيادة صفات الباري وعدم زيادتها وبسط أدلة المخالفين ونظر في قول كل فريق منهم وتعرف حقه من باطله ثم قال مامعناه والذي يشهد له العقل ويوافقه البرهان ما ذهب اليه المعتزلة ولكن حيث ان أشياخنا أهل السنة والجماعة جروا على خلافه فنحن معهم وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد ولا أدري كيف استقام له القول بان تقليد النبي والصحابة في الاقرار بالوحدانية لا يكفي في الايمان ولا بد من الدليل والاكتفاء بتقليد مشايخه وان قام الدليل العقلي عنده علي بطلان ما ذهبوا اليه سبحانه

هذا بهتان عظيم

﴿قولهم في النبي صلى الله عليه وسلم﴾

ومن شنيع مقالاتهم في الاسلام قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه زمان ولا مكان يريدون بذلك أنه مامن زمان الا وهو فيه موجود ومامن مكان الا وهو فيه موجود وهذه المقالة الشنيعة لم نرها لاحد من المتكلمين المتقدمين منهم والمتأخرين ولا رأيناها في كتب العقائد ولا كنا نظن ان أحداً يقول هذه المقالة الشنيعة وانما ذكرها الشيخ يوسف بن اسماعيل النهباني البيروتي صاحب الكتب الكثيرة في الأدعية والصلوات في منظومة له سماها (طيبة الغراء) ناقلا لها عن البرهان الحلبي ذكر يوسف النهباني انه اطاع على رسالة الفها البرهان الحلبي في هذا الموضوع فطالعها وانتفع بها

وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه ومهما تأول الناس لاصلاح هذه المقالة الشنيعة فلن يجدوا الى الخروج عن قبحها سبيلاً . . . والامر لله ولا حول ولا قوة الا بالله

وياليت شعري أى دليل قام عند هذا الذي قال هذه المقالة حتى قال بها هل تلا في ذلك آية منزلة أو حديثاً صحيحاً ان قال ذلك فقد

كذب وشهد على نفسه بالكذب أو ساق الدليل الذي أورده
المتكلمون على أن الباري جل شأنه لا يحويه زمان ولا مكان في النبي
صلى الله عليه وسلم فحكم له بما حكم به للباري جل وعلا فهو عين
الشرك الصريح

ومثل هذه العقائد الفاسدة الباطلة الكاذبة يلقيها أهل الغفلة من
المتهمين للعلم في آذان العامة فتصادف منهم قبولا وتجمع عليها قلوبهم
حتى يصير من المتعذر نزعا من أذهانهم وربما كفروا من أنكرها
عليهم ورأوا أن إنكار ذلك نوع من الإلحاد في الدين واستخفاف
بصاحب الشريعة المطهرة صلى الله عليه وسلم

ومثل هذه العقيدة في الشر أو أقل منها فسادا دعوى بعض
المغفلين ممن ينتمون إلى العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع
ما كان وما يكون أو لم يقبض حتى اطّلع الله على جميع ما كان وما يكون
ولأهل هذه العقيدة دلائل على هذه المقالة الشنيعة كلها مبنية على
مقدمات فاسدة أوقعها في قلوبهم المبالغة في اطراء النبي صلى الله عليه
وسلم المنهي عنه بقوله لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وأحاديث
موضوعة كاذبة وقعت إليهم فاعتقدوا صحتها وهي مفتراة على رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويكفي لمن ينكر هذه العقيدة أنه لم يقم دليل
من كتاب أو سنة صحيحة عليها مع الجزم باتفاق الكل على أن النبي

صلى الله عليه وسلم كان يعرض له الامر فيتوقف فيه الى ان يأتيه
الوحي من الله به وحديث الأفك على الصديقة الطاهرة شاهد ومن
ادعى انه أفيضت عليه بعد ذلك العلوم فليأتنا بآية أو حديث ولا طريق
لأبواب مثل هذا الا الخبر الصادق

وهذه العقيدة هي الفرقان بين أهل السنة وبين المبتدعة عند
أكثر مسلمي الهند فمن كان يعتقد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان
يعلم جميع ما كان وما يكون فهو من أهل السنة والخير وان لم يكن
يعتقد ذلك فهو من أهل البدعة والفساد ولعلمائهم في ذلك رسائل
لا تكاد تحصى شحنوها بالدلائل الفاسدة على هذه المقالة الشنيعة
والرد على مخالفهم فيها

وقد سئلت عن هذه المسألة وأنا بالهند سنة تسع عشرة وثلثمائة
بعد الالف وكان قصد السائل تعرف عقيدتي فأجبت بما أعرف انه
الحق الذي لا مرية فيه من ان النبي صلى الله عليه وسلم اطعمه الله على
كثير من المغيبات لمصالح يقتضيها التشريع ولم يطلعه على كل ما كان
وما يكون وبيئت له ان هذا لا يحط من علي مرتبته عليه السلام بل
من الادب مع الله ومعه ان لا نصفه بما لم يصف نفسه به ولا ان ثبت له
ما لم يخبر هو بثبوت نفسه . . . فأنكر علينا ذلك وتحررت نفسه للمحاجة
فقلنا له أترى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عدد الشعرات التي في

لحيتك فقال .. لا .. فقلنا .. أفترى ان لحيتك ليست من المكونات
فانقطع في ميدان المناظرة قبل ان ينقل فيه قدما : الا ان هذا الشيخ
الهندي ما زال بعد ان فارقتي يذكر من فساد عقيدتي بين العامة
وتطاوولي على الدين واحتقاري للشرع ما وسوس له به شيطانه وسوآته
له نفسه الخبيثة حتى ألهب قلوبهم حقدا على غيظاً مني وتحركت
نفوسهم الشريرة لا يذائي على حق أذعته فيهم ونشرته بينهم وبدعة
أنكرتها عليهم وبينت لهم فسادها وانها ليست من الدين .. ولقد
دخلت يوماً في مدينة بومبي أحد المساجد الجامعة لاداء فريضة الجمعة
فلما قضيت الصلاة فرضها ونفلها وهممت بالخروج من الجامع اجتمع
على قوم كثير عددهم قوي بأسهم فأنكروا على دخولي مساجدهم
والصلاة فيها مع أهل السنة والجماعة (يعنون أنفسهم) وكادوا
يضربونني لولا ان الله تكرم بمن استنقذني من أيديهم فخرجت وأنا
لا أصدق بالسلامة من عصابة الجهل والابتداع

فكذا يبذر علماء السوء بذور الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة
في قلوب العامة فتتمكن في قلوبهم حتى يتعذر على أحدق الناس
بأمراض القلوب علاجها واختيار دواء نافع لها وليس هذا محل بسط
الكلام على هذا الموضوع وموعدنا به ان شاء الله القسم الثاني من
هذا الكتاب وهو قسم الارشاد فانه به أمس وأشد ارتباطاً

فصل - هذا ما وعدنا به في صدر كلامنا على فن التوحيد من
 اننا سنختم المقالة الثانية بفصل نين فيه ان أكثر المذاهب الكلامية
 الفاسدة اضطر البحث أربابها الى القول بها والانتصار لها وان كانت
 قلوبهم لا تنعقد عليها وان البحث اذا عض أحدهم وخاف على مقالته
 ان يظهر عليها مناظره عضدها بمقالة أخرى ظاهرة الفساد وكابر
 فيهما معاً .. ونحن نذكر هنا طرفاً يسيراً من ذلك لان استيعاب كل
 مقالاتهم ومعرفة الضرورات التي اضطررتهم الى القول بها عسر جداً
 ويحتاج شرحه الي مجلدات ضخام فنكتفي الآن باليسير من ذلك
 ليستدل به على غيره

﴿ مقالة الأشعري في ان الأعراض لا تبقى زمانين ﴾

ذهب الأشعري وقليل من أتباعه الى ان الأعراض لا تبقى
 زمانين يعنى ان البياض مثلاً المنتشر على سطح الجسم الأبيض يفنى
 كل وقت ويحدث بياض آخر مثله الا أن البصر لا يشاهد هذا
 التغير لشدة سرعة المنقضى والجاتي ولو كان في ذلك نوع بقاء لا يمكن
 ان يشاهد ذلك بالبصر .. وهذه مكابرة ونقض لشهادة الحس وهو
 أصدق شاهد ورجوع الى مقالة أهل السفسطة الطاعنين في شهادة
 الحس ولذلك أنكر أكثر أصحاب أبي الحسن مقالته ورفضوها وأبو
 الحسن نفسه يكبر هذه المقالة ولكنه اضطره البحث واكرهته المناظرة

على القول بها على ظهور بطلانها

وذلك ان ابا الحسن ناظر دهريا ينكر الصانع ويزعم ان العالم موجود بالطبيعة فاستدل ابو الحسن على أن العالم لا بد له من موجد لا يكون حادثا مثله بحدوث العالم واحتياج كل حادث الى محدث فقال الدهري اذا كانت علة الحاجة الى المحدث الحدوث فالعالم بعد حدوثه مستغن عن الصانع كالجدار يحتاج الى الصانع فاذا وجد لم تبقى له حاجة اليه فأكبر أبو الحسن التزام ما أُلزم به ولم يجد لدفعه سبيلا : فقال .. للدهري ان العالم جواهر واعراض والجواهر لا تقوم بدون أعراضها والاعراض لا تبقى زمانين بل هي أبداً متجددة فالجواهر محتاجة أبداً الى الصانع لامدادها بالاعراض التي بها قوامها وهي شرط وجودها ابتداءً واستمراراً .. فهو لم يذهب الى هذه المقالة ابتداءً وانما دفعه الى القول بها على بطلانها ضيق باب المناظرة عليه

﴿ مقالة النظام بالطفرة ﴾

ذهب ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام شيخ المعتزلة في عصره ورئيس الفرقة النظامية الى أن الجسم اذا قطع مسافة من المسافات كالانسان يسير من مكان الى آخر وكالصخرة تسقط من أعلى الجبل الى أسفله لا يمر على جميع أجزاء المسافة وانما يحاذي بعضاً دون بعض وسمى ذلك طفرة

وهذه المقالة لو كانت من مقالات بعض المجانين والموسوسين
 لأنكرت عليهم واستقبحت منهم فكيف بأبي اسحاق النظام
 وإنما اضطره الى هذا الخلط انه لما قال إن كل جسم من الاجسام
 فهو مركب من أجزاء لا نهاية لها ولا يمكن حصرها قالوا له لو كان
 ما تقول حقاً للزم ان لا يتمكن أحد من قطع مسافة من المسافات وان
 قصرت لان كل مسافة فهي مركبة من أجزاء لا نهاية لها وقطع
 مالا يتناهي محال ولو قطع لكان متناهيًا فلما رأى سبهم الاعتراض
 صائبًا قال ان الجسم اذا قطع مسافة لا يمر بجميع أجزائها وإنما يمر
 ببعض ويترك بعضاً فجاء من فاسد الى أفسد ومن حر الى جمر على
 ان ذلك لا يخرج به عن الاعتراض .. وكان أبو اسحاق النظام اذا
 قال له الاشاعرة في ذلك شيئاً يكتونه به ضحك وقال ليس قولي
 بالطرفة أقبح من قولكم بالاختيار: وأبو اسحاق صادق في قوله هذا
 معترف على نفسه بالمكابرة والتهافت والتمسك بما يعلم انه باطل

﴿ مقالة أبي الهذيل في الاستطاعة ﴾

ذهب أبو الهذيل العلاف وجماعة من المعتزلة الى أن الاستطاعة
 لا تتقدم على الفعل ولا تقارنه وإنما تتأخر عنه يريد بذلك أن كل من
 فعل فعلاً من الأفعال فانما حدثت له استطاعة هذا الفعل بعد صدور
 الفعل عنه لا قبله ولا معه .. وهذا من جملة حماقاتهم ومذاهبهم الفاسدة

التي انتصروا بها لمذاهب آخر وقد علموا فسادها والافأى عاقل
يقول هذه المقالة ولعمري ان كانت استطاعة الفعل تحدث بعده وكان
الانسان انما يفعل اذا لم يكن مستطيعا واذا كان مستطيعا فلا فلاموات
يفعلون كل فعل في العالم لا يعجزهم من الافعال شئ لانهم لا يصحبهم
شئ من الاستطاعة وهذا حق كبير

﴿ مقالة الأشاعرة في القرآن ﴾

جاءت السنة الطاهرة وآثار السلف الصالح مصرحة بأن
القرآن كلام الله غير مخلوق وان ما بين دفتي المصحف كلام الله
وغير المسلمون على ذلك دهرأ لا يعرفون غيره حتى ظهر فريق
الاعتزال فقالوا القرآن مخلوق حادث لانه امر ونهي وخبر وانجيل
وتوراة وقرآن وليس هو صفة من صفاته تعالى لان القديم لا يتصف
بالحادث وتعلق بهذه الشبهة جماعة من الخلفاء العباسيين وحملوا الناس
في عصرهم عليها فأقر بها من أقر خوفا من الشياطين وأنكر من صبر
واحتسب

فلما جاء دور الأشاعرة وانتهى اليهم استشنعوا مقالة المعتزلة
لمخالفتها صرائح السنة ومذهب السلف واستوجوهوا دليلهم العقلي الذي
عارضوا به السنة الصريحة فقالوا الى طريقة ظنوا انهم يوافقون بها
مذهب السلف ويخلصون من إشكال المعتزلة فوقعوا الى الاعتزال

ورفضوا مذهب السلف من حيث لا يشعرون

وذلك انهم قالوا ان الكلام يطلق على الصفة إطلاقاً حقيقياً وهذا هو القديم ويطلق على الألفاظ المتكلم بها إطلاقاً مجازياً وهذا هو الحادث.. وهذه مقالة المعترلة من غير تطويل فانهم اذا أطلقوا القرآن فهموا منه اللفظ المقروء والقرآن لا يطلق عندهم على الصفة ونفوا ان يكون ما بين دفتي المصحف كلام الله حقيقة

وكانوا اذا ادعوا ان هذا المذهب مذهب الصحابة والتابعين وسئلوا عن سبب امتناع أحمد بن حنبل وأمثاله عن القول بخلق القرآن مع انهم ما كانوا يطالبون الا بالاقرار بان اللفظ مخلوق مع شدة مانالهم من الضرب والأذى والسجن قالوا انهم امتنعوا من القول بذلك خوفا ان يفهم العامة ان مرادهم ان الكلام الذي هو صفة حادث وهذا من أقبح الافتراء فان الناس الى ذلك العهد لم يكونوا يفهمون من القرآن الا اللفظ وما كان أحد منهم يفهم غير ذلك حتى يتبادر الى ذهنه.. وليس الا ضرورة البحث أجتأهم الى هذه الشناعات

ولهم من الشناعات في القدر وخلق الأعمال شيء كثير ليس هذا محل بسطه فنكتفي هنا بما ندل به على شؤم هذا العلم وتحتم تركه حرصاً على العقيدة الاسلامية الطاهرة ان تتدنس بخرافاته ونعم المستعان الله

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(في شرح طريقة السلف في الآيات والاحاديث المتعلقة بالعقائد)

حقيقة مذهب السلف الصالح وهو الحق الذي يجب المصير اليه
ويحرم الخروج عنه ولو قيد شبر وكل من خرج عنه فهو مبتدع يجب
الانكار عليه وردعه عن بدعته وقد تكون بدعته موجبة لفسقه
وقد تكون موجبة لكفره كما سمعت آفا تبنى على سبعة أمور

(الامر الاول) التنزيه أى تنزيه البارئ عما لا يليق بجنابه من
الجسمية وتوابعها وكل ما يقتضى مشابهته لشيء من خلقه كما قال عن
نفسه (ليس كمثل شيء) فاذا سمع قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وقوله
(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) وقوله (ويبقى
وجه ربك) وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله خمر طينة آدم بيده وقوله
ان قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فعليه ان يجزم بأن الله
جل شأنه ليس له يد كأيدينا ولا وجه كوجوهنا ولا صورة كصورنا
وانه يتنزه عن ذلك ويتحاشى جنابه الكريم عنه ويعتقد ان الله جل شأنه
قد أراد بما أخبر به عن نفسه ورسوله صلى الله عليه وسلم قد أراد بما
أخبر به عن ربه معنى لا ينا فى كماله تعالى وقده فان اعتقد فيه ان
له يداً كأيدينا ووجهاً كوجوهنا وصورة كصورنا فقد خالف صريح
قوله ليس كمثل شيء وقوله ولا يحيطون به علماً

(الأمر الثاني) التصديق وهو ان يجزم ويتحقق بقلبه ان هذه الألفاظ التي ورد بها القرآن أو السنة لها معان لا ثقة بجلاله وكلامه أريدت منها ويقول آمنا وصدقنا وان ما وصف الله تعالى نفسه به أو وصفه به رسوله فهو حق بالمعنى الذي أراده وعلى الوجه الذي قاله وان كان لم يقف على حقيقة المعنى الذي أريد من الكلام وقد يظن بعض الناس ان هذا التصديق غير ممكن : قالوا اذا لم يكن له تصور وشعور بالمعنى الذي يصدق به كيف يمكنه التصديق ولذلك خاض أهل الكلام المبتدع في طلب المعنى المراد من آيات الصفات وأحاديثها وتأولوا لذلك التأويل التي حرفوا بها القرآن وحولوه من وجهه وصرفوه الى غير ظاهره .. وهذا خطأ منشأه قلة التأمل فان الشارع لم يكلفنا في آيات الصفات التي في ظاهر معناها شائبة نقص ينزه عنه الباري بالتصديق بمعنى مخصوص قبل تصوره حتى يأتي هذا الذي توهموه واندفعوا لاجله كل هذا الاندفاع في التأويل وانما كلفنا ان نعتقد ان هذه الألفاظ ليست مهملة لا تتضمن معنى وانما هي ذات معان وان تلك المعاني المرادة منها حق لا ثقة بجنانبه المقدس وهذا كما اذا سمع انسان صوت نفس من وراء جدار فهو يعتقد ان وراء الجدار حيوان حتى وان لم يعلم من أى نوع هو (الامر الثالث الاعتراف) أى الاعتراف بالعجز عن الوقوف

على مراد الباري في كلامه والقصور عن ادراك ما عناه لان الظاهر
 من اللفظ المتبادر منه نهانا عن إثباته له ووصفه به لعدم ملائحته
 لكرامه و قدسه ولم يبين لنا المراد من كلامه ولا في استطاعتنا الوقوف
 على مراده من غير إخبار منه جل شأنه بنفس مراده الذي أراد
 وهب ان رجلا اصطاح على ان يعبر عن معنى من المعاني بكلمة من
 أفراد الكلام أفكان في استطاعتك وأنت لا تعرف اصطلاحه ولا
 أخبرك به من عرفه منه ان تفهم مراده من تلك الكلمة اذا تكلم بها
 :كلا: واذا كان هذا مع من هو من أفراد المخلوقين فكيف برب العالمين
 والباري جل شأنه وصف نفسه بأوصاف لا نفهم معناها ولا تقدر ان
 نعرف كيفية اتصافه بها ولا ماهية تلك الصفات فنعترف بالعجز
 عن إدراك ما ليس في قدرتنا الاطلاع عليه ولا في استطاعتنا
 الاهتداء اليه

ولا يسمى هذا الاعتراف تقصيراً معيياً فان التقصير يعود
 الانسان عما يمكنه القيام فيه لا يعود عن كل شيء وان لم يكن في
 استطاعته فالعاجز عن نقل صخرة عظيمة اذا كان لا يمكنه نقلها لا يسمى
 مقصراً وانما المقصر من يستطيع نقلها ويتركه في حين الحاجة اليه والقوى
 الباطنة كالقوى الظاهرة والحكم فيها كلها واحد فاعتبر هذا التفاوت
 في القوى الباطنة أيضاً

(الامر الرابع السكوت) اى سكوت الجاهل عن السؤال وسكوت العالم عن الجواب فان الاول بسؤاله قد عرض نفسه وعقيدته للخطر وكلف نفسه ما لم يكلف به وهو شاق والثانى بخوضه فى الجواب قد فتح باب الشبهة ووسعه وسهل الابتداع والخوض فيما لم يؤمر الا بترك الخوض فيه فاذا سأل العامى عن مثل هذه الامور المتشابهة نهي عن ذلك وزجر أشد زجركا زجر عمر بن الخطاب رضى الله عنه صبيغا ونفاه وأمر الناس يهجره لما سأل عن آية الاستواء وكزجر على لمن جاء يسأل عن القرآن أهو مخلوق أم لا وقوله ولو وليت لضربت عنقه واذا خاض العالم فى هذه المسائل وفتح صدره بالجواب لكل من سأل عنها حظر عليه ذلك ومنع منه بما تصل اليه اليد فى منعه فربما كفر وأوقع الناس فى الكفر من حيث لا يشعرون

وفى قوله صلى الله عليه وسلم لمن مرّ عليهم فرأهم يخوضون فى القدر وسألوه عنه (أفبهذا أمرتم) وقوله (انما أهلك من كان قبلكم كثرة السؤال) أو كما قال حجة بالغة على لزوم الكف والامسك عن الخوض فى هذه المسائل المتشابهة ولو أنها مما أبيض به الاشتغال لاحد من المخلوقين لم يكن أحد أحق من النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم ولا أحد أحق من الصحابة بالتعلم فاذا كف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر أصحابه بالكف وزجرهم على الخوض فيه والبحث أفلا يسعنا

ان نكف ونسكت ونستسلم لمالا قدرة لنا عليه
 (الامر الخامس الكف) أى الكف عن التصرف فى أفاظ
 القرآن والسنة بصرفها الى معان غير ظاهرة وتحكيم العقل فى كتاب
 الله وسنة رسوله فلا يجوز تأويل استوى فى قوله تعالى (الرحمن على
 العرش استوى) بالاستيلاء ولا بالنسبة الخاصة التى للعرش وهى ان
 الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من الارض الى السماء
 بواسطة العرش فانه لا يحدث فى العالم صورة مالم يحدثها فى العرش كما
 لا يحدث النقاش ولا الكاتب صورة أو كلمة على البياض مالم يحدثها
 فى الدماغ ولا يجوز تأويل اليد فى قوله تعالى (يد الله مبسوطة) ولا
 اليمين فى قوله عليه الصلاة والسلام كلتا يدي ربا يمين بالقوة ولا تأويل
 الوجه فى قوله (وبقى وجه ربك) بالنفس فان الاستواء وان جاء فى لغة
 العرب مراداً به الاستيلاء كما فى قوله

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

واليد وان وردت فى لغة العرب مراداً منها النعمة كما فى قوله

سأشكر عمرًا أن تراخت منيتي أيادي لم تمن وان هى جلت

واليمين وان وردت مراداً بها القوة كما فى قول الآخر

اذا ماراية رفعت لمجد تلقفها عرابة باليمين

والوجه وان ورد مراداً به نفس الشيء كما فى قوله

رأيتك لما ان عرفت وجوهنا * صددت وطبت النفس يا قيس عن عمرو
 لأن ذلك قول على الله بغير علم وبلا اذن منه والله تعالى يقول
 (ولا تقف ما ليس لك به علم) ويقول (قل الله اذن لكم أم على الله
 تفترون) بل يجب الجمود على ألفاظ القرآن والسنة والامساك عن
 الخوض والتأويل: ومن أين لنا ان نعلم ان الله جل شأنه قد أراد بالاستواء
 الاستيلاء أو ليس من الجائز ان يكون قد أراد معنى آخر ولو اننا كلفنا
 ان نقول في هذه المواضع شيئاً لجاز الاعتماد على غالب الظن وأكبر
 الرأي كما اننا لما كلفنا بالاحكام الفرعية وأخذها من الكتاب والسنة ساع
 لنا ولم يحظر علينا تفسير المشترك والخفي بغلبة الظن لاجل العمل به
 ولكن هذه الامور حظر علينا الكلام فيها والخوض في شأنها فكيف
 نرتكب لاجل الخوض والبحث محظوراً آخر وهو تأويل كلام الله جل
 شأنه والقول عليه بغير علم ولا اذن منه في ذلك ونرى ان هذا من
 الدين بل من أوجب واجباته

(الامر السادس الصرف) أي صرف باطنه عن التفكير في
 هذه الامور التي نهى عن الخوض فيها بلسانه وليعلم أنه انما نهى عن
 الخوض فيها بلسانه لأن ذلك يؤدي الى فساد القلب وخروجه عن
 صلاحية عبودية الباري فأولى أن لا يشغل قلبه بالتفكر في هذه
 الامور التي ليس في وسع أحد الوصول فيها الى حقيقة مرضية عند الله
 (٢٦ - التعليم)

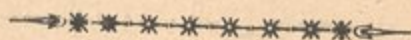
فاذا كانت نفسه جوّالة في هذه الامور متفكرة فيها باحثه عنها طالبة
لتعرف الحقيقة فيها فليشغلها بالذكر والعبادة عن النظر الى هذه الامور
فان لم يصرفها ذلك عنها فليشغلها بأمور دنيوية تصرف وجهها عنها
وتمنعها من التطلع اليها بل يقول أبو حامد الغزالي وربما كان الاشتغال
بالمعاصي البدنية خيراً من الاشتغال بهذه المباحث فان الاشتغال
بالمعاصي عاقبته الفسق والاشتغال بتلك المباحث عاقبته الكفر ونعم
ما قال أبو حامد وكم من ذى علم وعقل وبصيرة خاض في هذا البحث
ليستخلص لنفسه عقيدة طاهرة يدين الله بها نخلي الدين جانباً وأخذ
في التماس غيره

(الامر السابع التسليم لأهل المعرفة) بأن يعتقد ان ما انطوى
عنه من معاني القرآن والسنة لم ينطو على النبي صلى الله عليه وسلم
وخاصة أصحابه وانما لم يخوضوا فيها ولم يجيبوا فيها جواب سائل الا
بالزجر والتقريع لأن في الاشتغال بالبحث عنها من الاضرار بالدين
والعقيدة ما لا يقاس اليه ما يترتب عليه من فوائد معرفتها ولا يخطر
له على بال انهم انما كفوا عنها للجهل بها

هذه الامور السبعة اذا عمل بها الانسان فقد احتاط لدينه وطهر
قلبه من ادناس الاعتقاد واقام مهلة حياته على المحجة البيضاء التي قال
فيها عليه السلام تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها بعدى الا

هالك وكان من الفرقة الناجية وان خلط في شيء منها واسترسل مع من
استرسل من أهل الكلام المبتدع خاطر بنفسه ودينه وخسر خسرنا مينا
فان قيل اذا حصرتم الدلائل في القرآن والسنة والدين خو طب
به أهل كل الأديان فاذا استشكل علينا أحد ليس من أهل ديننا شيئاً
من هذه المتشابهات فكيف يمكننا اقناعه فان جعلنا له ظاهر الكتاب
والسنة حجة فهو ينكرهما رأساً وينكر حجيتهما فالحاجة ماسة الى
البحث عن بواطن هذه الامور وتحكيم العقل الصريح فيها لمجادلة
الخارجين عن الدين المحادين له

وهذه هي الشبهة التي سهلت على علماء الكلام المبتدع ارتكاب
مانهوا عنه والجواب عن هذه الشبهة ان من استشكل علينا شيئاً من
هذه المتشابهات أثبتنا له حقيقة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
بالدليل الحسي الواضح الذي تصدق به الفطر وتستسلم له الطبائع فان
صدق بذلك فقد صار منا ولزمه من الكف ما لزمنا وان كابر في المحسوس
لم يلزمنا اقناعه في المتشابه والله أعلم



﴿ علوم البلاغة ﴾

ونريد بعلم البلاغة علم المعاني الذي يبحث فيه عما يناسب به
اللفظ مقتضى الحال وعلم البيان الباحث عن كيفية ايراد المعنى الواحد

بطرق مختلفة في الوضوح والخفاء وعلم البديع الذي يبحث عن
 المحسنات البديعية في الكلام العربي : وهذه العلوم كانت أول أمرها
 يدون كل علم منها في كتاب علي حدة كما رأيت في المقدمة ثم
 جمعت كلها في كتاب واحد متتالية وأطلق على هذا المجموع اسم
 البلاغة لأنه يبحث عنها

والغرض من هذا العلم التوصل به الى فهم معاني كلام العرب من
 شعر منظوم وكلام منثور والوقوف على محاسن الكلام ودرجته
 في البلاغة ومعرفة وجه كون القرآن الكريم معجزا ودرجة ارتفاعه في
 البلاغة على سائر كلام العرب الذين أنزل القرآن بلغتهم وتحدوا باقصر
 سورة منه فعجزوا وقصروا وانتقلوا من المعارضة باللسان الى المقارعة
 بالسنان ومن المكاملة باللهاذم الى الملاكمة باللهازم ومن لم يكن له وقوف
 تام على هذا العلم واحاطة تامة بقواعده مع اشتغال طويل بتطبيق العلم
 على العمل والتمييز بين افراد الكلام من منظوم ومنثور ظن أنه
 لا تفاوت بين افراد الكلام وان كل كلام عربي يساوي بقية افراد
 الكلام ولم يدرك هذا التفاوت الذي يجعله علماء البلاغة بين افراده
 بل ربما ظن بعض الناس ان هذا التفاوت الذي يدعيه علماء البلاغة
 والتفاضل الذي يثبتونه بين افراد الكلام العربي لا ينبغي علي أصل
 وانه مجرد تحكم

ولذلك أنكر بعض الجهال إحكام اللغة العربية وإتقانها وقال ان
 المعنى الواحد يؤدي فيها بطرق مختلفة مع زيادة ونقص في الفاظ الجمل
 التي تؤدي هذا المعنى كما في قولهم العلم حسن وان العلم حسن ووالله ان
 العلم حسن وكل هذا لا يستفاد منه غير ثبوت الحسن للعلم فوقعت
 الزيادة في الجملتين الثانية والثالثة لغوا لافائدة فيها وهذا واضح في قلة
 إحكامها: ولو كان المعترض قد قرأ شيئاً من كتب البلاغة العربية لعرف
 ان العرب انما يوردون الكلام الخالي عن التأكيد كالجمل الأولى اذا لم
 يكن انكار فان كان انكار جوي بالتأكيد على قدر الانكار شدة وضعفاً
 فلم يورد هذا الاعتراض

ومن ذلك أيضاً دعوى بعض الحمقاء ان مقامات الحريري أبلغ
 من القرآن الكريم ولو كان عند هذا القائل أدنى معرفة بالبلاغة وأقل
 ذوق في العربية استفاده من تكرار نظمهم وشرهم على سمعه لم يقل ان
 مقامات الحريري أبلغ من القرآن على ان مقامات الحريري لو جمعت
 المحاسن العربية التي فيها كلها من أولها آخرها لم تبلغ قدر المحاسن التي
 تشتمل عليها رسالة من رسائل أحد كتاب الطبقة الثانية من كتاب
 اللغة العربية كعبد الحميد بن محمد وعبد الله بن المقفع وغيرها من أهل
 هذه الطبقة

وأغرب من هذا كله انا سمعنا قوماً يفضلون رسائل كتاب هذا

العصر على رسائل مثل الصابي وابن عباد واضرابهما من فحول الكتاب
ومحاجة هؤلاء الناس تحوج الى تعليمهم عامة العلوم الأدبية بسائر
أنواعها وإسماعهم جملة صالحة من رسائل العرب وخطبهم ونظمهم ثم
التوسل الى الباري ان يخلق في أذهانهم قابلية يميزون بها بين الحسن
والقبيح وإنصافاً يحملهم على الاعتراف لكل ذى حق بحقه والا كان
الجدال معهم عبثاً لا خير فيه ولا يؤدي الى نتيجة

وطلاب العلوم الشرعية في عامة الممالك الاسلامية لهم عناية بهذا
الفن واشتغال وسط بتعلمه وتعليمه والكتب المتداولة عندهم فيه شرح
سعد الدين التفتازاني على تلخيص الخطيب القزويني الذي خصه من
كتاب الايضاح الذي خصه من القسم الثالث من مفنح العلوم لابي
يعقوب يوسف السكاكي ويمتاز أهل مصر عن سائر طلبة العلوم
الشرعية باشتغالهم مع هذا الشرح بحاشية البناني عليه المسماة بالتجريد
لانه جمعها من الحواشي التي وجدها على هامش نسخة شيخه الصبان
وجعلها حاشية على هذا الكتاب وهي عبارة عن مقولات نقلت من
حواشي عبد الحكيم السيالكوتي على المطول وبعض حواش آخر على
المختصر ثم بعض مما حكت لفظية على مثل حواشي متأخرى المصريين
بل شر منها كلها لان للبناني من التوسع في الابحاث العقيمة
ما ليس لغيره

يمضي الطالب في حضور هذا الكتاب من أربع الى خمس سنوات وانما يحضره بعد ان يكون قد أمضى في مدرسته ثمان سنوات على الأقل وربما يكون قد قرأ قبله في موضوعه الجوهر المكنون بحاشية مخلوف في سنة أو سنتين وربما قرأ بعده شرح المطول في ثلاث أو أربع سنين ثم لا يحصل الطالب من وراء ذلك شيئاً في هذا الفن ولو كلف ان يتكلم على آية أو بيت شعر ويبين ما فيهما من البلاغة لم يأت بشيء يسمع كما انه لو سئل بحريز رسالة لم يستطعها بل ربما كان الشيوخ الذين قرؤوا هذه الكتب على الشيوخ ثم اقرؤها تلامذتهم واشتغلوا في هذا العلم عشر سنوات على الأقل لا يستطيعون شيئاً من ذلك وربما أحوج أحدهم ضرورة لتقديم معروض لبعض الرؤساء فكلف أحداً ممن يتعاطى الانشاء بذلك

وسبب هذا أمور ثلاثة الأول فساد طرق التعليم وقد علمت وجه: ذلك الثاني رداءة الكتب التي يتلقون منها هذا العلم وكونها قاطعة عن العلم لكثرة ما فيها من المباحث الغريبة عن هذا العلم: الثالث عدم اشتغالهم بته بتطبيق العمل على العلم وتأسيس الملكة بحفظ ظرف من منظوم البلغاء ومنتورهم وتعرف وجوه البلاغة فيه

وهذه الملكة لا تحصل من تعلم قواعد فنون البلاغة بل ربما كان المشتغلون بها أبعد ممن غيرهم عنها وانما تحصل بحفظ طرف من

منظوم الفصحاء ومنتورهم ثم على قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته وقلته تكون جودة الملكة الحاصلة للحافظ فمن كان محفوظه رسائل عبد الحميد وعبد الله بن المقفع والحسن بن سهل وأحمد ابن مسعدة واضرابهم كانت الملكة الحاصلة له خيراً من الملكة التي تحصل لمن يحفظ رسائل الصابي وابن العميد والصاحب ابن عباد والملكة الحاصلة من حفظ هذه الرسائل خير من الملكة الحاصلة بحفظ رسائل اليبساني والعماد الأصفهاني واضرابهما: والملكة الشعرية كالملكة النثرية فليس من يحفظ أشعار جرير والفرزدق ممن يحفظ أشعار البحتري وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي جودة ملكة ولا من يحفظ شعر هؤلاء ممن يحفظ الأشعار العصرية

ومن ذلك كنا نرى ان حالة الانشاء العربي لا يمكن ان تترقى ولا ان تحسن حالها عما هي عليه اليوم لا كتفاء الناس بالدرجة التي هم فيها اليوم وعدم تطلعهم الى الترقى منها الى درجة أرقى منها بحفظ جواد رسائل فحول الكتاب والتمرن على العمل عليها ونرى ان هذه الطبقة من الكتاب الموجودة اليوم اذا انقرضت لن يخلفها بعدها مثلاً فان المتطعمين الى تعلم هذا الفن من العلوم العربية قد أقبلوا بجمالتهم على قراءة رسائل ضعفاء كتاب العصرين وحفظها والاحتذاء بها في الانشاء فمهما علت مرتبتهم في هذه الصناعة فلن يجاوزوا مرتبة أولئك

الذين اكتسبوا هذه الملكة من قراءة كتبهم بل من حاول منهم تحسين ملكته بحفظ شيء من ترسلات البلاغاء ومنشآتهم لم يحصل على طائل مهما أكثر من الحفظ فانه قد حصلت عنده من قراءة الكتب التي أشرنا اليها ملكة منافية للملكة الجيدة صادفت قلباً خالياً فتمكنت فيه ولم يبق في قدرة الطارئ عليها زحزتها عن مكانها

نعم ان حالة الانشاء العربي في مصر قد تحسنت عما كانت عليه قبل هذا الجيل تحسناً بيناً وصار كلام الكتاب بحيث يمكن فهمه والوقوف على المراد منه بدون استعانة بالكاتب اللهم الا بين أهل العلم فانهم لا يزالون على حالتهم الاصلية غير نفر يسير من المنتمين للعلم حصلوا في الانشاء العربي على مرتبة تذكر

وقد اطلعنا على كتاب أرسله عالم مصري لتلميذ من تلامذته فأوردناه هنا مع نبذ من آثارهم في الانشاء ليوقف القارئ على كثرة اشتغالهم بفنون البلاغة وقلة الاهتمام للمفهوم من الكلام فضلاً عن البليغ ونص الكتاب

الى حضرة البحر الطمطمم ولعالم القمقام حاضر الفروع والاصول وفاهم المعقول والمنقول ابنا الشيخ

بعد السلام عليكم ورحمة الله نفيديكم ان الاشيا معدن والاحوال رضا ان شاء الله تكونوا انتم مسرورين تمام الانبساط : ومن حيث ماعمال نفهم سبب قلة ارسال جوابات الى أهلكم فلازم حالاً ترسلوا جواب لأهالكم
(٢٧ - التعليم)

وان كنت في شك مما ذكرناه وعسر عليك ان تعتقد ان حالة
الانشاء تحسنت في مصر الا عند أهل العلم فانها كما كانت فنحن ننقل
لك طرفاً من منشآت رجال العلم في العصر السابق وشيئاً من منشآت
رجال العلم في هذا العصر ونكل اليك الحكم في هذا الموضوع
(عريضة استرحام من شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسن العطار)

✽ بسم الله الرحمن الرحيم ✽ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أسئله الكريم دوام دولة أفندينا ولي النعم
وان يجعله حصناً منيعاً للإسلام ويصلح بهمته شأن الخواص والعوام بمنه وكرمه
أمين وانهي الى حضرته العلية اني كنت رجلاً ضعيفاً فقوانياً وخاملاً الذكر
فرجع شاني وانه لما ألبسني خلعاً الشرف في ديوانه العالمي أكد علي في الاهتمام
بجمال الجامع الأزهر فامتثلت أمره الشريف وبذلت جهدي في ذلك وشرعت في
جلب مصالحه ودفع مفسده ومن جملة تلك المفسد ان رجلاً مغربياً من بحار
المغاربة اسمه سكون رقي مشيخة رواق المغاربة وهي رتبة جليلة ولما كانت توليته
لاتايق به ومخالفة للشروط المسطرة عندهم من قديم الزمان ومنها ان ليس لاحد
حق في أن يبيع ويشترى خبزاً من الرواق فقد رأينا عزله لكنه لما كان رجلاً
فيه تعصب استعنت على ما فعلت بحضرة الأفندي مأمور الديوان الخديوي فلما
بلغه العزل حزب الاحزاب وجمع الجموع فالتف عليه كل منسد ومنافق وتبين
لي بعد عزله ان في طرفه من مال الجراية ستة وخمسين كيساً فطالبتهم فأخذ
براوني ويخادعني فما قدرت على الاستخلاص بحق عشرة أكياس منها الا بعد
جهد جهيد ثم امتنع من الدفع ولما ورد أمر أفندينا المطاع بعزل الشيخ محمد
ابن الحسين عزله سريعاً وشرعت بتولية شيخاً آخر فعاد سكون لحاله الاولي
وأقام على التكبر وانضم عليه كل مفسد كعلي خايفه الاسكندري فانه رجل كذا

سمع هبة طار إليها ببغلة حتى قام بنصرى الأفندى مأمور الديوان الخديوى حين بلغه العزل جزاه الله عني وعن خدمة أفندينا ولي النعم أحسن الخير فاطفاً نار تلك الفتنة بهمة العلية وتولي المشيخة رجل آخر وانحسرت الفتنة بهمة مأمور الديوان الخديوى وبحسن تدبيره: وان الشيخ السادات كان قد استولى بعض أتباعه على تركة المتوفى الى رحمة الله تعالى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وهو رجل عالم مشهور حين مرضه جعل الشيخ السادات وصياً على ولده فهما مات الشيخ تخلى عنها الشيخ السادات وقلدها بعض أتباعه ولما اقتضته المشيخة من استنقاذ مال اليتيم من الهلاك أقت الشيخ محمد بن الحسين وكيلا عني في استخلاص مال اليتيم لأمرين الأول ان هذه القضية تحتاج الي كثرة التردد الى بيت القاضي ولا يابق لي ذلك الثاني اني أعرف من ابن الحسين الشهامة والعزامة والديانة دون غيره فأخذ يتردد الى المحكمة مرات كثيرة حتى استخلص مال اليتيم وسلمه للقاضي حتى اشترى به لليتيم عقاراً فعد هذا من ذنوب ابن الحسين وعد من المزورين ولما كان الطعن في المذكور طعنأ في لكونه من خواصي ومن أتباعي خشيت على نفسي من مكاييد المفسدين وسعي المبطلين وأرسلت ابن الحسين الى ديوان أفندينا العالي ليقف بين يديه ويجادل عن نفسه ليرأ ساحتة وينصف عرضه في حضرة ولي النعم ويظهر ان كان ابن الحسين مزوراً أو غيره ويظهر المفسد من الصالح والمحق من المبطل وأرجو من حسن نظر أفندينا ولي النعم أن يجمع بين ابن الحسين وبين أخصائه بديوانه العالي حتى يتبين لافندينا المزور من غيره ومن يسمي في الأرض فساداً وان صدر أمر من حضرة أفندينا ولي النعم بقدومي الى الاسكندرية أسرع في الامتثال فكان ذلك غاية الآمال لأقضى حق التحية وأحفل بمشاهدة حضرة العلية وأقوم بوظيفة الدعاء لحضرة بالثغر المرقوم كقيامي بتلك الوظيفة بعد إلقاء الدروس والله تعالى يرزق أفندينا النصر والفتح المبين ويجعله ملجأ للفقراء البعيد منهم والقريب آمين

﴿ وله إليه يستقبله من مشيخة الجامع الأزهر ﴾

بأنني صرت عاجزاً عن القيام بمصالح الجامع الأزهر والعاجز لا يصلح أن يكون منابطاً لهذا العمل فلو بقيت على ما أنا عليه تغيرت أحواله وأرجو من مراحم أئدينا ولي النعم أن يجعلني من المتقاربين الداعين له المتعيشين في ظل احسانه وفي الجامع الأزهر من هو أمثل مني وأحق بهذه المرتبة فيصلح له القيام بها واني التزمت أن بعد نزولي أغلق باب داري على فالمرجو من حضرة الأئدي مأمور الديوان الخديوي أن يهل لي طريق الراحة في بيتي وأفرض بمنزلة الشيء المعدوم هذا ما أرجوا فينبغي المبادرة بتصيب شيخ غيري لأن شؤون رمضان كثيرة وانه ليس في طرفي من مال الوقف الا احدي وثلاثون نصفاً فضة حكم دفتر المباشر والله أعلم

﴿ جواب للشيخ حسن القويسني شيخ الجامع الأزهر ﴾

(عن سؤال سئله في قضية)

ان الذي شاع في البلد وانتشر بان ابن الحسين معدود من المنزورين وانه يرتاب العلماء أحياء وميتين ويلقبهم بالقباب السخرية لاجل التضاحك عليهم في المجالس وهذا يشعر بعدم الديانة فقد جاء في الحديث سب الموتى كعابد وثن وغيبة العلماء تقتضي التكفير في بعض المذاهب ومثل هذا لا يصلح أن يتولى المناصب ومن كان هذا شأنه فإدام مقيماً في هذه البلدة يقيم الفتن خصوصاً مع اتصاله بشيخ الجامع وقد عادى الناس من أجله وما ذكر في الشيخ الذي عزل من قبله لا يعرف فيه الا أنه رجل دين خير والدراهم الذي انكسرت عليه سببه انها عوله حوالة على أهل دمنهور ليأخذ بها قاشاً فأفلس الرجل المحال عليه وألزمه الشيخ محمد كمون دفع الدراهم الذي انكسرت عليه بأمر الديوان ودفع منها حتى لا يبق عنده الا تسعة وعشرون كساقسقطت عليه بأن يدفع كل شهر كيساً واحداً بتوافق

بجتم حضرة شيخ الجامع ولا نعلم له قادحا سوى ابن الحسين وشيخ الجامع وجميع
الناس يشهدون بذلك وما قيل في حق الشيخ خليفه بأنه مفسد فليس له أصل ولا
يعرف له فساد

✽ جواب للشيخ حسن الغلبان أحد علماء الجامع الأزهر

عن سؤال سئله في قضية ✽

ما قرره حضرة الشيخ القويسني فكاد أن ينعقد عليه الاجماع وتملأ به البقاع
وهو لاشك فيه ولا يوجد من ينافيه وأما ما قيل إنه لم يتوجه به بيت القاضي الا
في قضية سيدنا الشيخ الجبرتي رحمه الله فقد تقدم له المرار أنه توكل في القضايا
بما فيه ان حضر في الديوان العالي الخديوي وكيلاً وموكلته تشكت منه بمسمعي
وبحضرة العلامة الشيخ الصاوي وغيره من الناس وانه أضر بها وأخذ منها مبلغاً
سلفاً على رسم القاضي وغيره وأنه يتوجه مع محمد بن الحسين الى حضرة الشيخ
السادات وأخبره أنه أخذ منها خمسة وسبعون خيره ودفعها لأدهم أفندي
كتخذى القاضي على سبيل الرشوة ليساعده المذكور في مرامه وهذا الامر
واضح عام يعلمه كثير من الحاضرين منهم حضرة الأستاذ الشيخ الجوهري
هذه الصور الاربع نقلناها من كتاب « المحاماه » لحضرة احمد
فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية ذكرها في ضمن حادثة
وقعت بمصر في عهد كبير العائلة الخديوية محمد علي باشا مستشهداً بها
على سوء حالة القضاء وجناية الأغراض والوسائط على الحقوق فنقلناها
عنه كما ذكرها في كتابه محافظين على اللفظ والرسم كما حافظ حضرته
عليهما لتبين بذلك سوء حالة الانشاء في ذلك العهد ولولا ثقتنا بحضرة
البيك لم نقلها عنه فان العطار والقويسني والغلبان من خيرة العلماء في

عصرهم وأشهرهم عند الناس والحكومة

لم نقف في باب المراسلات لأحد من العلماء العصرين على غير الكتاب الذي اتحفنا به أحد الاصدقاء الثقات وكنا عزمنا أول الامر على ان نقل شيئاً من تقارير العلماء لبعض ما يطبع من المؤلفات الحديثة التي يحتاج الناس في الوثوق بها الى شهادتهم لنبدل بذلك على مقدار ضعفهم في الانشاء وقلة ملكتهم فيه لكننا رأينا اننا مهما تجافينا عن ذكر اسم المقرظ أو صفة من صفاته أو اسم الكتاب المقرظ فلن تتمكن من مواراة شخصه عن أعين المتطلعين اليه بعد ان ذكرنا كلامه ونبهنا الناس للبحث في الكتب المنشورة عنه فتركنا ذلك لاختيفه من أحد ولكن تباعدا عن الشخصيات ومن لم يكن يحقق قدر ملكتهم في صناعة الانشاء فهذه كتب كثيرة فيها طرف من آثار أفكارهم فليرجع اليها من ارادها

وليس هذا حال رؤساء المدارس الدينية فقط بل هو حال أكثر رؤساء المدارس النظامية حتى ان من كانت وظيفته في مدرسته تعليم الانشاء العربي لا يحسنه وان تكلفه سمعت منه ما تنبؤ عنه الفظير وتنفر من سماعه الطباع وان أهل المدارس الدينية ان كانوا قد أهملوا هذه الصناعة رأساً فاهل المدارس النظامية قد لمحووا باطراف أعينهم لاعتناء كثر أسفل كتب الانشاء وأقلها قدراً وأضرها بهذا العلم

فأقتبسوا منها ما اقتبسوا ولو كنا بصدد النظر في اصلاح هذه المدارس النظامية الفوضوية لذكرنا شيئاً كثيراً من آثار معلّمي هذه المدارس في هذه الصناعة الشريفة ولكننا عقدنا هذا الكتاب لشرح طرق التعليم في المدارس الدينية والنظر في اصلاحها

على اننا لو أمعنا النظر لوجدنا ان من رجال المدارس النظامية عدداً كبيراً هم أعلم منا بفساد طرق التعليم في مدارسهم وأدرى منا بما يوافقها من العلاج فنسلك أمر ذلك الى خبرتهم ونكتفي بتجربتهم وتنشيط هممهم على ذلك ولا ندخل معهم في غمار بحث ربما كان خطأنا فيه أكثر من صوابنا وتكون مشاركتنا لهم تشويشاً عليهم وصرفاً لأنظارهم عن مواضع الصواب كما كانت مشاركة البعيدين عن المدارس الشرعية والجاهلين بحقيقة الشرع وكتبه ومقدار أهميته وكيف يمكن الاشراف عليه من قرب مشوشة لافكار المشتغلين بالنظر في أحوال المدارس الشرعية والشرع والباحثين لها عن الطريقة التي تكفل لهما رجوع الحياة المستقرة اليهما بعد ان اشرفا على التلف وصارت حياتهما كحياة المذبوح

وكل موضوع اشترك في البحث فيه من لا يحسنه مع من يحسنه كان نجاحه بعيداً بل ربما كانت هذه المشاركة صارفة عن الوصول الى النتيجة الحسنة البتة فان استقل في البحث عنه من لا يهتدى لوجوه

الصواب فيه فذلك شر وأدهى

ونحن في عصر امتدت فيه الأبصار لنشر الافكار حبا في انتشار
الذكري حتى ان المواضيع الانشائية الفكرية لتكاد تباع وتشري كما صار
اليه حال أهل أوروبا فتى لاح وميض برق موضوع من المواضيع أو
فتح باب بحث من الابحاث هرع اليه قوم قد أرفهوا أقلامهم فحاضوا
غماره واقتحموا غباره غير مباليين مصيبين أو مخطئين مصالحين أو
مفسدين فيكثر الضجاج ويرتفع العجاج ويتواري شخص الحقيقة
بين تلك الاقويل المنتشرة المتباينة المتباعدة وتبجلي المعركة عن غير فتح
ولا غنيمة

فكل من جمع بين أصابعه قلما ونشر على صفحة جريدة من الجرائد
مقالة أو مقالتين سهل على أفكاره من العلوم كل عسير وخيل له انه
صار في كل علم الغاية المطلوبة والضالة المنشودة ورأى نفسه كفاً لكل
قرن وردء لكل خطب وقطب رحي كل حرب: وحرب الأقلام
لو كان لها آثار على النفوس في عصرنا كما نأثر حرب السهام على الاجسام
لم تر أقل من عدد المقاتلة فيها ولكن جعل على النفوس دروع سابعة
من الاقدام وقلة المبالاة فلم تجد سهام الاقلام اليها سييلا
ولو أنا جعلنا القصد رائداً والتوسط قائداً وسلك كل حزب منا
من الطرق مالا يعسر عليه سلوكه ولا يخشى على نفسه الضلال فيه

كما يفعل عقلاء الاوروبيين من اشتغال كل فريق منهم بما يحسن من العلم وتجافيه عما لا يحسن وإن دعى اليه لوصلنا الى نتائج حسنة ولو في بعض المواضع ولكن كثرة النظار أعمت الأنظار وحيرت الأفكار وهذه السنة من جملة السنن السيئة التي جبلنا وفطرنا عليها ولم يعمل منا أحد فسكره في التنازل عنها والتخلق بما يضادها من محاسن الأخلاق بل نتسابق فيها كما يتسابق عقلاء الناس في مكارم الأخلاق ومحاسن الاعمال

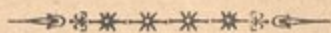
ذلك لأننا قوم يهمننا ان نذكر ويتحدث بشأننا فكل طريق يوصلنا الى هذا المحبوب سلكناه وتكلفنا قطعه بدون نظر فيما اذا كانت العاقبة محمودة أو غير محمودة ولا نحب ان ينتفع بنا أهل ديننا وأهل وطننا ولو كنا نحب ذلك لسلك كل واحد منا الطريق التي يمكنه منها الوصول الى ما يفيدهم به فائدة حقيقية ولم يصرف أيام عمره في تكلف أشياء لا يعرف غنها من ثمنها ولا جيدها من رديتها يكتب العالم البصير فينا مقالا أو مؤلفا في بعض المواضع العلمية النافعة فلا يكاد يمضي على انتشار كلامه بين أيدي الناس يوم أو يومان حتى تنتشر في سماء المطبوعات سحائب من الردود والانتقادات بل والقذف والسباب ثم اذا أنت قتشت تلك الآراء والأفكار وجدت أكثرها غريبا عن موضوع البحث بعيداً عنه كل البعد

(٢٨ - تعليم)

والمشاركون منهم لصاحب الموضوع في البحث معه في نفس موضوعه
قل ان تجد فيهم من له في المعلومات منزلة تضارع منزلة صاحب
الموضوع أو تدانيه فيشغل الناس أنفسهم بسماع أقوالهم ومعارضاتهم
ورددتهم وانتقاداتهم زمنا طويلا ثم يتحققون ان ليس وراء تلك
المنازعات شيء يحرص عليه ويرغب فيه فيزهدوا فيها ويهجروها ويغلق
باب البحث كما افتتح لافائدة ولا جدوى غير القليل والقال وصرف
الوقت في طلب المحال

وهذه مصر عين انسان العالم الاسلامي ودرة تاجه في هذا
المعنى لا يمضي عليها حين من الدهر حتى يفتح فيها باب موضوع من
المواضيع العلمية أو العمرانية أو غير ذلك فتكتب المقالات وتشر
المؤلفات وتتناوح الأفكار وتبادل الآراء حتى يخيل للناظر ان
النتيجة المطلوبة والضالة المنشودة صارت بين أنامل الباحثين أو في قبضة
يدهم فاذا فتحت أيديهم علمت انها قد جمعت على الهواء ومن أنكر
هذا فلا أراه يصدق بشيء معقول أو محسوس ولا والله ما افتتح البحث
في موضوع من المواضيع وانتهى بحث الباحثين فيه الى نتيجة محمد
أو تدم حتى أن المواضيع العلمية النظرية الخالصة التي لاتعلق لها بالعمل
بوجه من الوجوه ولا حاجة لها بمال أو رجال اذا بحثنا فيها لانصل فيها
الى نتيجة ينقدها عليها القلب ويجمع عليها رأى الناس تبعا لرأى الباحثين

وانما تقفل أبواب المواضيع النظرية كما افتتحت على آراء مختلفة ومذاهب متضاربة وأقوال متشعبة ودعاوى بلا أدلة وبراهين بلا مقدمات الى أشياء ينفر منها الطبع وتنبو عنها المسامع



﴿ اصلاح طرق التعليم ﴾

سمع في كثير من البلاد الاسلامية صوت في إصلاح حالة التعليم في الممالك الاسلامية ولكن كان في أكثر الممالك ذلك الصوت عبارة عن مجرد تبرم من سوء الحالة الحاضرة وتألم منها لا يصحبه شيء من التنبيه على ما يلزم من العمل للخروج عنها والخلص من آلامها وكأن مصدر ذلك الصوت لم يكونوا من ذوى النفوذ في البلاد فيمكنهم التصريح بما يلزم لإصلاح حالة التعليم فكتفوا بالإشارة الى ما في البقاء على الحالة المشاهدة من الخط بشأن الاسلام

أما في مصر فقد كان الذي يتولى كبر هذه الحركة ويديرها يديه فضيلة الاستاذ المرحوم المفتي معضداً بحزب كثير عددهم قوى بأسهم وكان رأى الاستاذ المرحوم وحزبه في إصلاح حالة التعليم في الأزهر يرجع الى أمر واحد وهو جعل الأزهر وسائر المساجد التي هي أشبه بمدارس دينية كالجامع الأحمدي في طنطا وغيره كبعض مدارس

المعارف أو الأهالي الا ان العناية فيه بأمر الدين تكون أكثر من
العناية به في المدارس النظامية التي تجمع فريق مدارس المعارف
ومدارس الاهالي

وقد اطلعنا على صورة تقرير رفعه فضيلة الاستاذ المرحوم في
سنة ١٧ هجرية الى نظارة الداخلية ضمنه هذا الرأي الذي أشرنا اليه
وطلب من نظارة الداخلية أن تصدر أمراً بالعمل به اذا رأته موافقاً
وهذا الرأي لا يخلو عن تفريط ولذلك لم يوفق الاستاذ بعد طول
جهاد لتنفيذ هذا المشروع وخالفه فيه قوم شعروا كشعوره بسوء الحالة
الحاضرة وألوا منها كما يألم ففقد أنصاراً كثيرين كان يمكنه بواسطتهم
لولا ما نفرهم به من تفريطه في أمر العلم امانة النظام القديم والوصول
الى حالة تضمن للعلوم الدينية حسن المستقبل وهاج عليه الازهريون
وانتصبوا لمعاكسته ومعارضته في كل ما يبدى من الآراء في شأن ترقية
العلوم الشرعية وتحسين حالها حتى فيما كانوا يعلمون انه الحق الذي
يجب العمل به

ولم يكن من اللائق بالازهريين أن يحملهم ما رأوا من تفريط
المرحوم في أمر العلوم الشرعية ومبالغته في قلة العناية بها أن يرفضوا
كل آرائه التي أبداهها في اصلاح العلوم الشرعية وفيها ما لو عملوا به
ليكن للاسلام حالة مرضية وشأن حسن وكان من الحكمة أن يبنوا

مداولانهم معه على طلب الاصلاح واختيار الانفع ورفض ما عدا ذلك
ويديروا حركة الاخذ والرد برفق وروية لا يشوبهما شئ من التعصب
والانحراف وكان في استطاعة الاستاذ المرحوم ومما هو غير بعيد عن
أخلاقه أن يتنازل عن بعض مطالبه التي كان يبدئها مدة حياته في إحياء
العلوم الاسلامية ويوافقهم على ما يكون منهم من صواب ولا يتمسكوا
بافراطهم في المحافظة على الحالة التي ألفوها مع ما هي عليه من الفساد
وما فيها من الأضرار ولكنهم بنوا مجادلاتهم على التعصب
لطريقتهم والجمود عليها فخرموا الصلاح وقطعوا عنه وأسفرت المقدمات
عن غير نتيجة

وهكذا كل بحث وقع بين قوم في طلب حقيقة اذا لم يكن غرض
الباغثين الوصول الى الحقيقة والاهتداء لها بل كان الغرض الوصول الى
شئ معين كان البحث فيه عقيما واذا كان في أحد المتباحثين قوة تمكن
به من الظهور على خصمه لم تكن النتيجة حسنة ولا مفيدة ومن بني
أعماله على أغراضه فقد بناها على أو هن أساس وأوهاه وعرض جده
للضياح والتلاشي . وهذا ثي مقرر لا ينكره الا من ينكر الضروريات
ولكن حرارة حب الانتصار للنفس والترفع على النظراء باكراههم
على ما يراه وحملهم عليه على كره منهم أحرقت جثمان الحقيقة وحرمت
الناس من كثير من المنافع وبررت من الاعمال كل فاجر وحجبت

بصيرة أهل البصائر عن مشاهدة الامثل والاصوب وقل أن تجد في
الناس من يستطيع هذا وترضى منه نفسه بالتنازل عنه أو الاكتفاء بما
دونه حبا في الصالح واختياراً للأوفق

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
ونحن نذكر مجملا من القول في التعليم وكيف ينبغي أن يكون
حتى يكون مؤديا لنتيجة حسنة مفيدة للمقصود من هذه الاجتماعات
التي كثر القيل والقال فيها وأصبح الناس في شك من أمرها ولا يرضون
منهم الا باظهار نتيجة حسنة أو فض تلك المجتمعات وصرف أهلها في
مصالح يساعدون بها ذويهم في هذا المعترك وينزلون بها أنفسهم عن
عواقب الناس . فاذا انتهينا من هذا الاجمال عدنا اليه فاسسنا لكل
مطلب من مطالبه مقالا على حدة فاستوعبنا ما يثبت ويقويه شرحا وبيانا
وما يرد عليه من الشبه والردود دفعا وانكارا

✽ اجمال الكلام في اصلاح طرق التعليم ✽

على المشتغلين باصلاح طرق التعليم في المدارس الشرعية الاسلامية
المتألمين من سوء حالتها الحاضرة وعدم الحصول منها على نتيجة حسنة
تكفي ولو في بعض الغرض المطلوب منها أن يقدموا بين يدي كل
عمل في الاصلاح استبدال هذه الكتب التي يتداولها الطلاب ويعتمدون
عليها في معلوماتهم وهي كلها من مؤلفات جماعة من المتأخرين ليس لهم

باع في شيء من العلوم بكتب المتقدمين من علماء الاسلام وقد بينا عند الكلام على كل علم كتبه التي يؤخذ منها وبيننا انها من أرداد الكتب وأقلها نفعا بل انها بحت ضرر لا تفيد شيئا أصلا وان المشتغل بها يفني عمره في طاب مالا ينال لما فيها من الحشو والزوائد

وفي كتب المتقدمين من المختصرات والمطولات ما فيه غنية عن التطلع الي هذه الكتب الساقطة المضرة والباحث عنها يعثر بشيء كثير منها وأدنى اشارة من أي شيخ من الرؤساء لاي تاجر من تجار الكتب تكفي في طبع الكتاب وظهوره بين الناس فلا عذر لهم بأن كتب المتقدمين معدومة وما وجد منها يعسر على طلاب العلوم الشرعية وهم أفقر الناس الحصول عليه

فان تجار الكتب لا يطبعون في كل لحظة شرح الكفر او وحاشية الصبان وحاشية البناني الا لكونها هي الرائجة بين أهل العلم فلو أعرضوا عنها الى غيرها من الكتب مهما كان حالها لسعوا في تحصيلها وطبعها وبيعها عليهم فما اعتلوا به لا يصلح حجة لهم ولا يقوم بعذرهم : وقد سمعنا قوما من كبار أهل العلم بمصر ومن أهل الرأي في ادارة الازهر يذكرون في أسباب تمسكهم بهذه الكتب وعدولهم عن كتب المتقدمين بان هذه الكتب اخصر وطرق التعبير فيها أقرب الى الفهم من كتب المتقدمين فانها واسعة وطرق التعبير فيها منتشرة

وليس في هذا ما يصلح حجة لهم بل هو حجة عليهم . . . فلما قولهم ان الكتب التي يتداولونها اخصر فهذا من جملة عيوبها التي يتحتم تركها لأجلها وسند كر في فصل بعد هذا ان مختصرات الكتب مضره بالتعليم مبرهنين على ذلك مستشهدين عليه بكلام الائمة المعول على رأيهم في مثل هذا الشأن . . . وأما قولهم ان طرق التعبير فيها أقرب الى الفهم فهو خطأ واذا كانت هي بهذه المثابة من الواضوح حتى كانت تفضل كتب المتقدمين فما الداعي لهم الى وضع كل هذه الشروح والحواشي والتقارير على هذه المختصرات وما السبب في عنايتهم اليوم بهاوتها فهم عليها تهافت الفراش على النار ان كان في حسن العبارة وقربها الى الفهم ما يعني عنها كما يزعمون

وسر ما في الباب ان عبارات المتقدمين في التعبير عن المعاني وافادة مقاصدهم تخالف طرق المتأخرين كما يختلف الانشاء الأوّلى والانشاء العصري الا ان هذا التفاوت قاصر على مؤلفات قليلة جداً هذا مؤلفوها في عباراتهم حذو الرسائل الادبية كالسكاكي وعبدالقاهر فكانت عباراتهم بعيدة شيئاً من البعد عن أفهام أهل هذا الزمان وليست هذه طريقة عموم مؤلفي الاسلام من المتقدمين وبين أيدينا من مؤلفات أهل القرن الثالث والرابع ما لا يخالف مؤلفات المتأخرين من جهة كيفية الانشاء على ان الذي جعل كتب السكاكي وعبدالقاهر

وأضرابهما بعيدة عن أفهامنا عدم أستعمالنا لها وتمرننا عليها ولو أننا أعدنا النظر فيها مرة بعد مرة لانقادت لنا وقربت من أفهامنا وكثير من الناس في عصرنا هذا يعتنون بالنظر في الاشعار العصرية الساقطة ويعرضون عن النظر في أشعار مثل جرير والفرزدق والأخطل وأضرابهم بل عن النظر في دواوين مثل البحترى وأبي الطيب وأبي تمام وأبي فراس ٠٠ يرون ان هذه الدواوين بعيدة عن أفكارهم لاختلاف وجهتهم في التعبير عن المعاني وانها لا ينبغي أن ينظر فيها الا أهل ذلك العصر لأن فيهم من الاستعداد لفهمها ما ليس لهم وهو غلط ولو أنهم اعتنوا بها كما يعتنون بالأشعار العصرية لألفوها وقربت عليهم

ولسنا نرى ان يُستعاض عن الكتب المتداولة اليوم بين طلاب العلوم الشرعية بكتب المدارس النظامية كما كان يرى بعض الناس فان هذه الكتب ضعيفة في العلم قاصرة فيه وهي منحوتة من كتب المتأخرين ببعض تحوير في ألفاظها والنتيجة التي تحصل من الأخذ منها في المدارس النظامية غير كافية في المدارس الشرعية فان لكل فريق وجهة غير وجهة الآخر فكتب المدارس وان كانت لا تليق بالمدارس الشرعية فهي بالمدارس النظامية اليق ولها أحسن ونيأتي بعد هذا تفصيل حسن لهذا الموضوع

نعم اذا استعملت بعض كتب المدارس النظامية في تعليم المبتدئين من طلاب العلوم الشرعية لم يكن في ذلك بأس اذا لقنوها على كيفية مخصوصة بل ربما كانت للمبتدئين أنفع لهم من مختصرات المتقدمين لأن العجمة غلبت على الناس وصار في الطباع قصور وفي الفطر فتور سيما وأهل المدارس الشرعية لا يقدمون على الاشتغال بكتب العلوم شيئاً من العلوم الرياضية التي تحرك الفكر الساكن وتنبه الفطنة النائمة وأول ما يشغلون به أفكارهم تعلم هذه العلوم التي لا أثر لها في إحياء الأفكار وإيقاظ نائمها واضرام خامدها

وهذا شيء حسن يجب العناية به وملاحظته على رؤساء المدارس الدينية ففي ذلك خير كثير وتسهيل على صغار الطلاب تلقي العلوم وإدراك مقاصدها .. والعجب ان رؤساء المدارس الدينية يعترفون بما في هذا من الفوائد ولكنهم مع ذلك لا يعملون به وتلك عادتهم فيما لم يجدوا عليه من قبلهم من شيوخهم وآبائهم لا يلتفتون اليه مهما مست اليه الحاجة ودعت اليه الضرورة

وأعجب من هذا دعوى قوم منهم ان ما في الكتب التي يتداولونها اليوم من اعتراض وجواب ومماحكة لفظية تغني عن العلوم الرياضية وتقوم مقامها في تحريك الفكر ويقولون ان هذه الابحاث تشجذ الاذهان يريدون انها تحدها وتصيرها قاطعة وتجلو ما عليها من الصدا

وإذن صح أن هذه الأبحاث العقيمة العديمة الجدوى تشخذ
 الافكار وتصقلها كما يقولون فهم في اختيارهم إياها كقوم من العامة
 يريدون ان يمروا أولادهم على القراءة وتصحيح النطق بالكلمات
 فيشتروا لهم من كتب الأقاويص الكاذبة والخرافات الباردة والروايات
 الفاسدة كألف ليله وويله ونوادر جحا ونوادر أبي نواس وروايات
 العشق والغرام فيكون ما ينال الغلام من ضرر هذه الكتب من فساد
 الاخلاق وشحن دماغه بالاكاذيب وتمرينه على الكذب والاحتيال
 وجعله يصدق بكل ما يسمع وينقل اليه وان كان محالاً أكثر مما
 يستفيده من إتقان القراءة وتعويد لسانه على تصحيح النطق بالحروف
 .. والتربية أمرها مشكل وقل في الناس من يعرفها وقوانينها
 مدثورة ومن ذلك فاض بحر فساد الاخلاق على الناس وعم شؤمه
 جميع الأمصار

وكما ينبغي ان يجنب الطالب كتب العلوم المشوشة المشوهة التي
 شرها أكثر من خيرها وضررها أكثر من نفعها كذلك ينبغي ان
 يجنب العلوم التي لا يحصل من وراء تعلمها والاشتغال بها خير له ولا
 لأحد من أهل دينه وبالحرى ان يجنب العلوم المضرّة وقد علمت فيما
 سبق ما هي العلوم التي تمس اليها حاجة الاسلام وترتبط بها بعض
 مصالحة الشرعية والعلوم الغربية عنه والمضرّة به

فالمدارس بأنواعها انما بنيت لتعليم الناس ما هو ضرورى لهم في دينهم أو دنياهم فغير الضرورى لا ينبغي ان ينظر فيه الطالب مادام بين جدران المدرسة فاذا نال الشهادة من المدرسة وخرج منها وأراد ان يتجمل بالنظر في بعض العلوم الكمالية فلا عليه في ذلك بعد ان يكون قد استوفى ما هو ضرورى له من أصناف العلوم التى حبس نفسه بين جدران المدرسة لتعلمها دينية كانت أو دنيوية ومن شغل نفسه بهما معاً الضرورى وغير الضرورى واشركهما في الزمن فهو مظنة ان لا ينال منهما شيئاً يستفيد منه وينتفع به .. وهذا شيء يشترك في معرفته الناس عامة لكن العمل عند أكثر الناس لم يبن على العلم وموجباته وانما بنى على غلبة الهوى وموجبات العادة والتقليد وقل في الناس من غلبت عليه موجبات العلم على موجبات العادة والالفة وسيمربك في غضون الكلام تمام تحقيق لهذا البحث

ثم بعد النظر في أمر الكتب التى تؤخذ عنها واختيار الانفع منها والأوفق والأقرب لاذهان الطلاب وانتقاء كتب كل فن من مؤلفات أحسن المشتغلين به والمؤلفين فيه لا من كتب امام في فن آخر ينبغي ان ينظر في كيفية تلقين العلوم للمتعلمين وإفادتهم اياها : واعلم ان ذلك انما يكون مفيداً اذا علم على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلاً يلقى المعلم على الطالب أو لا مسائل قليلة من كل باب من أبواب الفن

الذي يقرؤه اياه ويقتصر له على أصول الباب وأمهات قواعده لا يتجاوزها الى غيرها ويبالغ في شرحها له شرحاً مجملاً وتقريبها لفكره مراعيّاً في ذلك قوة فكر الطالب ومقدار عقله واستعداده فلا يلتقي عليه ما يرى ان في ملكته قصوراً عنه فاذا كان المعلم يعلم الجمل الغفير من الطلاب فيلاحظ أضعف الطلبة فكراً وأقلهم استعداداً فانه ان تجاوز ذلك القدر أضرب به وليس في ملاحظة حال الضعيف ايذاء بذى الملكة التامة والفتنة المتقدمة .. وليكثر عند ذكر كل قاعدة من القواعد من ذكر الشواهد والأمثلة لأن من الطلاب من لا يفهم القاعدة الا اذا سمع لها مثالا وليبين له عند كل مثال يذكره له كيفية دخول هذا المثال تحت القاعدة .. ثم ليتعمده بعد ذلك بسؤاله عن تلك القواعد وأحكامها ويكلفه ان يذكر لها من الأمثلة ما يناسبها ويبين وجهه دخول المثال تحت القاعدة

فاذا انتهى به الى آخر الفن يكون قد حصل للطالب ملكة في ذلك الفن الا انها جزئية وضعيفة وتتهيء لفهم الفن وتحصيل مسائله حينئذ يرجع به الى الفن مرة ثانية فيرفعه في التلقين عن الرتبة الاولى الى رتبة أعلى ويستوفي له الشرح والبيان ولا يقتصر على الاجمال كما فعل أول مرة ويخرج له عن الاجمال وان كان هناك خلاف يرجع الى طائل وله دخل في الفن وأثر بين في العمل به كالاختلافات التي تقع

في كتب الفقهاء ذكره له وبين له وجوه الاختلاف وأدلة المخالفين
 أما ما كان من الاختلافات العقيمة كاختلافات النحويين في
 الاعراب التي لا يختلف باختلافها اللفظ وكالاختلافات التي تذكر
 في كتب متأخري المؤلفين فمثل هذه لا ينبغي ان تاتي الى الطالب
 ولا ان يمكن من النظر فيها فانها مشوشة لفكره قاطعة له عن تحصيل
 ما هو بصدده تحضيه

وعلى المعلم في هذه المرة ان يكلف الطالب بتطبيق العلم على العمل
 فاذا كان يقرؤه النحو مثلا كلفه ان يقرأ امامه جملا من كتابه
 مراعيها فيما يقرؤه وجوه الاعراب فما أخطأ فيه رده فيه الى الصواب
 وبين له وجه خطائه وما وافق فيه الصواب أقره في بعضه وسأله عن
 وجه استحقاقه لما اعطاه من الاعراب وانكر عليه بعضه ونازعه فيه
 وشككه ليتعود على الجزم بما يعلم ويدفع عنه رعونة الجهل ويستقر
 على الصواب فيما علم وترسخ فيه قدمه ويصير ذلك الحال عنده ملكة
 فاذا انتهى به الى آخر الفن مرة ثانية على الطريقة التي شرحناها
 آنفا عاد به الى الفن مرة ثالثة وقد قويت فيه ملكته واشتد ساعده
 وأحاط بكل قواعده اجمالا وتفصيلا فلا يترك عويضا ولا مهما
 ولا مغلقا الا وضحه وفتح مقفله وقرّب بعينه وليجهد المعلم المرشد في
 هذه المرة ان يمرن الطالب على القاء العبارات وتعليمها وتفهمها غيره

ويكون ذلك بتكليفه ان يقوم بين يديه بعبارة يقرأها ويفسر معناها
ويوضح مشكلها على رفقائه ويمده المعلم ببعض ما عسى أن يغرب عنه من
المعاني وينذره بما يغيب عن حفظه من الالفاظ ولا يعترض عليه
ولا يوبخه على غلط يقع منه فربما كان ذلك قاطعا له عما هو بصدد
استفادته وليناطف في ارجاعه الى الصواب فان كان له جمع من
الطلاب يقرؤن عليه جعل بينهم ذلك على الترتيب فان رأى في أحدهم
مزيد فطنة وفضل تنبه لما يلقى اليه من الارشادات بالغ في مدحه واطرائه
على مسمع من الطلاب فان ذلك يبعث همم البطيين المتغافلين الى
التيقظ والانتباه لكن لا ينبغي له أن يصرح له على مسمع منهم بأنه خير
من فلان وفلان دون فلان فان ذلك يضرهم في قلوبهم نار الحقد
والعداوة ويسهل لهم طرق الترفع والتكبر ويحرضهم على نكايه بعضهم
بعضا فاذا انتهى من الفن المرة الثالثة على الطريقة التي اسلفناها كان
قد استولى على الفن من أطرافه وجمع اليه كل ما يحتاج له وقويت
ملكته فيه وانطلق لسانه بالنطق فصار بحيث يمكنه أن يلقنه كما تلقنه
ويعلمه غيره كما تعلمه وصار بحيث يؤمن منه اذا جلس للتعليم ان
يخلط ويشوش ويضيع على الناس ساعات عمرهم فيما يضر ولا ينفع :
فهذا وجه التعليم المفيد وهذه طريقة أهل العلم والعقل في افادته وقد
علمت انه انما يحصل بثلاث مرّات وربما حصل لبعض الناس فيما دون

ذلك والناس في الاستعداد والفطر متفاوتون .. ولكن من لم يراجع العلم ثلاث مرات قل أن يحصل عنده من الملكة والاستعداد ما يهيؤه للتعليم والافادة وفي قيامه ذلك المقام قبل تحصيل ذلك الاستعداد الطامة الكبرى ومن هذا الباب رزى المتعلمون وساء نصيبهم في العلم وقل حظهم منه واغلاق هذا الباب يحتاج الى قوة إلهية وليس في استطاعة البشر زرع الاستقامة والاعتدال في نفس من لم يفطر على ذلك وليس من العقل ان يلحق المعلم المتعلم المسائل المعضلة في أول تلقيه ويكلفه أن يحضر ذهنه في حلها وكشف غامضها ويلقى عليه غايات الفن في مبادئه كما يفعل اساتذة العلوم الشرعية في هذه الايام سيما علماء مصر فان الرجل فيهم اذا قعد لاقرأ صغار الطلبة وتعليمهم مبادئ علم من العلوم كان أول ما يبدأ به في تعليمهم ان يتكلم لهم على البسملة بشيء من غوامض ذلك الفن ومالا يمكنهم ان يتهيؤوا لادراكه الا بعد زمن طويل واعمال كثير فاذا كان يقرؤهم الكفراوي في النحو مثلا وهو أول ما يقرأ الطالب من كتب هذا الفن وأول مرتبة من مراتب تعلمه أخذ يلقي عليه اعراب البسملة وبيان متعلق الجار فيها وهل هو اسم أو فعل وهل الأولى ان يكون عاما أو خاصا وبيان الظرف المستقر من الظرف اللغو ويذكر له ما في البسملة من الوجوه التسعة وبيان ما يمتنع منها عربية مما لا يمتنع الى غير ذلك مما هو من غوامض مسائل العربية

كل هذا والطالب يسمع ولا يفهم شيئاً مما يلقي اليه واذا كان يقرؤهم السلم في المنطق وهو أول الكتب قرن المنطق بالبسملة بذكر القضايا وحدودها والمختاطات وماهياتها وربما ذكر العكس والتناقض وغير ذلك مما لا يسمعه ففكر متوسطى الطلاب فضلاً عن صغارهم

وربما ذكر له نبداً من علوم شتى غير العلم الذى يشتغل به لمناسبات ضعيفة كما رأيت فى الكلام على علم العربية وهذا من أشد الصوارف عن العلم وأكثرها ضرراً على المتعلمين وكم من حريص على العلوم الشرعية متهاك عليها زهدت نفسه فيها ورغبت عنها لكثرة التشويش الذى يفعاه المعلمون فى التعليم

ومن الحكايات المنقولة فى ذلك ان عباس باشا والى مصر استدعى المرحوم الشيخ ابراهيم السقا لتعليم ابنه الهامى باشا شيئاً من العلوم الازهرية فاختار الشيخ ان يعلمه المنطق قبل كل شئ لئلا يلهى من الآثار على الافكار واختار له كتاب السلم المنورق لمزية فيه على سائر كتب المنطق يعرفها الازهريون فلما جلس الهامى باشا بين يدي الشيخ كان أول كلام الشيخ بعد ان تلا قول صاحب الكتاب الحمد لله الذى قد أخرجنا نتائج الفكر لأرباب الحجا

اعلم ان تعليق الحكم بالمشتق أو فيما هو فى قوة المشتق يؤذن بعملية ما منه الاشتقاق فكأنه قال الحمد لله لاخرجه .. قال من روى

لنا الحكاية فلما سمع إلهامي باشا هذا الكلام أطرق رأسه متبسما وكان ذلك سبب تركه لتعلم ما يحتاج اليه في دينه

واللازم المتحتم على المعلم أن لا يلقى على الطالب مسألة الا اذا علم أن فيه استعدادا لفهمها وقبولاً لها فان الملكات تحصل تدريجاً شيئاً فشيئاً . . . والمتعلم يكون أول أمره عاجزاً عن تعلم أصغر الجمل وأظهرها الا على سبيل الاجمال والتقريب بالعبارات الصريحة والاشارات الحسية ثم لا يزال الاستعداد يتدرج فيه قليلاً قليلاً بمعاودة النظر في قواعد العلم وتكررها عليه مرة بعد مرة والانتقال فيها من التقريب والاجمال الى الشرح والتفصيل ثم الى الاحاطة والاستيعاب حتى تم الملكة ويكمل الاستعداد واذا أقيمت عليه الغايات في البدايات وهو عاجز عن الفهم بعيد عن الاستعداد كل ذهنه عنها وعجز عن قولها فانصرف عن العلم وعدل الى هجره والاعراض عنه بجملته لظنه ان ذلك ليس من استعداده وانما أتى من سوء التعليم

ولا ينبغي للمعلم ان يزيد من يأخذ عنه على فهم كتابه الذي أكبر على تحصيل العلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً أو منتهياً ولا يخلط له مسائل الكتاب بغيرها الا ما كان منها ناقصاً فلا بأس من ذكر متممه لئلا يظن الطالب ان المسألة كاملة وهي ليست كذلك حتى يعيه من أوله الى آخره ويحيط بجميع مسائله فاذا علم

المعلم ان الطالب قد صار لديه من الملكة ما يهيؤه لكتاب أرقى نقله
اليه على بصيرة به على نحو ما أسلفنا

وذلك لأن المتعلم اذا حصل له ملكة في علم من العلوم رغبت
نفسه فيه وتشوفت نفسه للوقوف على أكثر مما وقف عليه من قواعده
وتكميل الملكة والاستعداد فيه ولا يزال كذلك ينتقل درجة
درجة حتى يحصل على الغاية منه واذا خلط عليه من أول الأمر
عجزت نفسه عنه فاما انصرف عنه رأسا وإما اشتغل طول عمره بما
لا يفيد ولا يجدى

ومن محاسن التعليم أن لا يفرق على المتعلم مجالس التعليم ويطاول
بينها فيجعل له في الاسبوع مجلسا أو مجلسين لا ذلك ذريعة الى النسيان
وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض ويسر عليه تحصيل ملكة الفن
والاستعداد فيه واذا كانت أوائل العلم وأواخره عند المتعلم لم يسرع
اليها النسيان وكان ذلك أقرب لحصول ملكة العلم وأقوى ارتباطا لان
الملكات انما تحصل من تتابع العمل وتكراره ومعاودته مرة بعد
أخرى فاذا تنوسى العمل تنوسيت الملكات الحاصلة به

وهذا والحمد لله مما يجرى عليه نظام أهل العلم في المدارس
الشرعية فانهم اذا شرعوا في كتاب جعلوا الاشتغال فيه كل يوم ولا
يتركونه حتى يأتوا على آخره الا أنهم باعدوا بين أطراف العلم من

جهة أخرى باشتغالهم بكتاب واحد خمس أو ست سنوات فلا يأتي الواحد منهم على آخر الكتاب حتى يكون قد نسي أوله ووسطه وطلاب المدارس النظامية يفرقون المجالس وربما لم ينظروا في العلم الواحد أكثر من مرة واحدة في الاسبوع وهذا من جملة فساد التعليم في تلك المدارس وسر من أسرار ضعف ملكات المتخرجين منها فيما استفادوا منها من العلوم

ومن الواجب المتحتم في التعليم ان لا يشتغل الطالب بتعلم علمين في وقت واحد بل ينبغي ان يلحق كل علم على حدة فاذا انتهى منه وأحاط بقواعده واستولى على ما يكفيه منه انتقل الى فن آخر من الفنون فان الطالب اذا اشتغل بفنين أو فنون متعددة في وقت واحد تقسم فكره بينهما وانصرف عن كل واحد منهما الى الآخر فيستغلقان عليه ويستصعبان معا فلا يظفر بشيء منهما ويعود بالخيبة منهما واذا تفرغ الفكر لتعلم كل علم على حده كان أجدر ان لا يرجع عن واحد منها خائبا اذا وفاه حقه من الاشتغال به على مثل ما أسلفنا الا ان من أراد الجري على هذا السنن يلزمه ان يعرف مراتب العلوم ومقاصدها ووسائلها ودرجاتها في الأهمية فلا يقدم المقاصد على الوسائل ولا يقدم غير الأهم على الأهم فانه ان فعل ذلك فان لم يرجع صفر اليدين بصفقة المغبون حرم نفسه كثيراً من منافع الزمن وفوائده

وهذه الطريقة كغيرها من الطرق الحسنة في التعليم مهجورة في المدارس كافة شرعية ونظامية فطلاب المدارس الشرعية يشتغل أحدهم في ثلاثة فنون دفعة واحدة وطلاب المدارس النظامية ربما اشتغل أحدهم بسبعة فنون في زمن واحد والضرر في هذا المسلك كثير وليس من يبحث عنه

هذه شروط التعليم وطرقه وهو مما يجب على المعلم: وكما انه يجب على المعلم أمور اذا أخل بها أخل بالتعليم وخلا عمله عن كل فائدة وكان مضيعا لعمله فكذلك يجب على المتعلم أمور اذا أخل بها فقد سمي على نفسه وحرما ثمرة العمل والذي يجب عليه

أولا — ان يكون غرضه من تعلم العلم التحقق به وخدمة الناس بعلمه وتسهيل طرق الارتفاق ولا يجعل همه التوصل به الى شيء من الدنيا وفوائدها فانه اذا كان ذلك همه كان حرصه على الفائدة لا على العلم فلم تتوجه نفسه اليه تمام النوجه فقل ان تحصل منه على الملكة الكافية واكتفى من العلم بالقدر الذي يصل به الى مطلوبه: وهذا الشرط قل من يراعيه من طلاب العلوم في المدارس الشرعية والنظامية فان أكثر الطلاب لا يتقدرون في أيام اشتغالهم الا الحصول على الشهادة لنوال مرتب أو للاستخدام بها فهو يسعى للمرتب أو الخدمة بكل قلبه ونفسه في شغل شاغل عن العلم: ومما يدل على ذلك انهم اذا حصلوا

على مقصودهم هجروا العلم وتركوه رأساً وأسفوا على ما ضاع من
الزمن في الاشتغال به والجد في تحصيله

وقد ترى كثيراً من هؤلاء الطلاب اذا تقدم أحدهم لينال
شهادة النجاح في مدرسته التي يتلقى العلوم فيها توسل بذوى الجاه
والكلمة لمن يدهم أمر ترقيته لمساعدته على نوال أمنيته وعض النظر
عنه والتساهل معه فيما يبدو منه من قصور ولو ان غرضه من التعلم ان
يكون متحققاً بحقيقة العلم لم يفعل ذلك ولم يحتج الى توسيط أحد
أحد في طلب التساهل معه

ثانياً — ان يتعلم من العلوم ما تقبله نفسه ويميل اليه طبعه ويرى
في نفسه استعداداً لقبوله ولا يتكاف ما ليس في طاقته فليس كل
نفس تقبل العلم ولا كل نفس تصاح لتعلم علم تصالح لتعلم علم آخر فربما
كان لها من الاستعداد في علم ما ليس لها مثله في علم آخر
وعلى المعلم العاقل ان يتعهد تلامذته فاذا رأى من أحد منهم عدم
تهيئ لتحصيل علم صرفه عنه الى غيره ولا يتركه هملاً يصرف نقد عمره
فيما لا ينال ولا يحمله الحرص على الاستكثار من التلامذة والمفاخرة
بهم على تضييعهم وقتل استعداداتهم

ولقد حكى أبو سعيد السيرافي عن نفسه قال قرأت على الخليل بن
أحمد الفراهيدي ثلاثة أيام في العروض فلم أحظ منه بظائل واستصعب

على فكانما أزاول جبلا فلما كان في اليوم الرابع وأنا بين يدي الخليل
في حلقة الدرس التفت الى وقال يا أبا سعيد أحسن تقطيع قول الشاعر
إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

قال فعملت مراد الشيخ فانصرفت عنه ولم أعد اليه لاخذ العروض
. وهذا مالا أثر له في المدارس الشرعية أصلا وربما أمضى الطالب في
مدرسته خمسين سنة يدأب ليله ونهاره في الحضور والمطالعة والحفظ ولم
يفتح عليه بشيء لعدم استعداد في نفسه لتعلم العلم ثم تراه بعد ذلك كله
مشتغلا بالتحصيل آملا ان يحصل له شيء يعوض به مافات من أيام عمره
من غير جدوى وهو أمل كاذب وطمع في غير مطمع لانه لو كان خلق
في فطرته استعداد لقبول العلم لحصل منه في هذا الزمن شيئا كثيرا
إن لم يكن أحاط بجملة وحصل عليه برمته فاذا لم يوفق هذه المدة
لتحصيل شيء دل على انه ليس عنه من الاستعداد ما يهيؤه لذلك
والفيض على غير قابل محال

ومن أعجب العجب ان رؤساء المدارس يعلمون هذا من كثير
من التلامذة الذين تحت أيديهم ولا يصرفونهم عن طلب العلم الى
الاشتغال بما يكون فيه صلاحا لهم في دنياهم بل اذا خوطبوا بذلك
ونبهوا عليه أنكروا ذلك على قائله وعدوه صدأ عن سبيل الله ووقفا
في وجه العلم وربما توصلوا به الى اكفاره ونسبته الى المروق من الدين

وقد كان سعى المرحوم الشيخ محمد عبده ان يجعل لطلبة العلوم في الازهر مدة معينة ينتهون اليها بحيث اذا مضت هذه المدة ولم يتوفق الطالب للنجاح فيما يتلقاه من العلوم يخرج من سلك الطلبة الا انه لم يتوفق لاجراء هذا النظام وأبي الجمود الا الاستمرار على ما ألف من ردى الحال وان تكون مدارس العلم كتسكيا الصوفية لا ينقصها الا الذكر والعبادة واعتل المعارضون للاصلاح بان شروط الواقفين لا تساعد على إخراج أحد من الازهر وان أمضى فيه ألف سنة لم ينل فيها شيئاً وهذا هو الفقه المضر

وقرأت في ترجمة محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الامام الاعظم ابي حنيفة انه خرج حاجاً ومعه رفيق له من أهل بلده فلما كانا في بعض الطريق مات رفيقه فعمد محمد بن الحسن الى راحلته ومتاعه وكل ما معه فباعه فانكر عليه ذلك بعض من رآه وقيل له كيف تقدم على ذلك بغير عهد من الميت ولا اذن من الورثة فقال محمد بن الحسن والله يعلم المفسد من المصلح

ثالثاً ان يأخذ العلم عن معلم مرشد أمين ناصح ولا يستبد بطلب العلم بنفسه اتكالا على ذهنه ومضاء فطرته فان ذلك مهلكة له وضباع لوقته وصرف له فيما لا يجدى وهذا الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا على جلاله قدره ومكانه في الدكاء والحذق لما اتكل على نفسه

وتوقا بذهنه في ادراك حقائق العلوم وسلم من سوء الفهم لم يسلم من
التصحيح واختلاط الأمر عليه بسبب ذلك كما هو مبسوط في ترجمته
ثم ينبغي للطالب ان لا يلقى بزمامه الى كل معلم ولا يملك له لكل من
يتصدر للتعليم بل عليه ان ينظر فيمن يدعي علما من العلوم هل يجد
عنده معرفة تفصيلية بمبادئ ذلك الفن ومقاصده ومسائله وقواعده فان
كان عنده علم تفصيلي بذلك ألقى زمام نفسه اليه واعتمد عليه في تآقي
ما تعرف حاله به من العلوم والا تباعد عنه فان ضرره أكثر من نفعه
وهذا أشكل شيء على الطالب فان تكليفه باختيار المعلم ذي
الملكة القوية التامة وهو خال من كل ادراك علمي في غاية السر عليه
وانما يجب على رؤساء المعلمين ان لا يرشحوا أحدا للتعليم ولا يمكنوه
منه قبل الحصول على الملكة التامة والاحاطة الشاملة بقواعد الفن الذي
يأقي اليه زمام التعليم فيه تجافياً عن التشويش على الطلبة وتعليمهم ما ليس بعلم
وفوق ذلك شروط وآداب للتعليم والتعلم غير ما ذكرنا مبسوطه
في كتب آداب العلم وشرائط التعليم والتعلم وانما اقتصرنا منها على
مالا بد منه وما تركه قاطع عن العلم وحائل بين المتعلم وبينه وتركنا
ماسوى ذلك خيفة التطويل والخروج عما نحن بصدده
فلنا فيما سبق انه من المتحتم على المتعلم ان لا يشتغل بعلمين في
وقت واحد وانه يتعين عليه ان يتفرغ لكل علم على حدة فاذا انتهى
(٣١ - التعليم)

منه وحصل على الملكة الكافية فيه انتقل منه الى علم آخر وبيننا ما في
الاشتغال بعدة علوم في وقت واحد من الاضرار على المتعلمين وزيد
الآن ان نزيد الكلام في ذلك المطلب المهم تفصيلا فنقول

تمهيد : ليس يشك ذو بصيرة بالعلوم ان تعلم العلوم صنعة من
الصنائع كالحدادة والنجارة سواء بسواء وذلك لأن الصناعة ملكة من
الملكات فمنها ما يحتاج الى ملكة في أعضاء البدن كالصنائع الجسمية
ومنها ما يحتاج الى ملكة في الدماغ كالعلوم النظرية والملكة التي تكون
في الدماغ مهما كانت كاملة حسنة فلن تغني صاحبها عن ملكة الأعضاء
في الصنائع التي تتعاطى بالأعضاء الجسمية ألت ترى ان أحذق رجل
في العلوم العقلية وأمهر الناس فيها لو كلف قطع عود من الخشب
بقدم النجار لم يحسن ذلك ولم تهده ملكة الفكر الى وجه ذلك مهما
تأمله وأنم النظر فيه وتراه اذا ضرب بالقدم على العود ضربتين وقعت
كل واحدة منهما في موضع والنجار مهما كان غراً جاهلاً لا يجد على
نفسه شيئاً أسهل من ذلك العمل وهو اذا ضرب بالقدم على العود عشر
ضربات متواليات وقعت الضربات كلها في موضع واحد بغير تأمل
منه ولا تدبر في ذلك ولكن معاودة العمل مرة بعد مرة جعل في
يده ملكة الاصابة في الفعل كما يكون عند العالم من مزاوله قواعد العلم
ومعاودة النظر فيها ملكة الاصابة في النظر وكذلك ملكة اليد لا

تغنى في الصنائع الفكرية لما قدمنا

والصنائع انما الغرض منها سد حاجة الناس فيما يحتاجون اليه منها
فالا حاجة للناس اليه ولا ترتبط مصالحهم فيه بوجه من الوجوه فليس
ذلك من الصنائع وانما هو من الأحوال اللازمة التي لا تتعدى صاحبها
وعلى قدر حاجة الناس الى الصنعة يكون شرفها فكلمها كثرت الحاجة
اليها وكان في تحصيلها عناء وفي اظهارها غناء كانت أشرف وأكمل
واذا كانت العلوم كبعض هذه الصنائع فينبغي ان يحتدى في
تعليمها حذو تعليم الصنائع الذي جرى عليه نظام العالم من يوم بدأ الله
الخلق الى يومنا هذا ونحن نرى اذا نظرنا أدنى نظر وأقصاه ان
الصنائع لا يجمع بين ثنتين منها على شخص واحد في وقت واحد بل
قل ان تجد في الناس من جمع بين صنعتين ومن تراه جمع بينهما فهو
انما يحسن احدهما فقط وربما كان لا يحسنهما لأن كل واحدة منهما عاقت
فكره عن تحصيل ملكة في الاخرى

لكن من حيث ان لبعض العلوم ارتباطاً ببعض ولا كذلك
الصناعات فان كل صناعة منها قائمة برأسها فليس يمكن لطالب العلم
ان يقصر نفسه في الطلب والتحصيل على فن واحد بل لا بد له من ان
يجمع من أنواع العلوم بين ماله ارتباط ببعضه لكن على الطالب الذي
يريد ان ينتفع وينفع الناس بما اكتسب من علم ان يحصر همته في

نوع واحد من العلوم على حسب ما يؤديه اليه اختياره ويجعل اشتغاله في غيره طفيفاً يكتفي فيه بتحصيل المبادئ دون تطلب الغايات وليلاحظ أن لا يشتغل مع هذا العلم بعلم لا يرتبط به ولا يتوقف عليه وتفصيل القول في ذلك انه يجب على رؤساء كل مدرسة من مدارس العلوم الشرعية تقسيم العلوم التي يتعاطون تعلمها وتعليمها بينهم على الطلاب فيشغلوا كل فريق من الطلاب بفن من الفنون فيفردوهم به ولا يمكنوهم من الاشتغال بغيره الا ما لا بد منه في تعلم هذا الفن لأنه من مبادئه فليناو لوهم منه قدر ما يكفيهم في التوصل الى ذلك العلم ولا يزيدوهم على ذلك شيئاً مع مراعاة أهمية الفن ومقدار حاجة الناس اليه فكل ما كانت حاجة الناس اليه أكثر وأعم جعلوا عدد المنقطمين لتعلمه أكثر

فاذا جروا على هذا السنن في التعليم نبغ في كل فن من الفنون الشرعية قوم في استطاعتهم خدمة الأمة بما علموا وسدّ موضع حاجتها الى هذا العلم وأمكنهم ان يحدثوا آثراً حسنة في علمهم الذي اقتبسوه وان يعلموا غيرهم ما تعلموا

فاما اذا جمعوا على التلامذة بين عدة علوم وكلفوهم تعلمها في مدة معينة فقد قطعوا عليهم أسباب التعلم وكان النابغ فيهم من يحصل من كل فن مبادئ قليلة لا تكفي في العمل للناس وسدّ حاجتهم ولا تكفيه

في تلقين غيره شيئاً من العلم وتعليمه إياه

دع عنك الظن والتخمين والشك والتردد فنحن في بلد فيه مدرسة دينية تجمع مئتين من العلماء الحائزين على الشهادات العلمية فاطرح من هذا العدد الكبير خمسة أو ستة نفر منهم انقطعوا لبعض العلوم وأكبوا عليها وأكثروا من الاشتغال بها فحصلوا منها على فائدة تذكر واستقر أفراد الباقين واحداً واحداً فلن نجد واحداً منهم في استطاعته أن يخدم الناس بعلم من هذه العلوم التي حصلها واشتغل بها زمناً طويلاً ثم اختبر فيه كغيره من العلوم ومنح شهادة تدل على النجاح ولا أن يفيدهم فائدة يحسن وقعها ويحمد أثرها: كلاً ثم كلاً: وجُلَّ ما عنده مقدمات قليلة طفيفة من كل علم ربما كان لا يهتدى في أكثرها إلى وجه استعمالها فيما وضعت من أجله

ذلك لأنه لم يعط من علم من العلوم قدر ما يكفي للعمل ولم يُناول منه كل ما يحتاج إليه... ولو أنه أعطي ذلك وربى عليه تربية جيدة ومرن على العمل به تمريناً حسناً لكان في استطاعته ذلك ولا أحسن القيام بتعليمه الطلبة هذا النوع من العلم أما إذا كان هو لا يتقنه وليس عنده من مزاولة قواعده ومعاودة النظر فيها وتطبيق أحكامها على جزئياتها ملكة كاملة فكيف يقدر على أن يحصل لغيره هذه الملكة ومن أشد الأشياء ضرراً على العلم والمتعلمين أن يتولى أمر التعليم من لا يحسنه

ولا يتقنه ولم يحصل فيه ملكة تامة قوية تؤهله للتعليم
ولذلك يرى أكثر العقلاء الذين لهم خبرة تامة بأحوال الازهر
المعمور انه سيكون بعد أيام أحط حالا وأدني رتبة وأقل نتيجة من
المدارس التحضيرية بمصر وهم يبنون هذا على ان المعلمين في الازهر
أصبحوا كمعلمي المدارس النظامية لملكه عندهم في علم من العلوم فاذا
انضم الى قصور المعلمين رداءة الكتب التي يأخذون منها معلوماتهم
كانت النتيجة فيه دون النتيجة في المدارس غير شك وسنعتقد لهذا مقالا
بعد هذا نكشف فيه الستار عن حقيقة الحال في هذا الأمر وانما نحن
الآن بصدد بيان ان اشتغال الطالب بعدة علوم وتفريق قواه الفكرية
بينها يضيع عليه تحصيل الملكة في كل العلوم التي يشتغل بها ولم يكن
في قدرته ان ينفع الناس بشيء مما علم وندعو أهل الزعامة في المدارس
الشرعية الى تفريق العلوم على الطلاب وصرف كل فريق في علم
مخصوص يلائم فطرته ويميل اليه طبعه ليتمكن من تحصيل ملكة فيه
تؤهله لخدمة الناس بما علم وسد موضع حاجتهم الى هذا العلم
فان زعم زاعم ان ثلثي عشرة سنة وهي أقل زمن للدراسة في
المدارس الشرعية لا تكفي الطالب في تلقي مبادي العلوم الشرعية ثم
الانقطاع الى علم يدأب فيه الطالب حتى يحصل ملكة تؤهله لما ذكرت
فالجواب على تسليم ما يزعمه هذا الزاعم من أن هذه المدة لا

تكتفي الطالب لتلقى هذه العلوم ثم الاتقطاع الى علم يتمكن فيه وينال فيه ملكة تامة انه يمكن أن يزداد على هذه المدة المضروبة للدراسة قدر أربع سنوات يشتغل الطالب فيها فيما يرى في نفسه مزيد قابلية له وفضل تأهب لتعلمه والتمكن فيه ويكون ذلك بعد أن يكون قد حصل الشهادة التي تعطى بعد امضاء المدة الدراسية الاولى فاذا أمضي السنين الاربع الأخر اختبر في العلم الذي انفرد له فان رؤي أنه قد حصل على الغاية المطلوبة منه وتحصل على الملكة التامة فيه صرح له بتعليمه دون غيره من بقية العلوم التي تلقن مبادئها في المدة القانونية الاولى

فاذا جرى حزب العلوم الشرعية على هذا السنن في التعليم والتعلم أمكن ان يكون فيهم معلمون ماهرون يعلمون فيفيدون وأمن على العلوم الشرعية ان تضحل وتلاشى وعلى الطلاب ان يفنوا أعمارهم في طلب ما لا ينال

على ان هذه المدة المضروبة في مدارس مصر الشرعية للدراسة لو جرى عمار هذه المدارس على الطرق الحسنة في التعليم والتعلم وهجروا هذه الكتب الرديئة التي أفنوا أعمارهم فيها على غير جدوى لا يمكنهم تقسيم هذه المدة الى قسمين قسم لتلقى مبادئ العلوم الشرعية برمتها على وجه يتمكن به المتعلم من الاهتداء بها الي ما يتوقف عليها من العلوم الأخر فاذا انتهى زمن هذا وحصل الشهادة الابتدائية مال الى فن

مخصوص فانقطع له وبذل جهده كله فيه حتي يتمكن منه تمام التمكن اما
 اذا اصرروا على البقاء على الحالة الحاضرة في التعليم وأبوا الا الاستمرار
 على هذه الكتب فان يحصلوا في هذه المدة ولا في أكثر منها اضعافا
 مضاعفة على شيء ينتفعون به ويتفهم غيرهم منهم به وحاشيتنا الصبان
 والبناني تحتاجان الى هذه المدة بطولها فمن أين لهم ان يتفرغوا التحصيل
 شيء غيرهما

ولذلك كنا نرى ان من اغلاط الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده
 في اصلاح حالة العلوم الشرعية في الازهر ادخال الجغرافيا والحساب
 وغيرهما في جدول الدروس الازهرية لالآن هذه العلوم لاخير فيها
 أولا أهمية لها بل نرى ان لبعضها فضلا على بعض العلوم الازهرية بل لأن
 في ذلك تكثير عدد العلوم على الطلاب مع تبين عجزهم عن تحصيل ما
 بأيديهم من العلوم وأي رجل له بصير في العلم ومعرفة بكيفية استفادته
 والانتفاع منه يعقل ان الطالب المفطور على السداجة وضيف الخيال
 وسكون القوة المفكرة مع قصور في التربية بلغ النهاية وجاوزها يستطيع
 ان يجمع في فكره ثمانية عشر علما في ثلثي عشرة سنة فيتلقي كل علم
 في ثمانية أشهر وهل يمكنه اذا قسم فكره بين تلك العلوم في تلك
 المدة ان يستفيد الناس من علمه ذلك شيئا .. كلا .. ولم نقرأ في تاريخ
 علماء البشر ان أحدا منهم اشتغل في ثمانية عشر علما بنسبة واحدة

ثم نبغ فيها كلها أو في شيء منها

وقل ان ترى في تاريخ العلماء رجلاً نبغ في علم الا وتراه قد انقطع له ولازم الاشتغال به وهجر ماعداه وان وجد له شركة في علوم آخر فضعيفة جداً وآثاره في ذلك قل ان توجد الا مشوشة مضطربة وهذا شيء لو أردنا سرد الشواهد عليه لكتبنا في ذلك شيئاً كثيراً وخرجنا عما نحن بصدده

وهذا سرٌ تبرم عقلاء الازهرين ممن كانوا يشايعون الاستاذ المرحوم مشايعة حسنة على طلب الاصلاح في الازهر والانفراد عنه في هذه العلوم الحديثة التي سعى المرحوم في إدخالها الى الازهر وان لم يجعل الاشتغال بها ضربة لازب وليس سبب ذلك انهم يكرهون هذه العلوم وينفرون منها ولا يرون بها فائدة كما يقول ذلك من لا يعرف التوسط والاعتدال في تقرّظ وانتقاد: وفي الازهر رجال لهم بصر ودراية بالعلوم وكيفية ترقّيها ولكن صوتهم في الازهر ضعيف وأغلبية الأصوات في جانب الذين يرون ان التزحزح عن الحالة القديمة قدر شبر خروج الدين قدر ميلين

وليس يعار على العالم ان يجهد شيئاً من العلوم بل الاحاطة بالعلوم شيء من فوق طاقة البشر وأي رجل أحاط بالضرورة من العلوم فضلاً عنها كلها بل لو نظرنا في تواريخ أكبر رجال العلم والفضل لم نجد

(٣٢ - التعليم)

أحداً منهم أحاط بكل العلوم وحصل فيها كلها ملكات يمكنه ان ينفع
الناس بها ولا رأينا أحداً عابهم وانتقصهم بما جهلوا من العلوم ولم
يحيطوا به خبراً: وهذا المرحوم الشيخ محمد عبده كان يضرب بنحطه المثل
ويقال انه المعجزة الكبرى ولم يكن يعرف شيئاً من العلوم الحديثة
التي سمي في ادخالها الى الازهر وما كان له فيه معرفة فدوت
الطفيف وأقل من القليل وهؤلاء الذين قد ضموا اليهم العلوم من
أطرافها لو فتشت عن حالهم لوجدت الحصيف النبيه فيهم من يتقن
علماً واحداً وليس له في غيره باع فان كتب فيه أو حدث به خلط وهذى
فلم لا يرون قصورهم في غير علم واحد عيباً وإعراضهم عن الاشتغال
بتلك العلوم التي جهلوا حطة وضعة وانكارهم لبعضها معاداة للمعلم
وبغضا للفضيلة كما يعملون الأزهريين كذلك وما مصدر هذا التفاوت
بين الفريقين

ثم ان العلوم ينبغي ان يكون عدد المشتغلين بها على قدر ما يسد
حاجة الناس اليها ولا ينبغي ان يزداد على ذلك فيها ولا ان يشتغل بما لا خير
للناس فيه فاذا زاد عدد المشتغلين بالعلوم عن مقدار حاجة الناس اليها
كان الضرر فيها أكثر من الخير والفساد فوق الصلاح سيما بين قوم
فطروا على البطالة وحب السكون والاخلاد الى الراحة وفي تلامذة
المدارس النظامية ما يكفي لحاجة الناس للعلوم الحديثة فلا فائدة في

تكاليف أهل الازهر الانضمام اليهم وتكثير سوادهم وان لم يكن كل هذا العدد الجم كافياً في حاجة الناس الى الجغرافيا فاحر أن لا يكون عدد المشتغلين بالعلوم الشرعية كافياً في حاجة الناس اليها وحاجتهم اليها فوق حاجتهم الى الجغرافيا وما شابهها وهم أقل من أولئك عدداً ..

وفوق هذا ففي الاستطاعة أن يحشر الى المدارس النظامية أضعاف هذا العدد الموجود فيها الآن فيتداركوا حاجة الناس ويسدوا موضع الخلل وتتوسع على أرباب القهاوى ومحلات الملاهى أبواب الارتزاق من قوم صغار فى زى كبار وعلماء بلا علم فيتم السخط وتحق كلمة العذاب هذه حقائق لأوهام وعلوم لا ظنون ولدها التأمل واعتبار الحاضر بالماضى وقياس الشاهد على الغائب مع اتحاد ما بينهما فى كل الأوصاف وجميع النسب وخلصها الاعتدال من كدر الاغراض النفسانية والأميل الشخصية ومن تأمل تأملنا واطرح التعصب لقوم أو التعصب عليهم كما فعلنا وترك شهوة نفسه وأميلها كما صنعنا لم يختلف علينا فى شئ مما ذهبنا اليه ولم يرتب فى أنه الحق الصراح البين الذى يجب السير عليه أمان كان له هوى فى قوم وغرض فى طريقة فله أن يقول ما يشاء ويختار ما يشاء وانما العبرة بالعواقب واذا وجدت النتائج عرف حال المقدمات ولا بن خلدون فى مقدمة تاريخه كلام ينفع فيما نحن بصدده

فذكره إستيفاء للبحث قال

(فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها)
(ملكة في أخرى)

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء الا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صفتها . والسبب في ذلك ان الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدهم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على مرتبة واحدة من الاجادة حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجدها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبه بل يكون مقصراً فيه إن طلبه الا في الاقل النادر من الأحوال ومبني سببه على ما ذكرنا من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم

وقال في موضع آخر ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهمه كتابه الذي أكب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط له مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل اغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكة في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانظمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة الي النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض

فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند
الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صفة
لأن الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة
الناشئة عنه والله اعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخط على المتعلم علمان
معاً فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم فكره وانصرافه عن كل
واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا
تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصرأ عليه فربما كان ذلك أجدر بحصيله
ودليل هذا الذي ذكرنا مما يشاهد اليوم انك لا ترى بين عقلاء
الافرنج وعلماهم رجلا جمع بين علمين واستعد لخدمة الناس وانما يقتصر
كل واحد منهم على علم ينقطع له ويستبد به ويستغل فيه ليله ونهاره حتى
يتمكن فيه وتصير له ملكة الاستفادة منه وافادة الناس اياه وافادتهم
به ولذلك ترى انهم في مجتمعاتهم العلمية كلما عرض لهم بحث من
الابحاث العلمية وكلوا النظر فيه الى نفر من أعضاء الجمعية من مشاهير
علماء ذلك الفن الذي وقع البحث فيه ليتفقوا فيما بينهم على أمر فيه ولا
يتقدم من ليس له باع طويل في ذلك الفن لمشاركتهم في النظر لانه
لا يري لرايه القاصر وملكته الضعيفة في ذلك الفن فائدة ولو انه ندب
الى ذلك لم ينتدب فكل ما يبدو لهم وللناس من الحاجة الى علم من
العلوم يجدون بينهم من يكفيهم أمره ويسد موضع الحاجة بصائب
فكره وسديد رأيه

ونحن على خلاف ذلك فأى حاجة ظهرت في العلوم لم نجد من يكفيننا أمرها ويكشف عنا بنير فكره سبحانه غمها على ان فينا من طلاب العلوم على اختلاف أنواعها قوم لا يحصون كثرة

ذلك لأننا لم نكتف بعلم أو علمين وإنما حاولنا ان نجتمع في أفكارنا العلوم كلها حتى لا يفوتنا منها شيء ففاننا كلها ولا أنهم جعلوا غايتهم فيما يطلبون من العلوم الوصول الى ثمراتها واستمتاع النفس بفوائدها وجعلنا غايتنا من العلم التي نكد ونكدح لاجل تحصيلها اما اتقاء مكروه يشق على نفوسنا أو التوصل الى وظيفة فمن خاب منا في العلم أمه ولم يدرك منه غايته هجره ومقته ومن توصل به الى ما يريد هجره واطرحه لأنه قد حصل على الغاية التي كان يطلبه لاجلها فلم يبق له من رغبة فيه وهكذا ذبح العلم بيننا فما نحس له بيننا ركزا

وانا لندرجو الله ان يوجه وجوه كبرائنا ورؤسائنا بعد اليوم الى اختيار ما هو الاوفق لنا ويجمع شتات كلمتهم ويؤلف بين قلوبهم وينزع ما في صدورهم من غل وحقده على بعضهم حتى يكون نظرهم في أمرنا سعياً لنا لا سعياً علينا فقد ساء الحال وساء الظن في المال والله المستعان على كل حال

ومن جملة العوائق عن التحصيل لطلاب العلوم الشرعية الاكثار من النظر في المؤلفات على تشعب اصطلاحاتها واختلاف عباراتها

ومذاهبها وربما جمع الطالب في علم واحد بين عشرين كتابا وشغل نفسه بها كلها يظن انه سيعثر بين سطور تلك المؤلفات على الحقيقة المطلوبة والضالة المنشودة وانه ان وثق بكتاب واحد من بين تلك الكتب ربما اعتقد غير الصحيح صحيحاً وهذا خطأ في الرأي وضلال في القصد فان الاكثار من النظر في الكتب حائل بين الطالب وبين الحقيقة حاجب له عن الوصول اليها حتى انها ان كانت موجودة ضمن كل كتاب من تلك الكتب ضل عنها ولم يبق في استطاعته الوقوف عليها ولا بن خلدون في هذا البحث فصل ذكره في المقدمة نذكره هنا لما فيه من الفائدة وعسى ان يكون فيه مقنع لقوم خرج بهم التوسع في المؤلفات عن حد الشعور والتصور فصار لكل شرح عندهم حاشية ولكل حاشية تقرير وهكذا الى ماشاء الله وعلى كل من نظر في كتاب ان ينظر في كل ما عليه من الكتابات وان بلغت عدد الرمل والحصى: قال

(فصل في ان كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل)

اعلم انه مما أضر بالناس في تحصيل العلوم والوقوف على غاياتها كثرة التأليف واختلاف الاصطلاح في التعاليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والبخمي وابن

بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن
الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية
والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له
منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمعلم مطالب باستحضار جميعها
وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل
المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً وماأخذه قريباً
ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها
ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق
البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين
والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب
به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل
ما وصل اليه بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من
أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة
تلك الصناعة لم تحصل الا لسيدويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكته وما
أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك علي ان
الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد
المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نواذر
الوجود والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفنى بحصول علم العربية
مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة من الوسائل فكيف يكون في المقصود الذي
هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء اه

فان خلدون يرى ان المشتغلين بالنحو حين جمعوا في تلقيه بين

كتاب سيبويه وما كتب عليه استعصى عليهم الفن وبعد عن أيديهم
فلم يبق في استطاعة أحد منهم الوصول اليه فكيف يقوم يأخذون

هذا الفن من عشرات من الكتب على كل كتاب منها عشرات من الشروح والحواشي والتقارير وليس في شيء منها شيء من علم النحو وكلها أو جلها في أبحاث لفظية ومباحث قليلة الجدوى لاهي في النحو ولا في علم من العلوم واذا استكبر ابن خلدون ان يوجد في عصره رجل يحسن علم العربية كابن هشام على فساد طرق التعليم في عصره بالنسبة لما ينبغي ان تكون عليه طرق التعليم وعد نبوغ مثله من نوادر الوجود أفليس من الكثير على مثلنا ان يكون عندنا في علم العربية ملكة نفرق بها بين الفعل وفاعله وأجل ما نعتمد عليه في تعلم هذا الفن حاشية الصبان على الاشموني بتقرير الانباني وتقرير الحامدي وتقارير بعض المحققين أو ليس يحق لمن غاص منا في أعماق بحار تلك الكتب والحواشي والتقارير واستخرج من لججها المهلكة لؤلؤتين من مسائل النحو تمكن بهما من قراءة جملة وكتابة أخرى من غير لحن فيهما ان يعد نفسه كسيبويه في عصره

وابن خلدون قد استولى عليه اليأس وتولاه القنوط أن يرجع أهل عصره عن طريقهم في التعليم الى طريقة مثل تضمن للطالبين الوصول الى ما يحاولون من أنواع العلوم فقال ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ولكننا لانزال نرجو ونأمل ان يتنبه رؤسائنا لما في الاخذ من هذه

الكتب من المضار وصرف الاوقات في غير طائل فينصرفوا بنا الى غيرها من الكتب النافعة وان تلين شكيمة أهل العصبية فيحملوا نفوسهم على الاعتراف بالحق والعمل به وان للباطل دولة ثم يضمحل والحق حي وان دفن ولن يعدم حق له أنصاره مطالبون

فصل — قلنا في كلام سبق ان الاشتغال بمختصرات الكتب مضر بالمتعلمين عائق لهم عن التحصيل وان اختيار طلاب العلوم الشرعية اليوم مختصرات المتأخرين التي نحتوها من كتب المتقدمين نحتا لن يصلوا به ولا الى بعض الغاية من تلك المؤلفات من أضر شئ وقلنا ان احتجاج علماء هذا العصر والمشغوفين بالكتب المتداولة على اختيارها باختصارها حجة عليهم ووعدنا ان نبين ذلك بيانا شافياً يرفع النزاع بيننا وبينهم ونحن الآن ننقل ما لابن خلدون من الكلام في هذا الموضوع وتبعه من الايضاح والبيان بما فيه مقنع لمن رزق بصيرة قال ابن خلدون

(فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسأله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأهميات المطولة في الفنون كالنفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفاظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه

وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخطيطاً على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي (تقدم نقل ما وعد به هنا في فصل قبل هذا) ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتبع ألفاظ الاختصار العويصة لفهم بزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت : ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيد من حصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له

فاذا كان الاشتغال بالمختصرات عائناً عن التحصيل وما نعا من حصول الملكة في العلم كما يقوله ابن خلدون فكيف تقدر ان يكون الحال لو انضم الى هذه المختصرات شروح وحواش وتقارير وهو امش مشحونة كلها بابحاث عقيمة ومما حكاك لفظية واجتمعت كل هذه الى رداءة الالتقاء والتعليم وقلة الملكة في المعلمين وضربت بجرانها على فكر التلميذ الضعيف وهل ترى ان يكون في استطاعته ان يتحصل من هذه الظلمات المتألفه المتكاثفة نوراً يهتدي به

ومن أعجب الاشياء ان هذه الطريقة الممقوتة في التأليف المضرة بالمتعلمين والمضیعة لاوقاتهم صارت في هذه الايام هي الطريقة المثلى

والسنة المتبعة فكل من عدل عنها وخالفها وكان كلامه فيما يؤلف من العلوم ظاهر المعنى حسن الدلالة كان قاصراً في العلم ليس من أهل التحقيق وكل من كان كلامه على الضد من ذلك مغلقاً مبهماً مجملاً لا يفهم المراد منه الا بتوقيف من المؤلف كان ذلك المستحسن المستجد وكان صاحبه هو العالم البارع

وأغرب من هذا ان بعض المؤلفين من المتأخرين يتجاوز الحد في إخفاء المعنى واغلاق العبارة والاشارة الى المقصود من طرف خفي ربما نظر في مؤلفه يوماً فلم يهتد لمراد نفسه فيه ولم يعلم الغرض الذي بنى عليه الكلام فاحتاج الى امعان النظر فيما حرره لينفع به الناس على ظنه فلم يكن في إمكانه ان ينتفع به هو وإعمال الفكر فيه ثم جعل عليه مؤلفاً آخر حل رموزه وقد اتفق مثل هذا للخياي فانه كتب حاشية على شرح سعد الدين على النسفية اختصر فيها الالفاظ وأكثر المعاني لدرجة انه لم يدع لنفسه جهداً في الاختصار قالوا ثم انه رجع الى حاشيته بعد زمن فلم يهتد لشيء من مراده فيها وأعضل عليه فهمها فعكف زمناً طويلاً عليها يطالع ويراجع وينقب حتى كشف له عن رموزها فكتب عليها حاشية سماها مهوات الخيالي اشارة الى ما اتفق له في حاشيته الأولى

وكثيراً ما يقع مثل هذا لبعض المؤلفين من أهل هذا العصر

وأعرف من هؤلاء رجلا من علماء مصر كان اذا استشكل بعض عبارات المؤلفين أو لم يجدها صالحة كتب عليها (فيه ما فيه) اشارة الى ان في الأمر اشكالا يجب التنبيه له ولم تسمح نفسه بابرار هذا الاشكال الذي ربما كان أفرغ من السلب المطلق واتفق ان أحد تلامذة الشيخ سأله يوماً أن يحل له رمزاً من تلك الرموز فاضطرب وتحير وصار يقرأ العبارة ويكررها كأنه يتذكر مذهباً ثم كان جوابه لم يبق في فكري منها شيء وهذا داء يعسر دواءه والله المستعان على ذلك كله

هذا ومن الامور المتحتم مراعاتها في التعليم أن يكون في المتعلم استعداد لتعلم العلم وتلقيه فان لم يكن له استعداد وفيه قابلية لذلك فلا ينبغي ان يدخل في صفوف طلبة العلم لأن فيه اضاءة له وصرفاً لعمره فيما لا استعداد له فيه ولا حظ له في الحصول عليه وهذا يعرف بالنظر الى المتعلم بعد مدة يسيرة من الاشتغال فان رؤى قد علق بفكره شيء مما ألقى اليه وتحفظه وفهمه استدل بذلك على قابلية فيه وتهيئ للتعليم وإلا علم أنه على الضد من ذلك فصرف عن العلم الى ما يلائم عقله من الصنائع

وهكذا كانت طريقة المتقدمين في تعليم العلم فما كانوا يقبلون كل أحد في حلق دروس العلم ولا يسمحون لكل أحد بالانخراط في سلك المتعلمين وانما كانوا يقبلون من شعروا منه باستعداد للعلم وتهيئ

له : وكان المعلم من أولئك العقلاء اذا التف حوله لفيف من الطلبة المتعلمين ليتلقوا عنه ما أعد نفسه لتعليمه من العلوم اختبرهم في اقصر وقت وعرف ما عند كل واحد من الملكات والاستعداد وعرف ما الذي يناسب استعداد كل واحد منهم من العلوم والصنائع فصرف كل واحد منهم فيما رأى أنه مستعدله فكانت صفوف أهل العلم منتظمة والتربية ناجحة والافادة غير عقيمة والناس كل واحد في مركزه يؤدي لبني نوعه من الخدم ما يساعده عليه استعداده وفطرته

ولم يكن أولئك المتعلمون يستعصون على معلمهم ويكابرونهم على ما رأوا من حالهم بل كانوا لا يختلفون عليهم بشيء . . . ذلك لأن أحدهم ما كان يرى الشرف والرفعة وعلو المكانة بالانتساب الى العلم وان تكن نسبة مجردة عن التحقق به وانما كانوا يرون الشرف كله والسعادة برمتها في أن يخدم الانسان بني نوعه الخدمة التي يؤهله لها استعداده الذي فطر عليه قويا كان أو ضعيفا ويعتقدون ان الانسان متى أدى هذه الخدمة فقد حصل من الشرف والسؤدد على أقصى غايتها وساوى سائر الناس على اختلاف استعداداتهم وان ما ليس في وسع استعدادهم يكلف بالقيام فيه ولا يعدّ عدم ظهوره على يديه نقصا منه ونحن أهملنا الكلام على هذا المقصد المهم واكتفينا بالإشارة اليه فيما سبق لعلنا ان في حمل الناس من أهل النظر في العلوم على اختلاف

أنواعها عليه حملا لهم على المركب الخشن وفي تكليفهم العمل به تكليفهم
بملا يطاق وربما كان فيهم من يرى ان الكلام على هذا صمد عن
السبيل ووقوف في وجه العلم وانما لكل امرئ ما نوى

﴿ خاتمة المقال ﴾

هذا آخر ما قصدنا اليه من الكلام على العلوم الشرعية وكيفية
تعليمها وبيان الكتب المتداولة اليوم ودرجتها بين الكتب العلمية
وكشف الستار عن جيدها ورديتها واختيار النافع من الضار منها
والاشارة الى مايجب مراعاته على المعلمين والمتعلمين للوصول الى العلم
والحصول على النتيجة المطلوبة منه .. وقد كان الكلام في كل ما سبق
القول فيه يحتاج الى بسط الكلام عليه بأكثر مما ذكرنا الا أننا رأينا
أن نكتفي بهذا القدر اليسير والاشارة اللطيفة لما نعلم من حسن نظر
من كان اخطاب لهم بهذا الكتاب وإكتفائهم باليسير عن الكثير
وعسى أن يحقق الله ظننا فيهم بالرجوع الى الحق وقت الامكان وتلبية
نداء الامة باصلاح حال العلوم الشرعية قبل ضياع الفرصة المناسبة
وما ذلك على الله ببعيد

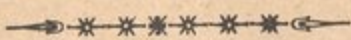
ولقد يعلم الله أننا بالغنا في البحث والتأمل وأكثرنا من استقراء
أراء الناس في هذا الموضوع الذي بنينا كتابنا على البحث فيه واختيار
الافق والانع والاقرب للمصلحة ولم نثبت شيئا مما أثبتناه في كتابنا

هذا الا وقد ظهر لنا من الدلائل والقرائن على صحته وملائمته ما يدفع
عنا كل ريبة في أمره ولم نراع في شيء مما كتبنا سنة مألوفة ولا عادة
متبعة ولا راعينا قوما ولا تحيزنا لفريق وانما تحرينا في كل ما كتبنا
الحق الواضح البين وان خالف عادتنا وما ألفناه وخالفنا قوما في اشياء
كثيرة ما كنا نخالقهم لولا ان لحق أحق بالاتباع والمصلحة خير
لنا منهم وخير لهم منا

وبعد هذا كله فالانسان معرض للخطأ والسهو والنسيان
وما كنا لندعي لنفسنا العصمة في الرأي الذي تفرده به خالق الخلق
والحفظ عن الزلل في الاجتهاد وما ذلك من سماتنا وان لنا من العذر
على ما قد يكون وقع في الكتاب من خطأ في الرأي مالا يخلو عنه
انسان ولنا فيه مع ذلك أجر الاجتهاد وثواب حسن النية والاخلاص
في القصد والله عليم بنوايا عباده مطلع على ذلك منهم وهو مجازيهم على
ما علم منهم إن خيراً خيراً وان شراً فشر

واختتم الكتاب كما أفتتحته بدعوة رؤساء العلوم الاسلامية
وأصحاب الرياسة على طلاب العلوم الشرعية ان يشاركونا في البحث
في هذا الموضوع وينظروا معنا في اختيار الاوفق والانفع للعلوم
الشرعية ثم العمل بما يقع عليه الاختيار فاشتغالهم بذلك شرف لهم الى
يوم الدين وهو خير من أن يقع الاصلاح على يد غيرهم على كره

منهم فيكون ذلك عليهم عار الابد وسبة الدهر وربما كان في ذلك
 الاصلاح القضاء على العلوم الشرعية كما يترا آى لنا من وراء حجاب
 كان الله لنا ولهم خير موفق ومعين



﴿ كلمة في الازهر ﴾

الازهر أعظم وأقدم مدرسة اسلامية على وجه الكرة الارضية
 وليس يدانيه في شيء من أوصافه جامع بني أمية بدمشق ولا جامع
 الزيتونة بتونس ولا جامع السلطان محمد الفاتح بالآستانة العلية ولا مدرسة
 عليكده بالهند بل هو خيرها كلها ولقد توفر فيه من المزايا ما لم يتوفر في
 غيره من المدارس ولذلك كان قبلة الآمال ومحط الرحال وكانت منزلته في
 العلوم الشرعية كمنزلة الدولة العلية العثمانية من حيث السياسة الاسلامية
 من أجل هذا رأينا بعد أن ختمنا الكلام على العلوم الشرعية وذكر
 الطرق المناسبة في تعلمها وتعليمها والمؤلفات الجيدة التي يجب الاعتناء بها
 والاخذ عنها ان نخص هذه المدرسة بكلمة نقولها فيها لأن لنا ولسائر
 المسلمين فيها من الآمال ما ليس لنا في غيرها من المدارس الاسلامية
 لأسباب ليس هذا محل بسطها نستلف في هذه الكلمة أنظار حضرات
 رؤساء الازهر وذوى الكلمة النافذة فيه بعد استلفات انظارهم بما سبق
 من القول انى حالة العلوم وما يحيط فيها من الاخطار التي تهددها الى
 (٣٤ - التعليم)

أشياء قد أهملت في الأزهر وفي اهمالها حطة بمقامهم ودلالة واضحة
على عدم اعتنائهم بأمر الأزهر والنظر فيه كما يلزم والى أشياء آخر
فشا بين أهل الأزهر استعمالها والحرص عليها وملازمتها وهي غير
لائقة بهم ولا حسنة منهم

ونحن لسنا ننتقد عليهم ما لم ينتقده أحد عليهم ولا نذكر عنهم
ما لم يذكره أحد قبلنا وإنما نعید على مسامعهم ذكر ما ينتقده الناس أبدأً
على الأزهريين ونأمل ان أخفقت كل المساعي السابقة في تحسين حالة
المجتمع الأزهری وذهبت كل تلك الافوال ادراج الرياح أن لا تحقق
مساءينا ولا تذهب أقوالنا فان في الأزهر اليوم قوما لهم رغبة شديدة في
الاصلاح وميل شديد الى تحسين حالة الأزهريين وكف السن
اللوام عنهم وفي يدهم من السلطة ما يمكنهم من إجراء هذا الاصلاح
وقد قل حزب المعارضين للاصلاح وتفرقت كلمتهم وضعف صوتهم
في الادارة الأزهرية

على أنهم اذا اصرروا على البقاء على الحالة الحاضرة وسدوا آذانهم
عن سماع كل نصح وارشاد وساعدتهم الوقت الحاضر على رد كلام كل
متكلم في شأن الاصلاح المطلوب فلن يستطيعوا أن يضموا انفسهم
استمرار هذا الحال وبقاء الدهر معهم في المساعدة على ما يريدون وكف
أيدي الاصلاح عنهم فرب يوم يأتي يحاولون فيه الاصلاح فلا يستطيعون

اليه سبيلا ويودونه فلا يتمكنون منه ويخرج الأمر من يدهم الى يد
من لا يرضى إلا بتصرفهم حسب ارادته وعلى قدر ما تساعد عليه
أغراضه وان كان في ذلك فساد حالهم وتفريق جماعاتهم ولهم فيما سبق
عبرة فاعتبروا يا أولي الابصار

﴿ السلطة في الازهر ﴾

يظن الظان اذا سمع بالازهر عن بعد وعلم أن هناك شيخاً
عمومياً متسلطاً على كل من جالس بين جدران الازهر وأعضاء يستمعين
برأيهم وعملهم ومشايخ أروقة ومشايخ حارات يسيطر كل واحد منهم
على من تحت يده من أهل حارته ورواقه وان هناك مباشرة ينفذ أوامر
الرئيس الكبير وأعوانا كالشرط وسمع أن لكل واحد من هؤلاء الذين
ذكرناهم لوائح وترتيبات وقوانين ان حالة النظام هناك كاحسن ما يمكن
أن تكون عليه مدرسة فاذا وقف على أحد أبواب الازهر والتي نظره
على جموع من الطلبة يموج بعضهم في بعض علم أن لا نظام ولا انتظام
وظن نفسه أنه في سوق من الاسواق العامة التي تقام في بعض الاماكن
في أيام مخصوصة فيقصد لها الناس من جهات شتى

يرى قوما فيهم القائم والنائم والقاعد والمضطجع والمستلقي والساكت
والمتكلم والممشى والمرول وفيهم من يسب ويصخب ومن يقهقه
ويضحك ومن يرفع صوته ويتحدث وقد ارتفعت الضجة عنهم حتى بلغت

كبد السماء ولم ير بين تلك الجموع أحدا من الرؤساء الذين تقدم ذكركم
يكف أو يمنع أحدا عن فعل ما لا يليق ويبت روح السكينة والطمانينة
بين تلك الجموع ويقف بكل أحد منهم عند حده الذي يضر بغيره
تجاوزه إياه أو يخل بالآداب

بل الطالب الازهرى يدخل الازهر فيمضى فيه عشرات من
السنين لا يحس فيها بسلطة ولا يستشعر برياسة يحضر ان شاء متى شاء
على من شاء لا يتقيد بمعلم ولا بكتاب ولا زمن يحضر فيه وكأنه في
تنقلاته في حلق الدروس ورجوعه عن معلم الى آخر كريحة معلقة في
الهواء لا تستقر على حال من التلق وان لم يكن له نية في الحضور ولا
همة في التعلم ترك ذلك كله رأساً واشتغل بما يوافق شهوته وأغراضه
لا خائفاً واث ولا مرتقياً

والسلطة في الأزهر التي يشعر بها الازهريون تنحصر في أمر
واحد وهو ان الطالب لا يمكنه مفارقة الازهر الى جهة من الجهات
الابعد الاستئذان من مشيخة الجامع أو دخول وقت البطالة الرسمية
التي يباح فيها ذلك اباحة عمومية أما فيما عدا ذلك فلا سلطة في الازهر
لأحد على أحد وكل واحد منهم مخير في فعل ما يشاء .. ولولا أمر
الجزايات لم يوجد فيه هذا النوع من السلطة وكان في استطاعة كل
واحد منهم أن يسافر جهاً متى شاء ولذلك فالموسرون من الطلبة لا

يبالون أن يسافروا متى شاؤوا ويحضروا متى أرادوا لا يحجر عليهم ذلك
أحد ولا يمنعهم منه مانع

وهذا من أغرب الاهیال وأضره علی أخلاق الطلاب وآدابهم
ومستقبل حالهم والانسان مفطور علی حب الاستقلال بالرأی مجبول
علی كراهة التقید برأی غیره میال بطبعه الی فعل كلما یوافق اغراضه
ویلائم طبعه وتوحیه الیه نفسه فان لم یکن فوق إرادته إرادة قاهرة
تضطره لفعل شیء والكف عن شیء وتقف به عند حد مخصوص خرج
فی أكثر أعماله وحركاته وسكناته عن حدود الیاقاة والأدب وساء
حاله ومآله ولم یکن هو الجانی علی نفسه ومستقبله وانما الجانی علیه من
ضمه الی كنفه ووضع تحت نظر حیاطته وتكفل لاهله بتربیته التریبة
الحسنة ورفع عن عنقه سيطرة أهله وذویه ثم تركه هملا یفعل ما یشاء
ویقول ما یشاء بدون قید ولا مراقبة

فالازهر یون أحوج ما یكون الی نظام یكون مسیطراً فی علیهم
فی حركاتهم وسكناتهم وكل تصرفاتهم وفی ذلك مصلحة كبریة لهم
ولیس فی هذا تضییق علی طلاب العلوم الشرعیة ولا صد عن سبیل
الله كما یدعیه أهل الأهواء الفاسدة والاغراض السقیمة الذین ران
علی قلوبهم حب الفوضویة وأشربت قلوبهم كراهة النظام والانتظام
وانما الصد عن سبیل الله وتغییر خلق الله فی ترك عشرة آلاف نسمة

من بني آدم يفنون أعمارهم اما في بطالة ولهو ولعب ويكلفون الأمة
ان تحمل عنهم أعباء هذه الحياة الثقيلة على ان الأمة في حاجة الى
من يحملها

نعم ان للأزهر من الاوقاف ما يقوم بنفقته الباهظة ولا يكلف
أهله أحداً من الناس ان يؤدي عنهم بعض ما يلزمهم ولكن ليس كل
أهل الأزهر يقدم لهم ديوان الاوقاف لوازهم المعيشية وأكثرهم
يقضون أعمارهم الطوال عالة على آباء ضعاف فقراء هم أحوج منهم
الى المساعدة. ثم ان الاوقاف التي وقفت على أهل الأزهر فانما وقفت
عليهم على انهم مشغولون بعلوم الشريعة أتم اشتغال وأحسنه قائمون بكل
الوظائف التي تناط باهل العلوم الشرعية فاذا أهملوا ذلك وصارت
اضافتهم للعلم لادنى ملابسة واقتصروا من تعلم العلم على الاجتماع في
المدرسة والاعتكاف فيها مع عدم الاشتغال بالطلب كما هو حال بعض
طلاب الأزهر او اشتغلوا به وطلبوه لكن من غير وجهه الذي يطلب
منه عند عقلاء الناس بحيث صار لا يحصل من وراء طلبهم مصلحة للناس
منعت عنهم الاوقاف وصرفت الى جهة أخرى يكون فيها للناس مصلحة
والفقهاء يقولون ان الوقف على الخانكاه (مجتمع الصوفية) يحول الى غيرهم
لان اجتماعهم على بطالة لاعلى طاعة وعبادة فكذلك حال طلبة العلوم
اذا أهملوا النظر في العلم وأسأوا في التماسه

وليس يكفل هذا غير نظام صارم يقوم بتنفيذه على الطلبة رجل
حازم فان لم يكن هذا ولا ذاك فلسنا هنا ولا هناك

﴿ الشريعة في الأزهر ﴾

فائدة المتعلم من العلم أن ينفع أول كل شيء نفسه بما علم ثم ينفع
غيره من بني جلدته فاذا خلا العالم عن هذين الأمرين كان سعيه في تعلم
العلم عبثاً لا خير فيه وكان طلبه اياه ضلالاً وصرفاً للعمر فيما لا ينفع
به هو ولا غيره وأى خير في الطبيب اذا مرض واحتاج الى استعمال
الدواء فأعرض عنه وهو يعرفه وفي قدرته الوصول اليه واستعماله وما
الذي استفاده من تعلم الطب والانقطاع لتحصيله وأى فضل له على
الناس اذا دعى لمعالجة مريضهم فكف وأحجم أليس لو كان كف من
أول أمره عن تعلم هذه الصنعة كان خيراً له من تعلمه وحمل الناس على
الوقوع فيه

هذا ما لا يمكن المرء فيه مهما اختلفت الالهواء وتضاربت الآراء
فالانسان بعمله لا بعلمه وكل شرف وفضل يحصل عليه المرء في دنياه
فهو ثمن عمله لا ثمن علمه والعلوم اذا بقيت مخزونة في الدماغ ولم يظهر
لها أثر في الخارج فوجودها وعدمها سيان وأن ليس للانسان الا
ما سعى

ونحن اذا نظرنا الى الأزهر اليوم وقبل اليوم وهو أعظم وأقدم

مدرسة اسلامية لتخريج العلماء الدينين لم نجد فيه اثر من آثار الدين
غير ما يوجد عند عوام المسلمين ولم نجد في معاملاتهم شيئاً ينطبق على
الشريعة وكلها قد اقتصت بها اثر العادة أو اثر الهوى والرأي ومن
أنكر النكر أن يكون منجم الدين خالياً من الدين

يدخل الانسان متوضاً الازهر فيرى قوماً من طلبة العلوم
الشرعية بالازهر يدخلون المراحيض حفاة وهم يقرأون في كتبهم
الشرعية ان التوضيح بالنجاسة حرام فاذا خرج أحدهم من المراض
جاء فغسل رجليه أدنى غسل وانتقل الى المكان الطاهر وآثار النجاسة
على اقدامه فينجس الطاهر ويرى قوماً آخرين يأتي الواحد منهم الى
المحل الذي يتوضأ فيه فيكشف عورته بين جماهير طلاب العلوم
الشرعية ويبول حيث يتوضأ ثم يستنجي فيقع ماء الاستنجاء على مواضع
أقدامه فاذا قام نقل النجاسة بأقدامه النجسة الى حيث يقف للصلاة
كل هذه المنكرات الشرعية العقلية في محل الوضوء وثم غيرها
كثير لا حاجة للإطالة به ومن أعطى التأمل حقه لم يكتف بالحكم على
هؤلاء الاقوام بفساد الآداب والاستهانة بالدين وانما يحكم مع هذا
أيضاً بعدم صحة الصلاة في الازهر لشيوع النجاسة في الازهر من
المتوضأ الى المحراب وفي عصر فضيلة الشيخ حسونه النواوي شكى بعض
طلبة الأتراك اليه من سوء هذا الحال فأقام أحسن الله اليه في الميضاة

جماعة من خدمة الأزهر يكفون طلبه العلوم الشرعية عن القبائح
والمنكرات الشرعية بالعصى الا ان هذا الدواء لم ينجع وظل الحال على
ما كان عليه

ذلك لأنهم تربوا بين أهليهم على عدم التوقي من النجاسة
والتساهل في المنكرات ورسخ ذلك في نفوسهم فعجزت عن ازالته
الآراء والافكار . والمادة تقع على النفس كما تقع النقطة من المداد
على الورق فاذا كان الورق جيداً حسن القوام أمكن معالجته وازالة
أثر المداد عنه واذا كان رديئاً سرى المداد في اعماقه وخالط جميع أجزائه
ولم يبق من حيلة في ازالته فما زال الكاغذ موجوداً فالمداد معه
ولا يزول المداد الا بقطع محله من الورق وطرحه وليس يمكن مثل
هذا العلاج في النفوس وادواء العادات أبعد الادواء عن الشفاء

ومما يستنكر منهم انه اذا دخل وقت الصلاة انتصب امامان في
وقت واحد وذلك مستنكر شرعاً لما في ذلك من تفريق الجماعة وقام
خلف كل امام مبلغ بلغ له فيقع بذلك التشويش على المصلين فربما
انتقل أحد الامامين فانتقل المقتدون بالآخر لانتقاله ظناً منهم ان
المنتقل امامهم ثم يعلمون ان المنتقل هو الامام الآخر فيعودون الى
متابعة امامهم لتبيينهم الغلط في انتقاليهم وهكذا في سائر انتقالات
الامامين حتى تم الصلاة ولا يعلم المقتدون بمن يقتدون ولمن يتابعون
(٣٥ - التعليم)

وقد كان الاستاذ المرحوم المفتي تكلم مع فضيلة الاستاذ الشيخ
 حسونه النواوي أول توليته شيخا على الجامع الأزهر في هذا الشأن
 وذكر له ما ينتقده الناس على أهل الأزهر من تشويشهم على المصلين
 فأمر فضيلته أحد الامامين ان يتأخر بالاحرام في صلاته حتى تم
 صلاة الامام الآخر ان لم يكن لاجل الخروج عن كراهة قيام امامين
 في وقت واحد فلاجل عدم التشويش على المصلين في صلاتهم فوقع
 الاختلاف أولا فيمن يتأخر من الامامين وكل يرى انه أحق بالتقدم
 لوجوه أبدأها ثم استقر الأمر على ان يتقدم امام المالكية حتى اذا
 فرغ من صلاته شرع امام الشافعية فصلى بمن معه فكان اذا سلم الامام
 المالكي أحرم الامام الشافعي ثم لم يمض غير اليسير من الزمان حتى صار
 الامام الشافعي يدخل في الصلاة في أثناء صلاة المالكية كراهة للانتظار
 ثم مازالوا يتدرجون في الرجوع الى الحالة الأصلية حتى عادوا الى مثل
 حالتهم الاولى

وهذا من أغرب ما ينقل من آثار الجلود وياليت شعري اذا كان
 هذا حال الائمة فماذا عسى ان يكون حال المقتدين وكيف يمكن ان
 يتربي أولئك الطلبة التربية الشرعية الحسنة التي تؤهلهم لاصلاح حال
 أنفسهم وحال الناس الذين ربطوا آمالهم بهم بل لا يستنكر بعد هذا
 على صغار الطلبة الأزهريين ان يثبوا من فوق ظهور المصلين وهم في

سجودهم كما هي عادتهم اذا اصطف الناس للصلاة واذا كانت عجلة الامام القدوة تسهل عليه مقارنة امام آخر في الصلاة مع ما في ذلك من كراهة اجتماع امامين في وقت واحد وحرمة التشويش على المصلين فلم لا يسهل علي صغار الطلاب ان يثبوا من فوق المصلين وهم في صلاتهم اذا كان ائمتهم بالثابة التي اشرنا اليها

وحاصل القول ان الجامع الازهر الذي هو أكبر مدرسة دينية اسلامية لا يمجد الانسان في أعمال أهله شيئا ينطبق على الدين حتى ان الحوادث التي تحدث في الازهر بين أهله وترفع الى رؤسائه للحكم فيها لا يحكم فيها بحكم شرعي وانما يحكم فيها بالقانون الوضعي إن كان لتلك الحادثة نص في القانون وكان لهم غرض في اجراء الحكم القانوني أو بالوجدان وهو الاكثر الاغلب .. وأغرب شيء ان يكون منبع الدين لا أثر فيه للدين

وهذا الذي قلناه انما يكون في الحوادث التي ليس من شأن النيابة النظر فيها فاما المسائل التي من حقوق النيابة النظر فيها فتلك تحول اليها لتجرى فيها الاحكام القانونية

وقد كان اللائق بمثل هذه الجمعية العظيمة التي تمثل نظام الدين الاسلامي وحسن ترتيباته وجميل ادارته أن يكون لهم قانون مخصوص في جميع أحوالهم وأدوارهم يجري عليه كبيرهم وصغيرهم ولا بدع

لقانون آخر سلطة عليهم بان يجعلوا لانفسهم قانونا شرعيا ويتفقوا مع الحكومة على أن تكون معاملتهم به لا بسواه وان يقوم بتنفيذه عليهم قوم منهم لا من غيرهم فيكون هذا القانون شرعيا من جهة اداريا من جهة أخرى ويكون ذلك أشبه شيء بالامتيازات التي كانت تمنحها الحكومة لقوم معينين من رعاياها لمزايا خصوصية فيهم فكان يمكنهم بذلك المحافظة على رونق الاسلام وبهائه في المدارس الدينية الاسلامية وقد كان بعض أعيان مصر ممن ينظر الى المستقبل من وراء استر صفيق أشار على المرحوم المهدي أيام كان شيخا على الازهر ان يجعل للازهر قانونا شرعيا في كل ما يحدث فيه من الحوادث جليلا ودقيقا ويطلب من الحكومة ان تصدق عليه وتعتبره قانونا رسميا للازهر وسائر المدارس الدينية في مصر وقد كان في ذلك الحين ذلك ميسورا وحذره من عواقب المستقبل الا ان المرحوم العباسي لم يوفق لانجاز هذا العمل وعارضه في ذلك قوم كانوا يظنون ان السلطة العمياء ستبقى في أيديهم يديرون حركتها كما يشاؤون قال بهم الامر الى مثل ما نراهم عليه اليوم

ولذلك نحن نذبه أفكار عقلاء أهل الازهر وذوى الكلمة النافذة والرأى المطاع فيه الى انتهاز هذه الفرصة في اصلاح ادارة الازهر وادارة شؤونه وترتيب أموره قبل أن يخرج الأمر من أيديهم الى

غيرهم وتنزع البقية الباقية من السلطة التي في أيديهم ويدور الاصلاح فيه على محور لا يرضيهم ولا يضمن للازهر الديني حسن المستقبل فيقضوا عليه باهمالهم قضاءً أخيراً لا يرجي له بعده حياة قرب وقت يجيء وسلطة أكبر رئيس في الازهر لا تفضل سلطة أدنى خوجة في مدارس المعارف والبقاء على الحالة الحاضرة ضرب من المحال وفي النظر الى ماضي أكبر عبرة لمن يعتبر

وثمة أشياء أخر من المنكرات الشرعية والمستقبجات العقلية كتقدير الازهر باللقاء فتات الخبز وقشور البصل وغير ذلك فيه والاستهانة بالمصاحف ووضعها تحت الاقدام الي غير ذلك مما لو اردنا شرحه لاتسع علينا نطاق المقال وليس ذلك من غرضنا وانما الغرض ان نبرهن على ما قلناه أولاً من ان الشرع وآدابه اللطيفة لا وجود لها في المدارس الشرعية المصرية ونلفت انظار عقلاء الازهر بين وكبارهم الى الحالة الشنيعة التي شوهدت محاسن سمعة أهل العلم وحطت من علي مقامهم وكادت أن تحط بشأن الدين والشرع لظن قوم من الناس ان ما عليه أهل العلم الديني هو غاية محاسن الدين ومنتهى كماله

﴿ الآداب والأخلاق ﴾

ومما يوجب الأسف من أحوال الازهريين وغيرهم من طلبة العلوم الشرعية في القطر المصري ويستدعي عناية المهتمين على الازهر

القائمين بشؤنه شيوع فساد الأخلاق وقلة الآداب بينهم وقلة من
تحسن معاشرته من أهل هذا الجمع الكثيف الذي يعد بعشرات
الآلاف حتى كانوا في ذلك المثل المضروب بين الناس

وهذا شيء لا يحتاج أن نتكلف له دليلاً ولا أن نوضح لبيانه
سبباً فالناس الذين خالطوا بهض هؤلاء الناس يعرفون شيئاً كثيراً
من فساد أحوالهم ويألمون منها كما نألم ويرجون لهم من الصلاح
ما نرجو والطلاب أنفسهم اذا فتشوا عن سبب كراهة الناس لهم
ومقتهم إياهم علموا أن ذلك يرجع أكثره الى فساد أخلاق أكثر
الطلاب وسوء معاملتهم وبعد هذا فحسبنا دليلاً على ما ذكرنا ان كل
جمعية في العالم كلما كثر عدد أفرادها وطال عليها المهذار تفتت مكانتها
في القلوب وعظم شرفها الذي يمنحها إياه استعدادها الطبيعي الاجمعية
العلوم الشرعية فانها كلما كثر سوادها وقدم عهدتها انحطت مكانتها
وتضاءل شرفها وكثر سخط الناس عليها ومقتهم إياها

وليس في هذا ذنب على أحد من الطلبة فان أكثر أفراد طلاب
العلوم الشرعية الذين يشككون هيئة الجمعية الدينية ينتقلون دفعة واحدة
من الغيطان والمزارع والحقول وفيها في الأرض الى المدارس الشرعية
ولم يكونوا قد سمعوا قبل انتقالهم ذلك بشيء من أحاديث الآداب
وكمال الأخلاق وحسن المعاشرة فاذا حصلوا في مدارسهم في الامصار

المشحونة بالذائل ومفاسد الاخلاق فيفتحون أعينهم على ذلك وينمو ذلك في نفوسهم ويرسخ حتى يصير ملكة من الملكات حيث لم يجدوا مرشداً يرشدهم الى مكارم الأخلاق ولطائف الآداب ويحضرهم عليها بل ولا رادعا يكفهم عما تميل اليه نفوسهم من الانغماس في الرذائل إسوةً بالسواد الاعظم من اخوانهم وزملائهم في الطلب وسائر أهل مصر هم الذي انتقلوا اليه

وانما الذنب على رؤساء المدارس الدينية الذين أهملوا النظر في شؤون من تحت يدهم وفي قبضة تصرفهم من الطلاب وتركوهم هملاً كالانعام لا يفضلون صالحاً على طالح وألقوا اليهم مقاليد أمورهم يسرحون ويمرحون ويفعلون ما يشاؤون لا يخافون سلطة متسلط ولا يخشون عقوبة رئيس

ومن أمد غير بعيد شعر كبار رؤساء المدارس الدينية بفساد حال طلبة العلوم وشدة عوزهم الى شئ من التربية فقررروا لذلك ان يزداد في عدد العلوم الدراسية بين صفوف تلامذة المدارس الشرعية علم الاخلاق وتهذيب النفس وتربية الملكات الفاضلة فيها ولكن هذا وحده مما لا يكفي في تهذيب النفوس وكفها عما تميل اليه بطبعها من الانغماس في الرذائل والانكباب على ما يشينها ويحط من شأنها بل لا بد مع ذلك من مراقبة شديدة وعقاب صارم يقف بكل انسان

عند حده الذي ضرب له . فان النفوس في طبعها الشر والفساد وقبل
 في النفوس من تميل بطبعها الى الكمال والخير فان لم تجد في طريق
 طبائعها واستعدادها صارفا قويا وحازماً حصيناً يرد من غربها ويكسر
 من حدتها لم يقطعها عن استرسالها في ذلك سواد السطور على بياض
 الطروس وكلام تلقيه الشفتان في أوعية الاذان وما دامت الرقابة
 عدمية والرياسة اسمية والحدود الشرعية متعدية والقوانين الاصطلاحية
 مهجورة وباب الالتباس مفتوحا وسبيل الاسترضاء مطروقوا الارادات
 متعاكسة فمن المحال ان يحسن لهذه الجمعية الأسيفة حال

﴿ لجنة الامتحان في الأزهر ﴾

اذا نظر الرجل البصير الى هؤلاء الذين يمتحنون من أهل
 الأزهر ويمطون الدرجات العلمية وعلم ان كثيراً منهم ليس فيهم من
 الأهلية والاستعداد ما يرشحهم للوقوف في صفوف المعلمين لم يتردد في
 الحكم على اعضاء لجنة الامتحان بالتقصير في النقد والاختبار ان تردد
 في الحكم عليهم بالتحيز والمحاباة

وقد كنا من سنوات سلفت ذاكرنا أحد كبار أعضاء لجنة
 الامتحان ومن له الكلمة النافذة فيها في هذا الشأن على اثر اعطاء
 اللجنة العلمية شهادة الدرجة الاولى الممتازة لضعيف في العلم كبير في
 الجاه والقدر وذكرنا له ما في ترشيح الضعفاء من الطلاب للتعليم من

الاضرار بالمتعلمين والقضاء على البقية الباقية من العلوم الشرعية فكان
جواب ذلك العضو ان اللجنة مضطرة الى إعطاء شهادة العالمية لاناس
وان كانت لا ترى فيهم أهلية للتعليم وأكثر ما في وسع اللجنة أن
تخير الأحسن فالأحسن من الذين يتقدمون لنوال شهادة العالمية
وان كان فيهم كلهم ضعف قال حضرته فان الشيخ المفتي يبذل قصارى
جهده في اقناع الحكومة بأن التعليم في الازهر عقيم لا ينتج شيئاً فلو
تحرينا بالشهادة من يستحقها حقيقة لكننا قد صادقناه امام الحكومة
على أقواله وشهدت له أفعالنا بما تنكره عليه سنتنا

والشيخ محق في قوله ولكننا لسنا نرى ان هذا الذي ذكره هو
السبب الوحيد في عدم الاعتدال ونعتقد أن وراء ذلك السبب أسباب
فقد قضى المرحوم المفتي وخلا لهم الجو ممن ينه رجال الحكومة على
أحوالهم فبابهم لم يرجعوا الى السداد في أعمالهم ان كان خوف تغلب
المرحوم عليهم هو السبب في عدم استقامتهم

ولرب قائل يقول ان فضيلة الاستاذ المرحوم من يوم دخل
الأزهر والتأم نظام لجنة الامتحان حتي يوم وفاته تقريباً لم يفارق لجنة
الامتحان وادارة الازهر وله فيهما الكلمة المطاعة والرأي النافذ
فكيف كان يوافق علي ترشيح غير المترشحين واعطاء غير
المستحقين وطريقته تقتضي التصعب والتشديد قلنا ان الشيخ محمد عبده

من يوم دخل الأزهر بصفته عضواً في إدارته لم يكن يألو جهداً في قلب نظامه وجعله على نظام آخر يضمن له حسن الحال في حاضره والسلامة في مستقبله وكان يظن ان جماهير العلماء الذين لا بد من أخذ رأيهم في قلب النظام يوافقونه على آرائه ولا يعارضونه فيها فلما لم ير منهم الا العناد والاصرار على الاستمرار على الحالة القديمة ورأى صوته مغلوباً بين تلك الاصوات الكثيرة ولم ير منهم من يشايعه على فكره غير نفر يسير لا يمكنهم مقاومة ذلك الجرم الغفير عقد آماله بالناشئة الأزهرية الذين لم تشرب قلوبهم حب الحالة المألوفة ولا يخلو بعضهم عن كراهة لها فاضطر الى انغماض عينه في الامتحانات والتساهل مع المتقدمين لنوال الشهادات ليجعل له من هؤلاء المتخرجين الحديثين حزبا يقاتل بهم أولئك الذين لا يجدون الى الخروج عما ألفوه سبيلا ويضعف بهم أصواتهم والسياسة كما كان يقول رحمه الله تبرر من الاعمال كل فاجر

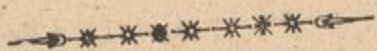
ولو ان المرحوم أمد له في سبب الحياة ولم تعاجله المنون لنجح في سياسته هذه وحصل على ما يريد فقد تحصل بهذه الطريقة التي سلكها على أنصار كثيرين يشايعونه على أفكاره ويوافقونه عليها وأكثر الذين نجحوا في أيام حياته في الامتحانات العلمية ونالوا الدرجة يعتقدون انهم مانالوا حقهم الا بفضل اعتداله واستقامته وأكثر الذين

يخرجون اليوم من قاعة الامتحان صفر اليدين يتمنون ان لو بقي
الاستاذ حيا حتى لا يجرموا ما يستحقون وما كل متمنى مدرك
وانا لارجو بعد اليوم ان يجري الامتحان على نظام حسن ومنهج
قويم لا يشوبه شئ من التحيز والمحاباة فقد كفى ما كان
وليس من ترتبط به الآمال في اصلاح هذه المدرسة الدينية
العظمى التي تجمع الالوف المؤلفة من الطلاب الذين ترتبط بهم آمال
المسلمين في مشارق الارض ومغاربها غير سمو الجناب الخديوي المعظم
صاحب السلطة الوحيدة في الازهر وانا لارجو ان لاتزال أنوار انظاره
مشرقة على الازهر المعمور وكتائب أفكاره المنصورة متوجهة اليه
بالاصلاح حتى يقف به على اليقاع فيعيد الاسلام مجدداً لوت به الايام
ويحفظ لنفسه ذكراً حسناً يتجدد بتجدد الاعوام
تم القسم الاول من كتاب التعليم ويليه القسم الثاني منه وهو
قسم الارشاد وفيه الكلام على الوعاظ والمتصوفة وما لهم من الآثار
السيئة على الاسلام وذكر العلاج الشافي من الامراض التي أحدثوها
في العقائد والاعمال .. والحمد لله كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً



فهرس قسم التعليم من كتاب التعليم والارشاد

٤١



صحيفة

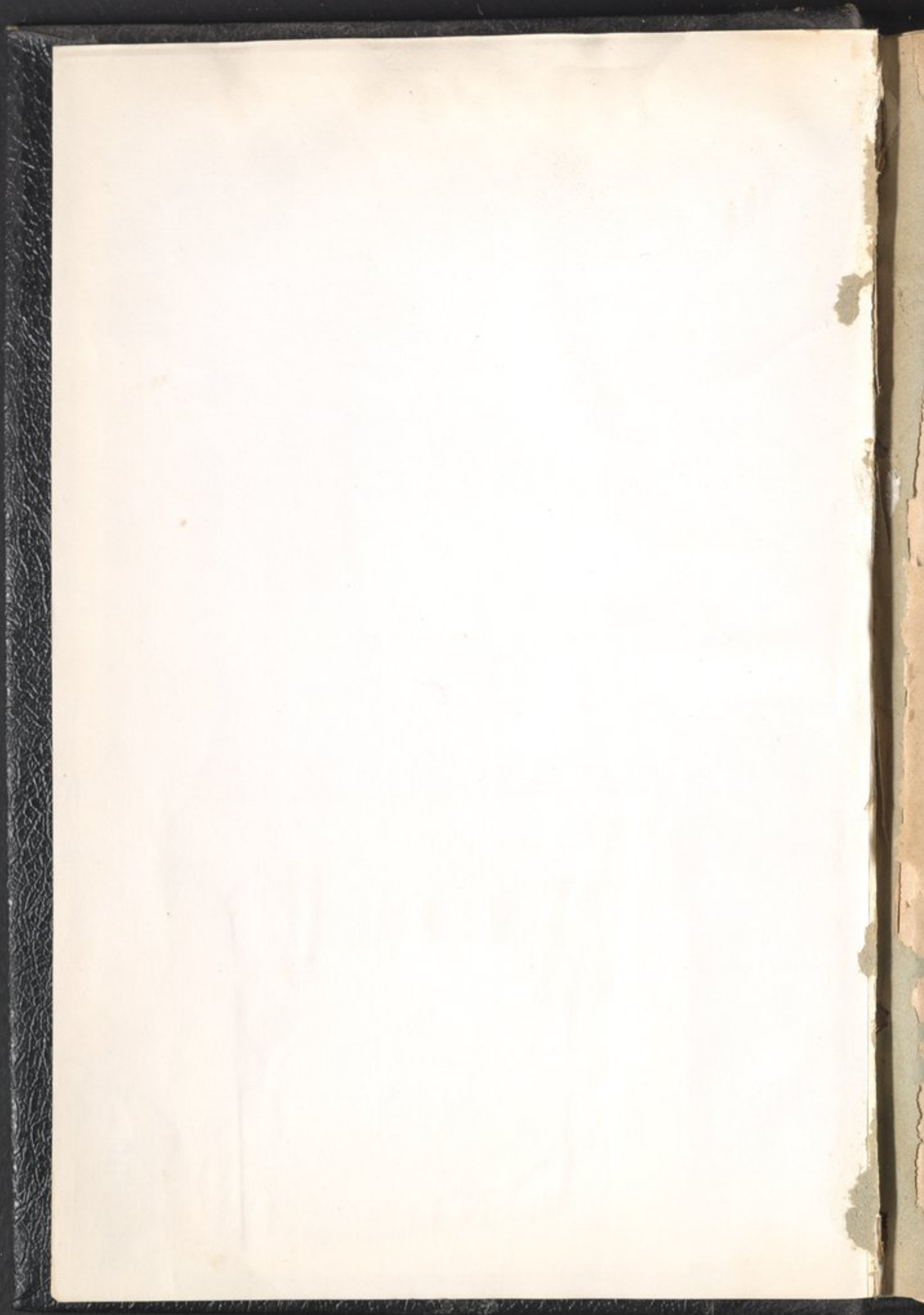
٢	اهداء الكتاب وبيان الغرض منه
٩	توطئة وتمهيد في شرح حال الوظائف الثلاث . التعليم . الارشاد . الدتة
١٦	مقدمة كتاب التعليم وفيها الكلام على ابتداء تدوين العلوم . وبيان الغرض الباعث على تدوين كل واحد منها . . . ووجه الحكمة في ذلك . . . وحا الاسلام اليها . . . وأحسن مؤلفات كل فن منها
١٦	أما علم العربية
١٩	وأما نفسه
٢٥	أما علم المنطق
٣١	وأما علم أصول الفقه
٣٦	وأما علم الفقه
٤٦	مطلب في دعوة علماء الاسلام الى اختيار الفروع الفقهية المناسبة لاجيال الزمان من مذاهب الائمة وجمع الناس عليها
٤٩	وأما علم التوحيد
٥٥	وأما علم المعاني والبيان والبديع
٥٩	المقصود من الكتاب وفيه الكلام على الكتب المتداولة في المدارس الشرعية وبيان جيدها من رديئها وعلى شرح طرق التعليم
٥٩	الكلام على علم العربية وانتقاد ال ولة فيه
٦١	مطلب في ذكر طرق التعليم في الم
٦٩	كلمة على ندوة العلماء في الهند رعية وبيان فسادها

- ٧١ مطلب في ان التعليم في المدارس النظامية عقيم وان ذلك ينحصر في أولئك
 ٧٧ مطلب في ان العلوم الآلية لا توسع فيها الأ نظار ونقل كلام ابن خلدون في ذلك
 ٨٢ الكلام على علم التفسير والكتب المنشورة فيه وبيان ما فيها واحداً واحداً
 ٨٨ مطلب في ان حالة العلوم الشرعية اليوم خير منها في القرنين السابقين
 ٩٠ خاتمة واعذار
 ٩٧ الكلام على علم المنطق وفيه ابطال قول القائلين بوجوب الاشتغال به وبيان
 انه عديم الجدوى في المطالب العقلية
 ١٠٠ مطلب في اضطراب التلافة في المسائل العقلية
 ١٠١ مطلب في قول الشيخ الرئيس ان التمييز بين الفصول والخواص أمر في غاية
 السهولة ان ذلك يرفع الوثوق بالأقوال الشارحة
 ١٠٤ مطلب في قول الغزالي ان الوصول الى اليقين مع كثرة الأوهام
 والعات ضرب من المحال
 ١٠٥ مطلب في ان المشتغلين بهذا الفن يعلمون من أنفسهم اهم لم يحصلوا منه
 على طائل
 ١٠٦ مطلب في ان سعادة الأمم بالعمل لا بالعلم
 ١٠٧ الكلام على علم أصول الفقه
 ١٢٤ كلمة في الأصول ورأى في الاجتهاد
 ١٣٠ مطلب في ان التقيد بمذهب امام واحد في المحاكم الشرعية مضر بالناس
 ١٣١ نتيجة البحث في الاجتهاد
 ١٣٣ الكلام على علم الفقه
 ١١٠ مطلب في أن العلوم الشرعية كغيرها من العلوم العلمية والتوحيد
 ١٣٦ مطلب في ذكر أسباب اجتهاد المجتهدين ورد أقوال الطاعنين عليهم
 ١٤١ ذكر الكتب المستعملة من كتب الفقه حنيفة وبيان ما فيها
 ٤٤٤ كلمة في الطباعة المصرية

- ١٤٧٠ فصل واذا قايس المرء بين مطبوعات مصر والبلاد الافرنجية رأى امرأ معجباً
 ١٤٩ مطلب في ذكر الكتب المتداولة في مذهب الشافعي وبيان ما فيها
 ١٥١ فصل في شرح الأسباب التي حملت المتأخرين من العلماء على التأليف
 ١٥٣ فصل في انه لا عذر للناس اليوم في استعمال كتب المتأخرين مع وجود
 كتب المتقدمين
 ١٥٤ فصل ومن أقبح آثار هذه الكتب انها تضعف الفكر
 ١٥٦ الكلام على علم الحديث وتوابعه
 ١٥٩ مطلب في أن إعراض الناس عن العلوم الشرعية انما هو لإدبار الأيام عنها
 وان ذلك من الأسباب الطبيعية وان ذلك غير قادح فيها
 ١٦٠ مطلب في الكلام على النهضة العلمية الاسلامية
 ١٦٤ الكلام على علم التوحيد وفيه ثلاث مقالات
 ١٦٥ المقالة الأولى فيما ورد عن السلف الصالح من ذم هذا العلم والتنفير عنه
 ١٧٥ المقالة الثانية في ذكر شيء من مقالات المتكلمين المخالفة لحقيقة الدين الاسلامي
 ١٧٥ مطلب في ان أصحاب المقالات في الاسلام أحد رجلين عدو عاقل ومحب مغرور
 ١٧٧ قولهم في الباري جل شأنه
 ١٧٩ قولهم في صفات الباري تعالى
 ١٨٣ قولهم في التقليد في العقائد
 ١٨٧ قولهم في النبي صلى الله عليه وسلم
 ١٩١ فصل في ان أكثر المذاهب الكلامية الفاسدة اضطر الباحث أربابها الى القول بها
 مع علمهم بفسادها
 ١٩١ مقالة الامام أبي الحسن الأشعري في الاعراض
 ١٩٢ مقالة في النظام لطفرة
 ١٩٣ مقالة أبي الهذيل العلاف في الاستطاعة
 ١٩٤ مقالة الأشاعرة في القرآن

- ١٩٦ المقالة الثالثة في شرح طريقة السلف في الآيات والأحاديث المتعلقة بالعقائد
- ٢٠٣ الكلام على علم البلاغة
- ٢٠٥ مطلب في انكار بعض الجهال إحكام اللغة العربية والرد عليهم
- ٢٠٧ مطلب في ان ملكة البلاغة لا تحصل من تعلم قواعد فنون البلاغة وانما تحصل بحفظ شيء من منظوم العرب ومنشورهم والاحتذاء به في العمل
- ٢٠٨ مطلب في ان حالة الانشاء العربي لا يمكن ان تترقى عما عليه اليوم
- ٢٠٩ مطلب في ان حالة الانشاء العربي في مصر تحسنت عما كانت عليه قبل هذا الجيل إلا عند أهل العلوم الشرعية وفيه ذكر شيء من آثارهم فيه
- ٢١٥ مطلب في ان تراجم الأفكار على موارد الابحاث مضرها
- ٢١٩ اصلاح طرق التعليم
- ٢٢٢ اجمال الكلام في اصلاح طرق التعليم
- ٢٢٣ مطلب في ابطال ما يحنج به العلماء لتمسكهم بكتب المتأخرين
- ٢٢٨ مطلب في ان المدارس بأنواعها انما بنيت لتعليم الضروري من العلوم
- ٢٢٨ مطلب في بيان كيفية تلقين العلوم والتدرج في تعليمها
- ٢٣٢ مطلب ومن الاضرار بالتعلمين تلقينهم الغيات في المبادئ
- ٢٣٤ مطلب ومن محاسن التعليم أن لا يفرق على المتعلم مجلس التعليم
- ٢٣٦ مطلب ومن المتحتم أن لا يشتغل المتعلم بعلمين في وقت واحد
- ٢٣٧ مطلب في بيان أمور يجب على المتعلم مراعاتها
- ٢٣٨ مطلب في انه لا ينبغي ان يمكن من الاشتغال بالعلوم الا من كان له استعداد لقبول العلم
- ٢٤١ مطلب بسط الكلام على ما في اشتغال المتعلمين بعلوم متعددة من المضار
- ٢٤٤ مطلب في انه يجب تفريق العلوم على المتعلمين
- ٢٥٠ مطلب في ان العلوم ينبغي ان يكون عدد المشتغلين بها على قدر ما يسد حاجة الناس اليها

٢٥٢	فصل لابن خلدون في ان من حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة في أخرى
٢٥٤	مطلب في ان من جملة العوائق عن التحصيل الإكثار من النظر في
٢٥٥	فصل لابن خلدون في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل
٢٥٨	فصل في ان الاشغال بمختصرات الكتب مضر بالمتعلمين ونقل كلام خلدون في ذلك
٢٦٣	خاتمة المقال
٢٦٧	كلمة في الازهر
٢٦٩	السلطنة في الازهر
٢٧٣	الشريعة في الازهر
٢٧٩	الآداب والاخلاق
٢٨٢	لجنة الامتحان



LC
903
H35x
v.1

11 - JUN 1985

